صبري موسى

الصخر.. والبحر؟

مصر كما رأيتها في الستينيات!

رشم للنشر والتوزيع
Rasha Publishing & Distribution

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الصخر والبحر

مصر كما رأيتها في الستينات!

صبري موسى

عن الكتاب..

"صبري موسى أحد كبار المبدعين في تاريخنا، اسمه وحده نراه عنوانًا لمدونة تشمل كل ألقاب التقدير والعرفان، من مواليد محافظة دمياط عام 1932، ورحل عن عالمنا عام 2018، تاركًا رصيدًا أدبيًا وصحافيًا وسينمائيًا ثريًا إلى أبعد الحدود، تقلد عدة مناصب وحصل على أرفع الجوائز محليًا ودوليًا، كما جرى ترجمة معظم مؤلفاته إلى لغات أجنبية متنوعة.

كان من ضمن ما أبدع فيه الرجل أدب الرحلات، حيث بادر بالترحال إلى عمق الصحراء المصرية، وأيضًا أشهر بحيراتها، كما قام برحلتين كاشفتين إلى باريس واليونان، وهو ما نفخر بإعادة نشره مجمعًا في هذا المؤلف بين يديك، حرصًا منا على التواصل بسيرة مبدعينا الكبار، وخاصة ما يتماس منها مباشرة مع الهوية المصرية، مع الأجيال الجديدة".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مقدمة..

في الصحراء

حكاية رحلة..

نشرت لأول مرة عام 1964..

هي رحلة ساذجة..

الهدف منها أن أغسلكم بالشمس..

أن أضع كلًا منكم أمام نفسه..

ليتفرج عليها.. ويكتشفها..!

في الصحراء.. لا يسألك الأطفال قرشًا..

إنهم يسألونك قليلًا من الماء..

نقطة من الماء..!

الصحراء التي نقصدها.. هي الصحراء الشرقية..

وتبلغ مساحة هذه الصحراء نحو 222 ألف كيلو متر مربع..

أي أقل قليلًا من ربع مساحة جمهورية مصر كلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(1)

نحن ذاهبون إلى مكان لا يذهب إليه الناس كل يوم، ولهذا يتحتم علينا أن نتبصر طريقنا جيدًا..

فهذه المساحة المخيفة، من السهول الرملية والصخور البركانية والجبال، الواقعة بين وادي نهر النيل والبحر الأحمر، والممتدة جنوبًا من جبل المقطم إلى حدودنا مع السودان، لا تحتل من الخريطة أكثر من بضعة سنتيمترات.. وبهذه الطريقة تبدو الصحراء لكلٍ منا وليس بها سوى الفضاء والسكون..

لكن الصحراء الحقيقية، لا تعطي نفسها إلا لمن يصادقها، وينعم النظر فيها..

وقد كانت هذه المساحة المخيفة في الزمن القديم، ملعبًا لأجدادنا الفراعنة، يتسللون إليه من حافة الوادي فيكتشفون جباله.. ويثقبون هذه الجبال بحثًا عن الذهب والرصاص والنحاس والتلك، وبقية المعادن الأخرى، التي شكلتها البراكين والزمن في الصخور..

أو يقطعون هذه الصخور من الجبال ويهبطون بها إلى حافة الوادي، ليقيموا بها مساكنهم ومعابدهم..

وقد تعاقب الزمان على هذا الوادي، وتنقل صولجان الحكم من الفراعنة حتى وصل إلى الأتراك.. ونزل علماء الطبوغرافيا الإنجليز بمراكبهم في البحر الأحمر، ودخلوا الصحراء الشرقية يرسمون لها الخرائط، وينقبون بين صخورها عن المعادن وحفريات التاريخ..

وسوف نتبين أن أسماء جميع الأماكن المذكورة في هذه الخرائط الطبوغرافية، والتي سيتردد ذكرها في هذه الرحلة، أسماء جبال، أملاها بدو الصحراء على علماء الطبوغرافيا..

وهي في الغالب، إما أسماء أطلقها الفراعنة القدماء.. أو أسماء حديثة أطلقها هؤلاء البدو على تلك الجبال..

والجبل عادة يتسمى بلونه.. أو بالخامة التي ينتجها.. أو بنوع من النبات ينبت فوق صخوره..

ولشد ما كنت مذهولًا وأنا أقف لأتأمل شجرة..

شجرة تشبه ملايين الأشجار التي يراها الإنسان طوال حياته.. لكنها كانت شجرة وحيدة منفردة.. نابتة على قمة جبل يرتفع عن سطح الأرض ثلاثة آلاف متر على أقل تقدير..

لقد استطاعت هذه الشجرة أن تنازع هذا الجبل البقاء عشرات السنين.. وربما مئات السنين.. حتى تمكنت أن تنتزع من صخوره غذاءها!!..

أما سكان هذه الصحراء فهم قبائل من الرعاة انحدرت من أعالي الجنوب.. من الحبشة والسودان.. منذ ألف سنة.

واستوطنت الجبال، تربي الإبل والغنم..

وقد عجزت عن إيجاد تفسير لهجرة هؤلاء الناس من أعالي النيل حيث تكثر المراعي، إلى هذه الصحراء القاحلة..

هم على العموم قوم غريبو الأطوار رغم بساطتهم.

يعيشون في وحدات متفرقة، كل وحدة تكون عائلة، وكل عائلة تسكن جبلًا أو سهلًا وحدها.. وكل عائلة تغير مسكنها، عشرة أو عشرين مرة كل عام.. سعيًا وراء العشب البري الذي يولد بعد السيول والأمطار..

وسوف نتعرف أكثر إلى هؤلاء السكان عندما ندخل الصحراء..

ولكن.. كيف ندخل الصحراء؟..

إن الصحراء لا زالت متاهة مخيفة مجهولة، رغم هذه الآلاف من السنوات التي مرت من أيام أجدادنا الفراعنة.. ورغم الزمن الحديث.. ورغم مئات الخواجات الذين هبطوا إليها أو دخلوها عن طريق البحر.. ليستخرجوا المعادن من صخورها ويبيعوها بآلاف الجنيهات..

كل الذي حدث لهذه الصحراء من تقدم، أنها أصبحت في نظام الحكم المحلي، تابعة لمحافظة البحر الأحمر..

وكانت من قبل تابعة لسلاح الحدود..

وهذا وحده، تقدم لا تحسد الصحراء عليه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(2)

هناك طريق يبدأ من السويس، وطوله ثمانمائة كيلو متر على ساحل البحر الأحمر.. يمر خلالها برأس غارب والغردقة وسفاجا والقصير ومرسى علم وأبو غصون وحماطة.. ثم يصل إلى رانيس..

وبرانيس ميناء قديم مهجور على ساحل البحر الأحمر.. بينها وبين إدفو على النيل ستمائة كيلو متر من الرمال والجبال.. والسهول التي تزوم فيها الشمس، ويموت على حافتها الإنسان من العطش..!

وهناك طريق آخر يخترق الصحراء ليصل بين قنا وسفاجا.. وطوله مائة وستون كيلو متر، قامت بتنفيذه قوات الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية..

وطريق ثالث بين قفط والقصير، طوله مائة وثمانية كيلو مترات، أنشئ سنة 1949، وقد أصبح في حالة سيئة الآن.. لعدم صيانته أولًا.. وثانيًا، لأن المقاول الذي أنشأه، قد تلاعب في الخامات..

وطريق رابع طوله 226 كيلو متر، يقطع الصحراء من إدفو إلى الشيخ سالم، ثم يخترق الجبال ويدور حولها حتى يصل إلى مرسى علم.. على شاطئ البحر.

أربعة طرق ممهدة، تذهب بك إلى الصحراء..

ولكن..

لا توجد أية مواصلات رسمية منتظمة، تسير على هذه الطرق.. والحل الوحيد أمامك إذا أردت أن تدخل الصحراء.. أن تقف على واحد من هذه الطرق حتى تمر إحدى السيارات التي تنقل التموين والعمال، ثم تشير بيديك إلى السائق ليأخذك معه..

فإن كان السائق يعرفك، سيأخذك..

وإن كنت غريبًا عن الصحراء، فسوف يتركك تلوح بيديك لكل سيارة كالعبيط..!

قال زميلي الرسام مصطفى رمزي:

- سنذهب بالطائرة إلى برانيس..

فدهشت..

بالطائرة إلى قلب الصحراء!!..

بالطائرة.. بعد كل هذا العناء في البحث عن طريق..؟!

قال مصطفى:

- أنا أعرف طائرة خاصة تحمل التموين للصحراء مرة كل أسبوع.. وأعرف رجلًا له نفوذ على هذه الطائرة.. سأتصل به ليدبر لنا مكانًا في الرحلة القادمة..

وغاب مصطفى يومين، ثم عاد يقول لي:

- موعدنا في السابعة من صباح الثلاثاء.. سأمر عليك لنذهب إلى الرجل في بيته.. وسوف يأخذنا من هناك إلى الطائرة..

وكان ذلك يوم الأحد، الخامس عشر من إبريل.. عام 1963.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(3)

يوم الأحد الخامس عشر من إبريل، لم تكن الصحراء تنتظرنا.. كانت تواصل بجبالها ورمالها ذلك الصمت المحلق، المضمخ بخلايا الحياة.. غير عابئة بتلك المحاولات الملحة، التي كنا نبذلها في القاهرة، لنزورها..

فماذا يهم الصحراء بشموخها، أن يزورها كاتب ورسام؟!.

في ذلك اليوم كانت الصحراء مشغولة بتلك الأنباء التي جاء بها الشيخ علي.. بعد زيارته للسيد محافظ البحر الأحمر في الغردقة..

فقبل ذلك ببضعة أيام أراد السيد محافظ البحر الأحمر أن يجد حلًا لمشكلة الماء في الصحراء «فطلب الاجتماع بالشيخ علي»، أحد مشايخ البدو العبابدة هناك..

والسيد المحافظ يقيم في الغردقة..

ورأس غارب والغردقة منطقتان ينتقل إليهما الماء العذب في بواخر، لقربهما من السويس..

أما باقي الصحراء.. قلب الصحراء وسكانه من البدو.. فموردهم الوحيد للماء، بضعة آبار مطمورة منتشرة هنا وهناك..

وبسبب الماء، انحصرت صناعة التعدين في بلادنا، وتركزت في جوانب الساحل.. حيث استطاعت بعض شركات التعدين أن تقيم على البحر واحدة أو اثنتين من تلك الآلات التي تشفط الماء من البحر، وتمتص منه المعادن والأملاح، وتوزعه على الموظفين والعمال..

والمتر المكعب من الماء العذب الذي نشتريه من بلدية القاهرة بستة مليمات.. يتكلف استخراجه بهذه الطريقة جنيهًا ونصف جنيه.. ولهذا تتصرف فيه هذه الشركات بحسابٍ شديد..

وقد نزل الشيخ علي من قلب الصحراء إلى الغردقة لمقابلة السيد المحافظ..

قال له السيد المحافظ:

- يا شيخ علي.. خلي ناس من بتوعك يحفروا الآبار القديمة في الجبال، يطلعوا منها ميه يشربوها..

قال الشيخ علي:

- هي لو فيها خير، كانوا سابوها يا بيه؟!..

قال المحافظ:

- يا شيخ اتكل على الله «الناس بتوعك كسلانين» خليهم يحفروا بدل ما يموتوا من العطش..!

قال الشيخ علي:

- حاضر.. الصبح نتفق مع الرجالة، ونخليهم يحفروا..

وعاد الشيخ علي إلى الصحراء..

ثم جلس في حماطة، وأرسل في طلب الشيوخ من الجبال..

وانحدر شيوخ الجبال إلى حماطة واجتمعوا بالشيخ علي، وعرفوا أن عليهم تنظيف الآبار القديمة للحصول على الماء..

وكان الشيخ علي قد أمر أربعة من الرجال بالذهاب إلى البئر القديم غرب جبل الدرهيب لتنظيفه ورفع الردم منه..

والمسافة بين جبل حماطة وجبل الدرهيب خمس ساعات بالسيارة.. ويومًا أو يومان على الأقدام..

والرجال الأربعة كانوا أقرباء.. رجل وأخوه وولده.. والرجل الرابع كان نسيبهم..

وقد حمل الرجال زادهم وماءهم وأدوات الحفر والحبال، وركبوا جملًا إلى الدرهيب.. ثم نزلوا عند البئر..

وفي الصباح المبكر ليوم الأحد بدأوا العمل..

أقاموا عشة صغيرة من الشجر والصفيح ووضعوا بها الطعام والماء..

ربطوا حبلًا على حافة البئر ليهبطوا عليه إلى داخله..

ربطوا حبلًا آخر في القفة التي ستحمل الردم من قلب البئر..

وأنزلوا القفة في البئر.. واتفقوا على أن يبقى منهم اثنان خارج البئر.. لاستقبال الردم وإفراغه وإعادة القفة.. واثنان ينزلان في البئر لرفع الردم..

ونزل الرجل وولده، وبقي العم والنسيب..

عمق البئر عشرون مترًا عموديًا.. ومساحته متر في متر.. وقد صعدت القفة إلى سطحه مليئة بالردم فاستقبلها العم والنسيب.. وأفرغاها وأنزلاها.. وانتظرا أن تصعد ثانية.. لكنها تأخرت..

مد العم رأسه داخل البئر ونادى على شقيقه لكنه لم يسمع سوى صدى الصوت..

هز الحبل كالإشارة المتفق عليها، لكنه لم يتلق إشارة مماثلة..

فانزعج، وقرر أن ينزل ليعرف ما حدث..

وترك النسيب في الخارج..

وقف النسيب على الحافة يرقب العم وهو يغيب داخل الظلام العمودي المجوف.. لم يكن يسمع صوتًا.. والشيء الوحيد الذي كان يعلن عن الحياة داخل البئر تلك الاحتكاكات التي كان يصنعها الحبل بالحافة أثناء نزول العم.. ثم توقفت هذه الاحتكاكات فعرف النسيب أن العم قد وصل إلى القاع.. فانتظر فترة وهو يرقب الحبل بعينيه الضيقتين..

كان ينتظر إشارة من العم بالحبل.. لكن الإشارة تأخرت.. فعملها هو.. حرك الحبل يمينًا ويسارًا ثم تركه يسكن على الحافة وانتظر الرد..

لكن الحبل ظل ساكنًا..

فمد رأسه داخل البئر وأخذ ينادي العم.. فلم يرد عليه.. فأخذ ينادي الأب.. فلم يرد عليه.. فأخذ ينادي الولد.. فلم يرد عليه..

لم يرد عليه أحد.. وكان الظلام العمودي المجوف يبتلع نداءاته وينغمها ويكررها.. فخطف الروع قلبه.. وأصابه جنون الخوف فأخذ يصرخ في فتحة البئر، صراخًا مفعمًا باليأس.. وظل يجري هنا وهناك حول البئر في خبل.. ساعة أو ساعتين.. ثم أدرك في النهاية أن البئر قد ابتلعت الرجال.. وأنه قد أصبح وحده تمامًا في هذا الجبل..

وقد بدا الظلام يزحف على الصحراء، فظل النسيب يجري في وهاد الجبل وأخاديده حتى وصل إلى معسكر العمال في منجم الدرهيب عند منتصف الليل..

وكان منجم الدرهيب هو أقرب عمار إلى البئر.. وكان معسكر العمال مكونًا من أغصان الشجر والبراميل المفتوحة.. أعشاش واطئة تلمع فيها أحيانًا بعض الأخشاب..

وكان العمال نائمين، والأعشاش ساكنة كأنها كهوف مهجورة.. فوقف النسيب يلهث وهو يصرخ ببعض الأسماء، فصحا العمال وخرجوا من الأعشاش وأحاطوا به..

ومن خلال لهاثه أدركوا الواقعة!!..

فوضعوا للرجل طعامًا وماء.. وجلسوا حوله يتكلمون.. طول الليل والجميع يخمنون ما الذي حدث للرجال في البئر..

قال واحد:

- لعل البئر مليء بالطين.. وقد غرقوا فيه..

- يمكن..

فقال النسيب:

- أبدًا.. أول غلق طلع مليان ردم ناشف.

فقال آخر:

- يكون البير فيه غازات خنقتهم..؟

- يمكن..

- وللا يكون فيه تعابين..؟

- يمكن..

وطلع النهار، ولم يصلوا إلى سبب.. وفي فجر يوم الإثنين، تحرك الرجل وبدأ يجري إلى حماطة.. ليخبر الشيخ بما حدث..

حماطة بين برانيس وأبو غصون..

هناك ينحدر الجبل مكونًا سفحًا ممددًا إلى ساحل البحر الأحمر.. سفحًا يضم عددًا غير قليل من التلال والوديان..

ويخترق السفح ذلك الطريق الأسفلتي القديم الممدد من السويس إلى برانيس.. وطوله ألف كيلو متر على التقريب..

وعلى هذا السفح أقام حرس السواحل نقطة بوليس.. كشك صغير من الخشب وبرميل ماء، وعسكري شاب.. هي فقط مظاهر الأمن المنظم والمظهر الرسمي للقانون..

وأمام هذا الكشك كشك آخر كبير وله سلم وبلكونة وفيه غرفتان أو ثلاث، استراحة موظفي الدولة الذين يفتشون على المناجم.. وموظفي مصلحة الأبحاث، الذين يكتشفون الخامات في الجبال..

وفي المنحدر أسفل هذين الكشكين عشة من أعواد الشجر الجافة والأخشاب المهملة على حافات المناجم، والبراميل المشقوقة نصفين..

عشة فقيرة لكنها نعمة عظيمة في وهج الصحراء.. وما أنفسها وأعظمها وأغناها بقعة الظل التي تحتها.. حيث يجتمع الرجال الهابطون من الجبال فيعرفون الأخبار ويتبادلون الرسائل وينتظرون القوافل ويجتمعون بشيوخ الصحراء ويتناقشون في الملمات..

وقد وصل الرجل الرابع من الدرهيب إلى هذه العشة بعد ظهر يوم الإثنين..

لم يكن الشيخ علي موجودًا.. فحكى الحكاية للشيخ ناصر.. ولم يكد ينتهي من الحكاية والشاي، حتى كانت العشة قد امتلأت بالعبابدة.. وبعض أقارب الرجال الثلاثة.. الذين أخذهم البئر.. فقد انتشر الخبر في الصحراء..

قال الرجال:

- شوف لك صرفة يا حاج ناصر.. قول لنا نعمل ايه..؟

قال الحاج:

- انتوا جايين منين دلوقت؟..

قالوا جميعًا:

- من عند البئر.. الريحة طلعت وملأت الجبل..

- ريحة جيفة يا حاج..

- الميتين جافوا، ولازم ندفنهم..!

قال الحاج:

- لازم نبعت إشارة للقصير عشان يبعتوا وكيل النيابة يعمل تحقيق..

في المدينة يدق الرجل منا التليفون لبوليس النجدة ويبلغه بالحادثة.. فتجيء عربة النجدة في دقيقتين.. أو يطلب وكيل النيابة فيحضر في ساعة أو ساعتين..

لكن الحاج ناصر لم يكن عنده تليفون في الصحراء..

توجد فقط محطة صغيرة للتلغراف اللاسلكي في مرسى علم.. ومرسى علم ميناء صغير للصيد.. ومن هذه المحطة يمكن الاتصال بالقصير.. أقرب حضارة لقلب الصحراء.. في القصير خط تليفوني يعمل حسب الأحوال الجوية بينها وبين السويس..

وفي القصير يقيم حرس السواحل والبوليس.. ووكيل النيابة في القصير يقيم القانون..

والمشكلة كانت كيف يمكن إبلاغ الإشارة لمرسى علم.. لإبلاغها للقصير..

قال الحاج ناصر:

- نرسل الإشارة بالبريد..

ثم أخرج ورقة كتب فيها ملخصًا للحادث.. ثم طلب وكيل النيابة للتحقيق.. وطوى الورقة وأعطاها لولد في الثالثة عشرة.. كان الولد قد ملأ زمزمية بالماء..وربط منديلًا حول بعض الطعام.. وشمر جلبابه وربطه حول وسطه.. وربط الطعام والماء على كتفه.. وأحضر فرعًا صغيرًا من شجرة قريبة وشقه من طرفه شقًا صغيرًا وضع فيه الخطاب.. ورفع الفرع بالخطاب فوق رأسه كالعلم..

قال الحاج:

- ماتغيبش يا واد..

قال الرجال:

- حانفضل منتظرين..

قال الولد:

- توكلت على الله..

وانطلق يجري في خطٍ مستقيم.. مرتفعًا ومنخفضًا، حتى غاب عن الأنظار..

وكان الرجال قد وقفوا لتوديعه..

وعندما اختفى نظر واحد إلى الشمس يبحث عن مكانها في السماء ثم قال:

- الساعة دلوقت تيجي اتنين ونص..

قال الحاج:

- إن شاء الله يوصل مرسى علم بالليل..

قال الرجال:

- يكون بتاع اللاسلكي نام..

- ويكون وكيل النيابة نام..

قال الحاج:

- يبلغوها الصبح يوم التلات.. ووكيل النيابة يوصل عندنا الضهر أو آخر النهار..

قال الرجال:

- آخر النهار؟!..

قال الحاج:

- آدي احنا جاعدين.. اعمل يا ولد الشاي..

ودخلوا بقعة الظل تحت العشة..

وبدأوا يتهيأون لهذا الانتظار الطويل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(4)

في الساعة السابعة من صباح الثلاثاء 17 إبريل.. انتزعني من النوم زميلي مصطفى رمزي.. وفي دقيقتين جعلني أدخل في ملابسي.. وفي دقيقة وضعني في سيارة الأجرة التي تركها تنتظر عند الباب..

وكانت نسمات الصباح نشوانة تداعب الوجوه المزدحمة في شوارع القاهرة..

وكانت الشمس طفلة تحبو متراقصة على مياه النيل..

وكان الرجل الذي يعرفه زميلي مصطفى، ينتظرنا في بيته..

وقف مصطفى بيننا وقدم كلًا منا للآخر..

المهندس فؤاد شال، عضو نادي الصيد..

أهلًا وسهلًا.. ودعانا الرجل الودود إلى الصالون.. وطلب لنا الشاي..

وأخذ يتحدث..

قال إنها رحلة صعبة.. ونظر إلينا بإشفاق..

ثم سألنا ما الذي نريده من الصحراء؟..

قلت له:

- نتعرف عليها..

فقال:

- بس كده، وللا عايزين تشوفوا حاجة بالذات؟..

قال مصطفى ببراءة:

- حاجة زي ايه؟..

قال الرجل:

- الصحراء أهي فيها حاجات كتير!!..

وقد دخل الشاي في تلك اللحظة، فبدأنا نرتشفه.. لكن الرجل نظر في ساعته فجأة وقال وهو ينهض:

- ياه.. دي الساعة قربت على تمانية.. والطيارة ميعادها خلاص..

كانت الطائرة الضخمة مزدحمة من الداخل بصناديق الطعام المحفوظ.. وأقفاص الخبز، والخضر والفاكهة..

طعام المدينة البسيط.. تتضاعف قيمته ويصبح كنزًا ثمينًا يتم نقله إلى الصحراء في عنايةٍ وحرصٍ شديدين..

وقد رأيت بعد ذلك بأيام، أربعة رجال في وهج الشمس في بطن الجبل.. يقتسمون خيارة خضراء.. كانوا يقطعونها ببطء ويشربون خضرتها بعيونهم قبل أن يلتهم كل منهم نصيبه الصغير منها.. وأصبحت الخيارة من الذكريات السعيدة التي يتكلم عنها الرجال!!.

وكانت الطائرة غير مبطنة بعوازل الصوت التي تتمتع بها طائرات الركاب التي تسافر إلى المدن والعواصم.. وصوت اختراقها لطبقات الجو كان يئز في داخلها أزيز يحجب الأصوات.. وقد حاول مصطفى رمزي، وكان جالسًا في المقعد الخشبي المجاور لي، أن يحدثني.. وقد اكتشفت أنه يحدثني حين رأيت شفتيه تتحركان.. لكنني لم أسمع صوته.. وعندما أردت أن أستوضحه ما يقول.. لم أسمع صوتي أنا أيضًا..

وكان الأستاذ فؤاد شال عضو نادي الصيد، وأحد مكتشفي المعادن في الصحراء ورفيقنا في الرحلة، يحاول أن يشرح لي الطريق وهو يشير بأصبعه من نافذة الطائرة.. ورغم محاولاته المتكررة لكي يصل صوته إلى أذني التي لا تبعد عن فيه بأكثر من ثلاثة سنتيمترات.. فلم أسمع سوى هذا الأزيز المستمر.. هذا الطنين..

واكتشفت أن أذني أصبحت بدون فائدة.. فاستعملت عيني..

كانت الطائرة تحلق فوق قمم من الجبال.. تتوهج عليها شمس الصحراء فتصبغها بألوان غامضة، تحولها إلى عالم مسحور تسكنه الجن، والعفاريت..

وقد أعادت إلى قلبي تلك القشعريرة التي كنت أستشعرها في حكاية جدتي عن الربع الخراب الذي سار فيه الشاطر حسن، ليقابل أمنا الغولة، ويأخذ منها لبن العصفور ليعطيه لست الحسن والجمال..

وقد ظلت هذه القمم طوال الوقت تحتنا..

وكان الفضاء حولنا ساكنًا، فخيل إلى أن الطائرة لا تسير.. وخدرني هذا الشعور الساخن المعلق، فاستغرقني حلم صغير نمت خلاله مؤرجحًا على طنين الطائرة.. ثم استيقظت على صدمة مفاجئة..

كانت الطائرة واقفة في برانيس..

كنا قد وصلنا الأرض، وكان الباب مفتوحًا فنزلنا.. ودخلت حضن الصحراء من هذا المكان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجد علامات تعارفنا عليها في المدن، لنميز بها مكانًا عن مكان.. لكن هذا التمييز في الصحراء يصبح غير ذي موضوع.. فكل علامات الصحراء واحدة..

وعندما لمست أقدامي الأرض نظرت حولي، فلم تمسك عيناي بشيء..

نحن الذين نعيش في المدن أغلب حياتنا تصبح عيوننا قاصرة وضعيفة، لأننا ما نكاد نطلقها حتى تصطدم بأشيائنا.. بمصنوعاتنا.. تصطدم بتمديننا.. تتخبط في الأعمدة والجدران، والسيارات وملايين المعروضات في واجهات المحال العامة.. ولا تجد فرجة صغيرة تحلق منها إلى آفاق أمنا الطبيعة، فنتأمل القمر والأرض والسماء..

وقد أحسست بعيني تفلتان مني في هذا الخلاء الفسيح، عندما هبطت من الطائرة، وكأنما استعادت حريتها.. وراحت تمرح وهي تحدق في الامتداد الفسيح للأرض الرملية التي هبطنا عليها، حتى تصل إلى الظلال الكثيفة البعيدة عند الأفق..

في تلك اللحظة رأيت السراب..

تعرفت به..

كانت في انتظارنا عربة جيب..

وقد انشغل الجميع بنقل الخبز والخضراوات من الطائرة إلى العربة..

أما أنا فذهبت بعيدًا.. وأخذت ألاعب صديقي الجديد وأكتشفه.. صديقي السراب..

في الأول ظهر لي ظلالًا كثيفة عند الأفق.. مجرد ظلال.. وعندما أمعنت النظر، ظهرت لي قباب ومآذن وأسوار وبوابات خرافية..

ويمكنني أن أقسم أنني رأيت أشجارًا.. أشجارًا كثيفة وارفة، تبدو وكأنها تموج وتتحرك..

وقد لمس الأستاذ فؤاد كتفي وهو يسأل:

- أتتفرج على السراب؟..

فهززت رأسي..

قال:

- لقد انتهينا.. اصعد إلى العربة..

فصعدت إلى العربة، وانطلقت بنا..

لم يكن لها طريق مرسوم بالأسفلت.. لا شيء أكثر من آثار عجلات سابقة ممتدة إلى الأمام داخل الصحراء، وقد لاحظت أن السائق يحاول ألا يحيد عنها.. أدهشني أن تكون أمامه تلك المساحة الهائلة التي لا تحدها عربات أخرى أو إشارات مرور، دون أن ينطلق فيها كما يريد..

لكنه كان يستعمل عقلًا إنسانيًا يتبع الماضي.. عقلًا إنسانيًا يتبع التجربة السابقة ويهتدي بها..

قال لي:

- العربة التي تركت هذه الآثار، نجحت في سيرها.. ولهذا أنا أتبعها.. قد يبدو لك الرمل صلبًا يحتمل العجلات، لكنه لا أمان له.. قد أنحرف وأدخل فيه فيبتلع عجلاتي ولا أستطيع التقدم..

وقد استمر يتبع العجلات متقدمًا في سرعة مطمئنة، ولم يكن في الفراغ حولي ما يمكن أن أتأمله.. لم يكن غير الرمل الباهت الأصفر، والسماء الباهتة الزرقاء.. وضوء الشمس.. وأنفاس الأرض التي تتكاثف كلما ابتعدنا عنها فتصبح سرابًا.. فظللت أتأمل السراب..

حاولت أن أكتشف اللغز الذي يحويه، فيجعله قبابًا ومآذن مرة، وحدائق ونافورات مرة أخرى.. ثم أدركت أن اللغز داخلنا نحن..

كنت على درجة من الوعي بموقفي.. مما جعلني أدرك، أن الطموح والأمل والرغبة، هي الفخاخ التي ننصبها لأنفسنا..

كنت جالسًا في عربة محملة بالخضروات، والخبز، ولهذا كنت متماسكًا أتأمل السراب، وأحلله وألعب به..

لكنني لو قلبت الصورة على وجهها الآخر.. ووضعت نفسي في الصحراء دون خضروات أو خبز، دون ماء..

لو كنت عطشانًا جوعانًا في هذه المساحة الهائلة التي لا تلمح فيها ظلًا لمخلوق.. لجريت ناحية السراب جريًا لحوحًا.. أبغي الأمان تحت قبابه، وأنشد الارتواء من نافوراته وأشجاره.. ولظللت أجري وأجري وكأني مدفوع بقوة خارقة، دون أن أصل إلى القباب أو الأشجار.. لأنها لن تكون سوى وهم.. صنعته حاجتي!!.

بعد ساعة صعدنا بالسيارة فوق تبة عالية.. ووقفنا.. فرأيت الماء..

هذه ميناء برانيس..

جسر صغير متهدم ممدود في ماء البحر الأحمر.. وقارب قديم مهجور.. ومركب كبيرة..

اسمها على الخريطة: رأس بناس..

حيث تدخل الصحراء لسانًا من الرمل في البحر الأحمر، صنع الصيادون عليه هذا الميناء..

كان على التبة استراحة من الخشب..

مجرد مكان يصنع الظل.. فتوقفنا فيه للغداء..

وجلسنا نرسم خطتنا..

قال فؤاد شال:

- في الضفة الشرقية من هذا البحر، توجد السعودية.. وإذا انحدرنا إلى الجنوب سنذهب إلى السودان..

أين تريدون الذهاب..

قلت له:

- لن نفرض على الصحراء رغباتنا.. ماذا ستفعل أنت؟..

قال:

- سأتحرك إلى حماطة.. ومنها إلى أبو غصون.. منجمنا هناك..

قلت له:

- سنذهب معك.. سنترك أنفسنا للصحراء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرت السيارة التبة، وانطلقت تخترق الصحراء والسراب يتراجع أمامها.. ومن الأرض كانت تتصاعد على البعد أعمدة متماسكة من الصهد.. أعمدة بيضاء شفافة لو أمعنت فيها البصر لأحسست أنك في رحاب معبد أسطوري قديم..

وبعد نصف ساعة بدأنا نلمح الظلال البعيدة لجبل حماطة..

وعندما اقتربنا من السفح ظهر لنا أول الطريق الأسفلتي.. ثم بدأت عشة نقطة السواحل وعشة العبابدة واستراحة الأبحاث تظهر تباعًا، كنقط صغيرة عند الأفق..

كان الأستاذ فؤاد شال يشير بأصبعه ناحية هذه النقط الصغيرة ويشرح لي، عندما ضغط السائق الفرامل فجأة..

وفي نفس اللحظة، مرق تحت العجلات جسم صغير أبيض.. مرق كالسهم وقفز مبتعدًا ناحية الجبل..

قال الأستاذ فؤاد شال:

- ده قط الأبحاث.. لما نوصل أبو غصون ابقى اسأل الأستاذ متولي وهو يحكيلك عليه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(5)

تدحرجت السيارة الجيب حتى وصلت إلى حماطة.. فرفع جندي الحدود خشبته الطويلة وفتح لنا الطريق.. ثم تبادل مع السائق كلمات خافتة..

وقد سأله الأستاذ فؤاد شال عن الحاج ناصر، فقال:

- مع العبابدة في العشة.. هناك!!..

فخرجت السيارة من الأسفلت وأخذت تتقافز على الهضبة متجهة إلى العشة، والأستاذ فؤاد يتكلم مع السائق..

- كان بيقولك ايه الشاويش؟..

- بيقول الرجالة ماتوا في البير!!..

- أي بير؟!..

- البير اللي غرب جبل الدرهيب..

قالها السائق وهو يدوس الفرامل، ويغير الفيتيس ويغلق مفتاح الكونتاكت..

وكانت السيارة قد وقفت أمام العشة..

وبجوار العجلات، رأيت النار تحت كوز الشاي، وصبيًا يغسل أكوابًا من الألمنيوم لها آذان.. وكان الرجال جالسين على أنفسهم داخل الظل، وقد احتضن كل منهم وجهه بركبتيه..

ألقينا السلام فنهضوا جميعًا.. وأفسحوا الطريق للحاج ناصر ليرحب بنا..

الأستاذ فؤاد شال يمثل الشركة العامة للألمنايت.. أهم شركات التعدين في الصحراء ومناجمها في أبو غصون..

والألمنايت هو أحد الخامات الرئيسية لأكسيد التيتانيوم الذي يدخل في صناعة البويات والطبع على الأقمشة والورق، وصناعة الألمنيوم..

والحاج ناصر يمثل أعراب الصحراء..

والعلاقة بين عرب الصحراء وشركات التعدين علاقة حميمة.. فالشركات مصدر رزق للبدو.. مصدرًا للغذاء والماء والعمل.. وأهم من هذا فهم نوع من الجيران يمثلون وجهًا للحياة لا يعرفه البدو، فقبل أن تدخل شركات التعدين في الصحراء لم يكن البدو يعرفون شيئًا عن المواسير أو الراديو أو الآلات الحديدية..

والبدوي بالنسبة لشركات التعدين، لا يقل في الأهمية.. فهم أدلاء ومرشدون في مسالك الصحراء ووديانها، وفوق قمم الجبال وفي روافدها.. يعرفون الطريق بالحس الغريزي.. يهتدون إليه بالعلامات البسيطة جيلًا بعد جيل، كذؤابة جبل أو لونه، أو طبيعة الصخر فيه.. أو نوع النبات الذي يطلع عليه بعد أن تجف السيول..

ولهذا تصافحا بحرارة.. الأستاذ فؤاد شال والحاج ناصر.. وما كدنا نجلس حتى كان الشاي بين أيدينا.. وأخذا يتكلمان عن الأحوال.. في حماس يطفئه الصهد والحرارة والكسل..

تكلما عن عينات من التلك عثر عليها بدوي في جبلٍ ما.. واتفقا على موعد بعد يومين لزيارتها ومعاينة المكان.. وتكلما عن مهندس بارع اسمه نبيل يشرف على ترحيل العمال والأدوات من منجم انتهى العمل به في جبل أم سميوكي..

قال الأستاذ فؤاد شال:

- طب يللا بينا على أبو غصون..

هز الحاج ناصر رأسه وقال:

- أنا ولا أقدر أتحرك..

- ليه؟..

- مستني إشارة من القصير..

- خير؟..

- أبدًا.. من يومين نزلوا تلات رجالة في بير الدرهيب، ولا طلعوش..

- آه.. ما هو العسكري في حماطة كان بيقول..

- بعتنا الواد حسين يدي إشارة لوكيل النيابة من مرسى علم..

- هيه؟..

- قالوا له حانرد عليكم يوم التلات..

- النهاردة يعني؟!..

- آدي احنا مستنظرين..

- طب ما تيجي معانا أبو غصون ولما تيجي الإشارة يجيبوهالنا هناك..

قال الحاج:

- ولا أقدر أتحرك.. الريحة طلعت من البير.. ومليت الجبل على بعد كيلو.. والرجالة اللي انت شايفهم دول قرايب الميتين أعمامهم وأخوالهم.. ونسوانهم هناك حوالين البير.. مفيش على لسانهم غير شوفلك صرفة يا حاج..

- وانت حاتعمل لهم ايه؟..

- حا أقعد معاهم.. لحد ما ييجي وكيل النيابة يصرح بالدفن..

- وافرض مجاش؟..

- آدي احنا مستنظرين!..

- طب ما تدفنوهم؟..

- ضحك الحاج ناصر في بأس.. انفرج وجهه الأسمر عن أسنانه البيضاء وهو يغمغم..

- أي والله.. ندفنهم يقوموا ييجوا يفتحوا عليهم ويعملوا لنا س وج.. ويفتكروها جناية بقى، موش حادثة في بير!..

- وايه حايعرفهم؟!.. ده احنا في الصحراء!..

- يييه.. انشاء الله بعد سنة، لو عرفوا راح ييجوا يفتحوا ويطلعوا الميتين..

- لما يبقى يعرفوا يبقى يفتحوا..

فاربد وجه الحاج ناصر ثم انفرج بسرعة:

- الفحت على الميتين حرام..

قال الأستاذ فؤاد شال:

- طب نستناك في أبو غصون على العشا..

- يسويها ربنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت بنا السيارة من الهضبة.. ثم انزلقت على الأسفلت إلى أبو غصون.. كنت ثقيلًا بداخلها، منطويًا على هذا الحدث الذي شاءت الصحراء أن تواجهنا به..

أن تبتلع ثلاثة رجال على شرف استقبالنا.. ولم أكن أعلم ساعتها أن هذا الحدث الذي كانت الصحراء مشغولة بتدبيره قبل مقدمنا بيومين.. سوف

يلقي ظله الكئيب على رحلتنا.. فقد كان له وقع السحر في تشكيل النفسية التي أواجه بها الصحراء..

في الأول كنت مرحًا.. كرجل في نزهة مع مجموعة من الرجال..

وكانت الصحراء تبدو لي حتى ذلك الحين فضاء رحبًا مسالمًا، وشديد السكون.. نوعًا من العلاج للتوتر الحضاري الذي جئت مشحونًا به من المدينة..

وفي حماطة، كشفت لي الصحراء عن وجهها القبيح.. فذابت خفتي..

وفي الطريق إلى أبو غصون كنت أنظر إلى الصحراء من السيارة في وجلٍ وتوقير.. فلم يعد يمكنني الاستهانة بها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(6)

كنا ما زلنا نتلمس طريقنا على الأطراف الشمالية للهضبة..

وعندما دخلنا أبو غصون، رأينا البحر الذي تركناه خلفنا في برانيس.. فالهضبة تعلو، وتنخفض، وتدخل في البحر وتبعد عنه فتجعلنا نراه أحيانًا وأحيانًا أخرى لا نراه..

وأبو غصون سهل منبسط أسفل جبل تنمو عليه الغصون..

وقد أقامت الشركة العامة للألمنايت على هذا السهل معسكرًا مبنيًا بالحجر الجيري، لعمالها وموظفيها ومهندسيها الذين يستخرجون خام الألمنايت من الجبل.. وأقامت على البحر ميناء أتوماتيكيًا لصحن الخام وشحنه في السفن إلى جميع البلاد التي تشتغل بتصنيع هذا الخام، عن طريق البحر الأحمر..

وأنشأت جمعية تعاونية تشتري التموين من أسوان وأدفو، وتبيعه للعمال والموظفين..

وأصبحت أبو غصون قرية صغيرة في الصحراء.. لكنها قرية مغلقة.. لها بوابة وعليها خفراء.. لأنها قرية الغرباء عن الصحراء..

وقد وصلنا آخر النهار، فدخلنا كابينة الأستاذ فؤاد..

رأيت الشمس تغرب على الصحراء والبحر من شرفة الكابينة..

جلسنا ساعة أو ساعتين نستمع إلى سكون الصحراء في هذه الساعات التي تزحف فيها الظلمة..

ثم ازدحمت كابينة الأستاذ فؤاد بالزوار..

فالقادم من مصر على الصحراء يكون عادة محملًا بالواجبات..

أخبار الأهل والأقارب؟.. كيف الأحوال هناك؟.. هل جئت بالطلبات؟.. ما الذي تم في كذا وكيت؟.. وهكذا..

وبدأ الأستاذ متولي يشرح للأستاذ فؤاد أحوال العمل خلال غيبته..

وفي تمام الساعة السابعة.. أعدت مائدة العشاء فكل من في الصحراء ينام في العاشرة على الأكثر.. ليبدأ العمل في الخامسة من الصباح..

ولم يكن الحاج ناصر قد وصل بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على المائدة أخذ الأستاذ متولي يحكي لنا حكاية قط الأبحاث..

حكاية غريبة مؤثرة..

فمنذ عام أو أكثر اكتشف الأستاذ متولي اختفاء الصابون من الجمعية التعاونية للموظفين..

كان الصابون يختفي على دفعات.. صابونة.. ثم صابونتان.. وهكذا..

عملوا تحقيق مع المشرف على البيع، وكان المشرف على البيع بريئًا.. فصمم على معرفة الفاعل الحقيقي..

بعد أيام.. اكتشف أن الفئران هي التي تأخذ الصابون..

فئران جبلية بيضاء أشبه بالأرانب.. يصيدها البدو أحيانًا حين تضنيهم الحاجة إلى طعام، ويأكلونها مطبوخة بالشعير..

تحفظوا على الصابون، فبدأت الفئران تأكل السجائر، والورق، وكل ما يقع بين أسنانها..

عملوا اجتماعًا طويلًا في الجمعية للبحث عن حل يواجهون به الفئران.. ثم قرروا إحضار قطة لتأكلها..

وسافرت بعثة من أبو غصون إلى أدفو للبحث عن قطة، وإحضارها..

وفعلًا.. أحضرت البعثة قطة شابة.. بيضاء في لون الفئران.. فرشوا لها فرشًا وثيرًا في الجمعية وعملوا لها نظامًا في الطعام وأحاطوها بالود والحنان..

وبدأت القطة تأكل الفئران..

ومر شهر، وجاء الربيع..

وصحا المعسكر ذات ليلة على القطة وهي تعوي.. عواء ممطوطًا كأنها تستغيث..

وفحصوا القطة، ولم يعرفوا ما بها..

ولاحظوا في النهار أن القطة تسير كالتائهة وعيناها زائغتان كأنها تبحث عن شيء.. ولم تعد تهتم بصيد الفئران..

واستمرت القطة تعوي في المعسكر طول الليل، وتسير كالتائهة طول النهار.. حتى صاح عامل البيع ذات يوم وكأنه اكتشف السر:

- القطة عايزة قط يا ولاد..

وهكذا انتبهوا إلى مشكلة القطة..

قال واحد:

- ايه رأيكم نستلف قط الأبحاث يقعد معاها هنا يومين.. ذلك أن موظفي الأبحاث كانوا يأوون قطًا أبيضًا لا يغادر معسكرهم في حماطة، يحبونه ويحبهم ويصحبهم في رحلاتهم داخل الجبل وكأنه واحد منهم..

وقد فرح الجميع بالاقتراح وذهبت سيارة فأحضرت القط، بعد أن تعهدت لموظفي الأبحاث بإعادته بعد أسبوع على أكثر تقدير..

وبعد أسبوع سكتت القطة تمامًا عن العواء..

وأصبحت تشاهد جالسة في الشمس تلعق ذيلها..

وحملت العربة قط الأبحاث وأعادته إلى حماطة..

لكنهم بعد يومين، شاهدوه يلعب مع القطة من جديد.. وبدأت المشكلة..

يبحث موظفو الأبحاث عن القط فلا يجدونه فيرسلون في طلبه من أبو غصون، فتحضره عربة من أبو غصون.. لكنه يهرب في اليوم التالي ويعود إلى القطة.. وقد نشأت عشرات الخناقات بين الأبحاث والجمعية بسبب القط، وكانت القطة قد ولدت وكبر أولادها، فعرضوا على الأبحاث أن يأخذوا من أولادها ما يشاءون.. لكنهم كانوا متعلقين بقطهم فرفضوا..

ولما أصبح من المستحيل الاحتفاظ بالقط في حماطة دون أن يهرب ويذهب إلى القطة في أبو غصون، فكر واحد من الأبحاث، ثم أخذ سيارة إلى أبو غصون ذات يوم وحمل القطة وغاص بها بعيدًا داخل الصحراء، ثم تركها هناك..

وعاد وهو مطمئن إلى أن القط سوف يستقر في حماطة، بعد اختفاء القطة..

لكن القط لم يفعل ذلك..

فقد اختفى في الجبال بحثًا عن القطة من جديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(7)

في المساء جلسنا قرب البحر وبدأ الرجال يتحدثون عن الاستاكوزا..

والاستاكوزا حيوان مائي من فصيلة الكابوريا والجمبري، تزن الواحدة كيلو أو اثنين.. وهي في شكلها أقرب للجمبري.. وتعيش في البحار التي تنمو فيها الشُعَب المرجانية..

وبعض الناس يرجعون ذلك النشاط الجنسي العظيم الذي كان يقوم الملك المخلوع، إلى ذلك الحيوان الصغير الذي يلعق الفسفور من تلك الشُعَب، ويختزنه في ذيله..

وقد كانت الاستاكوزا تُصَاد من شواطئ البحر الأحمر – وهي بطبعها سلالة قليلة العدد – ثم تُشْحَن إلى القصر الملكي والقصور الإقطاعية تحت إشراف بوللي العظيم مدير الشئون الجنسية للدولة..!

والباقي منها كان يتسرب إلى محلات القاهرة الفخمة، حيث يباع الحيوان الواحد بجنيهين أو ثلاثة..

هو إذًا حيوان له تاريخ.. وحديث الرجال عنه يتركز في تلك القدرة الفسفورية التي تمنح الإخصاب..

ومن باب الفضول ليس إلا – لأننا نحترم قدرتنا الإخصابية المتواضعة – طلبنا أن نقضي فترة المساء في صيد هذا الحيوان..

أخذتنا عربة إلى منطقة تبعد عشرة كيلو مترات عن المعسكر.. حيث تعلو حافة الهضبة على البحر.. وتكثر الشُعَب المرجانية في المياه الضحلة..

تركنا السيارة وبداخلها السائق، على حافة الهضبة، عند الطريق الأسفلتي.. وصعدنا الهضبة الجيرية المغطاة بالقواقع وطفح البحر والصخور.. سرنا في طريق عمودي حتى لا نخطئ العودة إلى السيارة وطلبنا من السائق أن يترك عينيهاً مضاءتين.. لنهتدي بهما.. وكان عبد ربه يحمل مشاعل الكربون لزوم الصيد، وأحذية الماء المصنوعة من كاوتش العجلات الفاسدة..

نزلنا من ثقب في الهضبة ينحدر إلى البحر.. وأصبحنا على حافة الماء والهضبة الجبلية تعلو فوقنا مئات الأمتار.. والبحر الفرعوني الأحمر، ممتد أمامنا حيث تعجز عيوننا المحدودة عن إدراك شاطئه المقابل، عند جدة والسعودية..

وكنت شديد الرغبة في التعرف على هذا الحيوان الأسطوري وطريقة صيده..

قال عبد ربه:

- كن حذرًا يا بيه.. فالاستاكوزا خطيرة، وذيلها شديد القوة.. إنها تضرب بهذا الذيل فتقصم الذراع..!

وعرفت أنه في الساعة الثامنة من المساء..

في ذلك الوقت الذي كنا فيه، يبدأ المد المائي في الانسحاب عن الساحل، ويصبح عمق الماء أقل من الركبة.. وتظهر الشُعَب.. حينذاك يجيء الحيوان الصغير الأسود من الأعماق الداخلية ليبحث عن غذائه..

كنا نسير في الماء وقد أشعلنا مصابيح الكربون لتضيء لنا البحر المظلم.. ثم فهمت بعد ذلك أن المصابيح هي نفسها أداة الصيد.. فالحيوان سريع وقوي، لكن النور يربكه.. فما يكاد الضوء الكربوني يسقط على الاستاكوزا حتى تتوقف عن الحركة داخل الماء، تتشبث بالقاع الرملي، فيصبح لونها لونه، وتعشى أبصارها فلا تعود ترى.. حينذاك ينقض عليها عبد ربه بيده من أعلى، ويقبض عليها من وسطها بإحكام ويرفعها من الماء.. حينذاك تظهر القوة الأسطورية لهذا الذيل الحيواني فيتحرك ضاربًا الهواء محاولًا الخلاص.. ثم يهدأ الحيوان حينما يلقى به داخل جوال الخيش السميك..

هكذا، باليد يُصَاد الحيوان.. ففي قدرته الإفلات من أي نوع من أنواع الشباك، بتمزيقها، وقشرته السمكية تحميه من الحراب والسنانير..

قال عبد ربه أن الاستاكوزا حيوان كريم النفس.. يملك إباء لا يملكه البشر.. فبعد بضع ساعات يقضيها الحيوان في الأسر، حينما يتأكد لديه أنه لم يعد أمامه مجال للخلاص.. يطلق من داخله نوعًا من السم فيقتل نفسه..

ولهذا فإنهم يلقون الاستاكوزا في الماء المغلي بعد ساعة أو اثنين من صيدها على الأكثر.. يسلقونها ليضمنوا سلامتها.. فإن الحيوان الميت يكون مليئًا بالسم فيقتل أيضًا من يأكله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا قد أوغلنا السير على ساحل البحر وراء حبات الحيوان المنثورة هنا وهناك حول الشُعَب.. وحينما جمعنا بضع حبات قررنا العودة.. أخذنا نتلمس الطريق باحثين عن منفذ في الهضبة الصخرية.. وحينما بلغنا نهايتها رأينا النور الصغير المنطلق من عيون السيارة..

ها هي واقفة هناك.. بضع خطوات ونصل إليها..

لكننا ظللنا نسير ساعة ونصف..

ساعة ونصف والنور يلوح لنا ويجذبنا.. دون أن نصل إليه..

فعلى النطاق المكاني المحدود كنا قد قطعنا مسافة عظيمة دون أن ندري، وقد سرقنا وقتنا الحضاري، لكن الزمن الكوني الذي يقاس بالضوء، كان يخدعنا، فسرعة الضوء 177 ميلًا في الثانية الواحدة.. فكم تكون في الدقيقة، ثم الساعة.. وهكذا وصلنا إلى السيارة بعد جحيم الإحساس بالضياع في ظلام الهضبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحق بنا الحاج ناصر في الكابينة قبل أن نستعد للنوم..

سأله الأستاذ فؤاد:

- الإشارة جات يا حاج؟..

- أبدًا..

قال واحد كان معه:

- يا عم إشارة ايه؟!.. وكيل النيابة مين ده اللي حايسيب بيته وييجي يعذب نفسه في الجبل عشان يكتب تصريح دفن؟!..

قال الحاج ناصر:

- ديك النهار، فلان بيه بعت إشارة قال فيها إنه ضاع منه أربعة جنيه.. انقلبت الدنيا وجه المأمور وضباط وعساكر.. هم يعني التلات رجالة دول، ما يساووش أربعة جنيه..!

قال متولي أفندي:

- الصبح نروح برانيس نشوف..

وبدأ الرجال يتثاءبون..

ثم انسحبوا واحدًا وراء واحد إلى أماكن النوم..

كانت الساعة بين التاسعة والعاشرة.. وكانت تلك هي ليلتي الأولى في الصحراء.. وقد أدهشني أن النوم قد بدأ يغزو رأسي أيضًا.. أنا الذي لا أنام في المدينة قبل الفجر..

لكن الهواء الجاف القادم من البحر كان ينفذ إلى جسدي فيخدره..

الطبيعة في الصحراء تنام مبكرة.. لتستيقظ مبكرة.. وهي تفعل نفس الشيء بأبنائها..

ولم أدرك أبدًا، بهذا الوضوح، أنني واحد من أبناء الطبيعة، إلا حين استيقظت وحدي، في اليوم التالي ونظرت في الساعة فوجدتها الخامسة من الصباح..

فالصحراء ترسل نسمات الفجر الرطبة إلى أبنائها فتوقظهم..

ومنذ تلك اللحظة.. أدركت أن الصحراء قد اعتبرتني واحدًا من أبنائها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(8)

في السابعة تحركت بنا السيارة إلى برانيس.. لعل الإشارة تكون قد جاءت..

في الطريق لوح عبادي بذراعه في الهواء عندما رأى عمامة الحاج ناصر من نافذة السيارة..

فوقفنا وأخرج الحاج ناصر رأسه.. وهمهم الرجل ببعض الكلام في رأس الحاج.. وسارت العربة..

قال الحاج:

- الراجل بيقول إن الإشارة جت برانيس..

قال فؤاد شال:

- على خيرة الله..

وتحمس السائق فأسرع بنا صاعدًا في الوادي حتى وصل إلى نقطة حماطة..

في حماطة، تلكأ العسكري في رفع الخشبة الطويلة التي تسد الطريق.. ثم اقترب من سيارتنا حين وقفت وفي يده ورقة.. وقال للحاج:

- كيف الأحوال؟..

قال الحاج:

- زين..؟

قال العسكري:

- جت لي ورجة من الجصير..

قال الحاج:

- عشان ايه؟..

قال العسكري:

- عشان الرجالة اللي ماتوا في البير..

فأمسك الأستاذ فؤاد شال بالورقة يقرؤها..

كانت ورقة رسمية صادرة من نيابة القصير، لكنها فقدت احترامها وهيبتها لطول المسافة التي قطعتها من القصير إلى حماطة..

وكانت الورقة تأمر العسكري في حماطة بالذهاب إلى البئر في الدرهيب، ومعاينة الحادث، وفحص الجثث، وإرسال تقرير إلى نيابة القصير، للتصريح بالدفن..!

قال العسكري:

- كيف أروح الدرهيب؟..

قال الحاج:

- تركب عربية توديك.. أو تروح ماشي في تلات تيام..!

قال العسكري:

- وكيف أسيب هنا.. أنا مسئول عن الطريق..؟

قال الحاج:

- يعني الطريق حايسرقوه..؟!

قال العسكري:

- دي نقطة سواحل يا حاج.. ونقطة مرور.. وكمان حايعملوها نقطة بوليس؟!..

قال الحاج:

- لكن حاتفحص الجثث ازاي.. هو انت دكتور؟!..

قال العسكري:

- أنا عارف؟!..

قال الحاج:

- وللا انت مفتش الصحة؟!..

قال العسكري:

- أنا عارف؟!..

قال الحاج:

- طب شوف لك صرفة بقى وخلصنا..

عايزين نروح برانيس نشوف الإشارة اللي هناك دي ايه؟!..

قال العسكري:

- صرفة مين.. خد الورجة أهي.. وجول لهم العسكري في حماطة رافض..!

قال الحاج:

- يسويها ربنا..

وأخذ الورقة ودسها في عمامته..

وانطلقت العربة على التبة.. مخلفة العسكري وراءها يهز رأسه ويديه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في برانيس كانت الإشارة حكيمة ومختصرة.. كانت أيضًا ورقة رسمية فقدت هيبتها لطول المسافة التي قطعتها.. وكانت موجهة للشيخ ناصر عمدة العبابدة من نيابة القصير.. وفيها جملة واحدة:

"أرسلنا العسكري في حماطة لعمل اللازم»..!

قال الرجال:

- العسكري في حماطة ماهو رافض..

وكان أقارب الموتى قد اجتمعوا حول العربة..

قال أحدهم:

- يا حاج ماحدش ممكن يسكت على دي الحال..!

قال آخر:

- دي حال عجيبة يا ولاد.. الناس عفنت في الجبل ولاعارفينش ندفنهم.. ده كفر ده.. ده الميت عوره يا ولاد..

قال الحاج:

- طيب.. اللي عايزين تسووه جولوه..

قال الأقارب:

- نروح ندفن الميتين..

قال الحاج:

- راح ييجوا بتوع النيابة ويفتحوا عليهم ويطلعوهم ويعملوا تحقيق..

قال الأقارب:

- بقى همه مايجوش عشان يصرحوا بدفنهم.. وراح ييجوا عشان يفتحوا.. بجى ده معجول؟!..

قال الحاج:

- همه كده..

قال الأقارب:

- ندفنهم وخلاص.. نريحهم في تربتهم، واللي عايز يفحت يبجى ييجي يفحت..!

قال الحاج:

- يسويها ربنا..

شوفوا اللي حاييجي معانا مين ونتوكل على هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من برانيس إلى الدرهيب خمس ساعات بالسيارة..

وثلاثة أيام أو أربعة، على الجمال أو الأقدام..

ها نحن.. ننحرف يسارًا ونترك الساحل.. ثم ندخل قلب الصحراء إلى الدرهيب..

وبعد ساعتين استطعت أن أرى جبلًا عن قرب..

كان جاثمًا في مواجهتنا كظلٍ هائل يمد ذراعيه على الناحيتين ويحتضن الصحراء..

ولم تكن ملامحه قد ظهرت لنا بعد، رغم الضوء المحرق الذي تلقيه الشمس من السماء البيضاء..

كان ظلًا هائلًا أسود، والسيارة تندفع إليه كأنه يجذبها، كنقطة صغيرة توشك أن تذوب في هذا الحضن الفسيح..

وكلما اقتربنا بدا لنا شموخه..

جبل المقطم خلف القاهرة يعتبر لعبة صغيرة بجواره.. وكان داكن اللون ويعلونا بثلاثة آلاف متر على التقريب..

انحدرت العربة وسارت عند سفحه كنملة وظلت تحبو على السفح حتى وجدت ثغرة نفذت منها..

ثم انفتح لنا الطريق الضيق الوعر إلى الوادي.. وصعد بنا الوادي سلسلة متلاصقة من الجبال..

وجبال البحر الأحمر تتكون من صخور أركية.. بعضها ناري.. وبعضها الآخر متحول.. بقايا براكين وزلازل وانفجارات في الأرض، عند بدء التكوين..

وأهم أنواع صخور هذه الجبال هي الجرانيت والديوريث والنيس والشست وتكثر بها العروق المعدنية..

وقد عرف الفراعنة هذه الخواص في تلك الصخور التي تحيط بواديهم.. ففحتوا فيها واستخرجوا معادنها، واستخدموا الصخور نفسها مئات الاستخدامات..

وما من جبل في هذه الصحراء الشاسعة المليئة بالجبال.. إلا وكان للفراعنة القدماء، منجم أو محجر فيه..

كنا نهبط جبلًا إلى الوادي..

في مثل هذا المكان يجد الإنسان نفسه أمام حقيقة بسيطة مذهلة..

هناك قرابة خفية بين كل الكائنات..

الشمس المسلطة على الجبل..

الجبل الرابض، الغائص بجذوره الصخرية في الأرض..

الأرض الرملية..

والأرض المفعمة بالنباتات..

النباتات الخريفية اللون، الحادة التكوين التي تشبه شظايا الصخور..

كل ما على الأرض قريب للأرض، خارج منها وداخل فيها، وعائد إليها لا محالة..

كل ما على الأرض دائم التحول والتغير والتبديل!!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشمس اللاهبة تنفث نارًا من خلال حديد السيارة.. نارًا أذابتنا وجعلتنا كتلًا من الدهن لا أثر لنشاط الذهن فيها.. وكان كل منا قد أنام رأسه على صدره وراح يغفو..

وفجأة، انعطف السائق بالسيارة يمينًا، ثم انعطف يسارًا.. واحتكت العجلات بالأرض الصخرية، وانبعثت صرخة مكتومة.. ووقفت السيارة..

قال السائق بفخر:

- دست طريشة..

وكانت حركة السيارة المفاجئة قد أزعجت الحاج ناصر..

فقال ساخرًا:

- لأ فالح يا واد.. حايخلصوا الطريشات على كده!!..

وابتسم الأستاذ فؤاد شال..

ونظر الجميع من نافذة السيارة ورأينا الطريشة.. طويلة وغليظة.. مبططة الرأس ولها لسان معقوف..

قال الحاج ناصر يفسر لي:

- دي أخطر نوع من الثعابين..

وكان من الواضح أن الحاج سعيد بهذا الحدث، رغم أنه سخر من السائق.. فالصحراء تزحف فيها ملايين الأفاعي.. تثقب رمالها وتعشش فيها.. نوع يبخ السم، ونوع يغرسه بأنيابه وهذا النوع الأخير يسمونه الطريشة.. ليست طويلة كالثعبان.. وتكاد تبدو وكأن لها أجنحة.. أو ربما زعانف مثل السمكة.. ولها سم أكيد المفعول..

قال الحاج:

- سم الطريشة مالوش علاج أبدًا.. ديك النهار كنا في أبو سويل بنشوف عينات النحاس.. واحد من العمال صرخ، وطلع يجري وهو ماسك رجله.. الطريشة ضربته بأسنانها في كعبه.. وقفنا مبهوتين.. واحد قال: خلاص.. عليه العوض في الزول..

"الزول يعني بني آدم.. أو الرجل"..

قال آخر:

- عليه العوض ليه؟!.. هاتولي سكين.. وأمسك بالسكين وقطع بها قدم الرجل من العصعوص.. ثم وضعها في الزيت المغلي.. وأنقذنا الزول بقطع الجزء المصاب..!

قلت له بلهجة متعالمة:

- لكن يا حاج، تقطعوا رجل الراجل ليه؟!.. ماهي المستشفيات فيها علاج لسم الثعبان..

فأدار الحاج رأسه عن كلامي وهو يتمتم:

- أي والله صحيح.. كان حقنا ودينا المستشفى.. بالقليلة كان اندفن في العمار!!..

وفهمت بعد ذلك أن الحاج كان يسخر من كلامي.. لأن الصحراء لا توجد بها مستشفيات أو حتى وحدات إسعاف..

المستشفى الوحيد في القصير.. ويكفي أهلها بالكاد.. وباقي حالات الصحراء المستعصية تذهب إلى وادي النيل.. ومعظمها يموت في الطريق..

قال الحاج:

- في الصحرا انت تداوي نفسك.. ولو كناش جطعنا رجل الزول كان السم جري في دمه ومات في ساعتين..

قال السائق وكان صامتًا طول الوقت:

- عارف حسين ابن خالي يا حاج؟..

- اللي في أبو سميوكي؟..

- لأ.. اللي في النخيرة..

- أيوه..

- أهو ده ديك النهار كان بيعمل زي الناس في الجبل.. ساعة ضهرية والشمس صهد.. وبيمد إيده جنبه يشوف ولا مؤاخذة ورقة وللا حتة حجرة.. لقى حاجة هبشت صباعه.. بيبص لقى الطريشة بتمرق بين الصخور.. نزل المعسكر وهو ماسك إيده.. ودخل جري على الخيمة.. كنا قاعدين بره الخيمة قلنا له مالك يا حسين؟.. فيه ايه يا حسين؟.. ماردش ولقيناه فتح صندوق هدومه طلع سكينة طلياني وراح مطير صباعه بيها.. عرفنا طوالي إن الطريشة هبشته..

أبدى الحاج دهشته وانزعج مجاملًا ثم قال للسائق:

- ده امتى ده؟!.. مانا كنت هناك من أسبوع ماعرفناش يعني؟!..

- دي من تلات تيام.. لما تروح دلوجت حاتلاجي إيده مربوطة ومزاجه عال..

قلت للحاج:

- لكن يا حاج.. همه سموها الطريشة ليه؟..

قال الحاج:

- عشان طرشة.. ماتسمعش.. ولاتشوفش.. تزحف كده ضبيشي، واللي تخبط فيه تهبش فيه..

قال الأستاذ فؤاد:

- ما هي عشان كده خطيرة.. التعابين التانية بتشوف.. وبتمشي في حالها.. ولا تأذيش حد إلا إذا أذاها..

وقال الحاج وهو يهز رأسه:

- ياخونا ماتشوفوا لكوا سيرة تانية بقى..

فضحكنا.. وقال أحدنا مداعبًا:

- الظاهر إن العمدة بيخاف من التعابين..

فسمعنا السائق يزوم وهو يغمغم:

- العمدة يخاف؟!.. ايه.. ده مولود في الجبل يا عمي..

وخرجت السيارة من بقعة الظل التي منحها لنا أحد الجبال ونحن نمر عليه.. وبدأت تدرج في سهلٍ فسيح أسمر اللون.. مشوب بالصفرة من أطرافه.. تظلله سماء حمراء ملتهبة..

وأذاب الصهد اللافح ضحكاتنا فخفتت.. وبدأ كل واحد منا يهبط في البئر الخاصة به.. يهبط ويهبط داخل نفسه.. وأصبح سكون كل واحد منا وطيدًا في علاقته بسكون الجبل.. وسكون الأرض.. وسكون السماء.. وكانت السيارة الحديدية هي الشيء الوحيد الحي المتحرك.. في ذلك السكون كله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(9)

كم ساعة سرنا.. وكم ساعة بقيت حتى نصل..

لا أحد منا يستطيع أن يقول..

عداد السيارة فقط هو الذي يجيد الحساب في مثل تلك الحال.. فلا توجد في الصحراء محطات توضح لك طريقك بين الحين والحين..

إن الطرق في الصحراء تسحبك من عجلاتك وعليك أن تطيعها.. إن السائق يصبح جزءًا من العجلة.. يصبح هو العجلة.. في مقعده يخيل لك أن الطريق مائل وأنه ينزلق عليه..

وأن هذا يسبب له اللذة.. كأنه نائم يحلم.. لكن وجهه سرعان ما يربد ويقلق وتدور عيناه في ريبة وحذر.. حينما تضيع الماركة.. حينما ينظر أمامه فيجد الأرض منبسطة فسيحة.. جديدة كأنما لم تمسها قدم إنسان أو حيوان..

صافية فسيحة لكنها مشحونة بالخطر في داخلها..

وأبسط أخطارها أن ينطلق بسيارته فتهبط منه في أرضٍ رخوة وتغوص به في الرمال..

وأكبر الأخطار أن ينطلق بسيارته في تلك الأرض المتشابهة ويظل يضرب فيها على غير هدى.. أيامًا.. وربما شهورًا..

وقد يموت قبل أن يعثر في الصحراء على ماركة أخرى يبدأ منها ليصل إلى حيث يريد..

والماركة هي الطريق الذي مهدته أقدام الناس وعجلات السيارات.. هي السكة المطروقة التي تطمئن السائق إلى أنه إن لم يكن متجهًا إلى حيث يريد.. فهو على الأقل متجه إلى مكان سيجد فيه بعض الناس..

والماركة تضيع في بعض الأحيان.. ربما لأن عاصفة رملية قد هبت على الصحراء فغطت الأرض بالرمال الجديدة.. ربما لأن الطريق غير مطروق كثيرًا..

وحين يفقد السائق الماركة.. فهو يفضل الوقوف بالسيارة.. حيث اكتشف ضياعها.. ثم يهبط ويبحث عنها على قدميه..

وما أروعه من مشهدٍ مأساوي.. حين ينحني الإنسان بكل جبروته على الأرض.. يستعطفها.. يتشممها ويتحسسها بأصابعه.. يستجديها بعينيه.. أن تمنحه علامة صغيرة واحدة.. تهديه إلى طريقه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بين الحين والحين تبرز فجأة على طرف جبل.. أو حافة واد.. كومة من العظام البيضاء.. أو غصن جاف ترفرف في أعلاه قطعة صغيرة من القماش..

إنها علامات الموت في الصحراء!!..

وكومة العظام كانت جملًا.. إذا دققت فيها النظر، تجدها منهارة متناثرة فتعرف أن الموت قديم، وأنه فاجأ الجمل وهو يمشي فتهالك على نفسه.. وأحيانًا تجد الجمجمة مشرئبة.. تحملها عظمة العنق، فقد مات الجمل وهو جالس يتأمل الصحراء في عظمة..

وحين يموت الجمل في الصحراء يتركه العربان حيث مات.. ويمر الزمن وتأكل الصحراء لحمه.. وتبقى عظامه علامات ناصعة البياض في أرض الصحراء، مئات السنين..

وحين يموت الرجل يوارونه في التراب..

وقد يموت الرجل بين غيره من الرجال، فيحملونه معهم إلى أهله..

وقد يعثرون به ميتًا وحده فوق صخرة، أو على حافة سهل.. متشقق الفم من العطش، مطفأ العينين من الحر والموت..

وقد يجدونه ميتًا على الماركة، وقد أضناه السير بحثًا عن إنسان.. أو حيوان..

مات وهو يبحث عن صوتٍ يهديه إلى نقطة من الماء..

وما أكثر الموتى في الصحراء بهذه الطريقة.. يموت من الرجل جمله.. فيتركه ويسير.. يفقد الرجل الماركة التي يسير عليها.. تكون الرمال قد طمستها.. فيضرب على غير هدى، باحثًا عنها.. يومًا أو يومين..

في اليوم الثالث أو الرابع يجد نفسه وحيدًا معزولًا في جبال لا نهاية لها.. وحيدًا كآدم يوم بدء الخليقة.. وكل ما يربطه بالحياة جرعة أو جرعتان من الماء متبقية في كيسه المصنوع من جلد الشاه.. يظل يمتصها يومًا أو يومين آخرين.. وبعدها يعيش بضعة أيام أخرى يشرب الذكريات..

لن يكون الرجل من هذا النوع مستسلمًا أبدًا.. سيخطف الرعب قلبه أحيانًا، لكن غريزة البقاء تدفعه يمينًا ويسارًا منقبًا عن مخرج.. وقد يضنيه السير، وتشقق الصخور قدميه فلا يستطيع الوقوف.. فيزحف ساعيًا إلى الخلاص.. حتى يعثر بالماركة.. العلامة التي تقوده إلى الحياة.. لكن قواه تكون قد خارت تمامًا.. وطريق الخروج ما يزال طويلًا.. يزحف ويزحف، ويصبح من الصعب أن يتنفس من حلقه الجاف..

ويجف جوفه حتى يفقد طعم العطش..

إنه يتأرجح الآن بين الغيبوبة والوعي..

إنه ينزلق وينطرح على الأرض ويتنازل عن النهوض..

يقول لنفسه: لقد فعلت ما استطعت فعله، وليس لي أي أمل سوى الانتظار..

يكفيه في تلك الحالة أن يغلق عينيه لينال السلام في هذا العالم..

فما يكاد يغمض عينيه حتى تختفي الكبوات والتسلخات، والأعضاء الممزقة والحر المحرق والعطش.. ولا يجد أثرًا لعبء الحياة..

ويبدأ يتعرف إلى طعم البرودة الشبيه بالمورفين، وقد صار يملؤه الآن..

ويبدأ ضميره يهجر مناطق جسمه البعيدة شيئًا فشيئًا..جسمه الذي شبع ألمًا..

حتى وساوسه تسكن ولا تعود غير سيرٍ يسيره في حلم.. سير سريع يفتح أمامه بلا عناء، كل ملذات الأرض..

وكم يكون هينًا أن ينزلق مثل هذا الرجل في ذلك العالم الجديد الذي يراه عظيم الهناء له..

ينزلق وينزلق.. حتى يصبح جمادًا لا يحس..

ويمر بعض الناس ربما بعد يوم، ربما بعد شهر.. فيجدونه مسجى على الماركة، فيحفرون حفرة يوارونه فيها، ثم يغرسون في وسطها غصنًا جافًا، ترفرف في أعلاه قطعة من جلبابه الذي أصبح كفنًا..

وتظل هذه القطعة ترفرف في سماء الصحراء حتى يحيل لونها وتأكلها الشمس.. فيختفي من الصحراء آخر أثر من آثار الرجل الذي عبرها يومًا ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(10)

كنا نقترب من الدرهيب..

وعلى طول الطريق الذي قطعناه مررنا بشجرتين أو ثلاث..

الشجرة تكون وحيدة في الأرض القفار فتصبح ظلًا.. فيفيء البدو بأغنامهم تحت هذا الظل ويكونون مسكنًا.. يهدمونه، ويرحلون بعد أن تأكل الغنم بعض الأوراق..

ومن خلال بقع الظل هذه كان يخرج لنا بين الحين والحين رجل.. يعترض السيارة وذراعه على عينيه فتقف.. ويخرج الحاج رأسه ويتحدث معه.. ويسأل الرجل عن حادثة البئر.. وهل جاءت النيابة للتحقيق أم لا.. ويجيبه الحاج بأننا ذاهبون لدفنهم.. وتنطلق العربة بعد أن نعرف أن خبر الحادثة قد انتشر مع الريح في الصحراء..

وقد هبطت بنا السيارة إلى وادٍ حفرته السيول بين الجبال..

ومن بعيد لاح لنا الظل الكثيف المفتوح الذراعين لجبل الدرهيب وهو يقترب منا..

نظرت من النافذة فرأيت ظل السيارة التي نركبها مرتسمًا بأكلمه على الرمال إلى يساري..

كانت الشمس تغرب..

ورأيت ظلال الرجال داخل الصندوق الخشبي في مؤخرة العربة وهم يقفون.. وسمعنا ضجتهم.. قال الحاج:

- فيه ايه يا ولاد؟!..

قال الرجال:

- فيه ناس جاية تجري من بعيد.. من ناحية الجبل.. جايين علينا..

أخذ كل منا يمد عينيه ويحملق في ظل الدرهيب الكثيف..

ولم نتبين خيالات الرجال القادمين جريًا نحونا إلا بعد أن اقتربت منهم العربة..

كانوا يلهثون كأنما الأشباح تطاردهم وعندما اقتربوا منا تهالكوا على السيارة.. وأخذوا يلتقطون أنفاسهم..

كانوا أقارب الرجال الذين ماتوا داخل البئر.. وكان بيننا وبين البئر ثلاثة كيلو مترات..

قال الحاج:

- خير يا رجالة؟.. حصل ايه؟..

قال الرجال:

- التعابين يا حاج.. التعابين والطريشات نازلة طالعة من البير زي يوم الحشر.. ولافيش فتفوتة أرض الواحد يحط فيها رجليه.. كل الأرض حوالين البير اتغطت بالتعابين..!

وكانت رائحة الجثث المتعفنة قد وصلت إلينا مع الهواء..

فأمسك الحاج أنفه وهو يغمغم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

وهبطنا جميعًا من السيارة.. وجلسنا في ظلها نتشاور في الأمر..

اقترح البعض أن نعود كما جئنا، ونترك المسألة كلها لوكيل النيابة..

قال الحاج:

- وكيل ايه، ونيابة ايه؟!.. والله ماهو جاي.. ييجوا فين يا عم؟!..

قال أقارب الموتى بإصرار:

- لازم نروح هناك ونشوف لنا صرفة..

قال واحد.. حاتعمل ايه؟!..

قال آخر:

- نطلعهم وندفنهم يا أخي زي خلق الله لما بتموت..

قال أحد العائدين:

- بنقول التعابين طالعة نازلة من البير، وزمانها ملياه..

قال الحاج:

- التعابين موش حاتخلي فيهم حاجة.. يا دوب الشوية العضم..!

قال الرجال:

- أهو نروح هناك انشاء الله حتى نصلي عليهم وخلاص..

فوافقنا..

وتحركت العربة ثم انحدرت في الوادي إلى أحضان الدرهيب..

كنت قد تأملت وجوه الرجال أقارب الموتى..

وجوههم المستقيمة الحادة السمراء، كانت جامدة صلبة، وتحت العينين ذلك الخط الوهمي الغائر الذي يوحي بالطيبة، والبساطة.. طيبة ذلك النوع الذي يفطر بالشدائد، ويتغدى بها، وينام في المساء دون حركة من التعب..

وكانت عيونهم جميعًا مواربة.. تلك عادة الناس الذين يسكنون مساحات ممتدة تكتوي بالشمس.. إنهم يواربون عيونهم فتصبح درجة الإبصار أكثر عمقًا، وأكثر حدة.. وتحتمي الحدقة من الضوء الشديد..

كانوا على الإجمال رجالًا.. وكانوا يطوون في جوانحهم كل الرموز والمعاني التي تعنيها كلمة رجال هذه.. ولم أر واحدًا منهم يبكي..!

كان حزنهم متواضعًا، لأن الموت في الصحراء عادة.. فالرجال في الصحراء يموتون بالشمس.. ويموتون بالعطش.. ويموتون لقلة الغذاء.. ويموتون في الأنفاق التي يحفرونها في الجبال بحثًا عن المعادن، حينما تنهار صخرة وتسد منافذ الهواء..

كانوا جميعًا جالسين في صمت يحتضنون سيقانهم في صندوق السيارة الخلفي.. وكانت العربة قد دخلت الدرهيب وأخذت تتدحرج على سفحه، ثم صعدت وهبطت وتلاعبت بها الصخور، حتى خرجت من حضن الدرهيب إلى هضبته الغربية فلفحت وجوهنا رائحة العفن ونحن نطل على السفح الذي يضم البئر..

كيف أصف لكم المنظر الذي رأيناه؟..

كيف يمكنني أن أعبر بالكلمات عن عشرات الثعابين التي كانت تروح وتجيء على السفح؟..

كان السفح مغطى بحبال غليظة طويلة مختلفة الأحجام والأشكال، تلتف وتدور وتتحرك وتندفع إلى الأمام.. عشرات العشرات من الحبال السوداء والصفراء والمرقطة قد أهاجتها رائحة العفن الصادرة من البئر، فخرجت من جحورها بين صخور الجبال، متجهة إليها..

مثل قبائل النمل حينما تخبر إحداها عن فتفوتة طعام في مكانٍ ما، فيتبعها الفريق كله ليأخذ نصيبه منها..

ولم نستطع أن نرى البئر.. مثل قبائل النمل كانت الثعابين قد غطت حافته وأخذت تصعد منه وتهبط فيه.. ومن مكاننا البعيد نوعًا ما، كان السفح يبدو لنا كبحرٍ تموج مياهه..

وكان فحيح الثعابين يصل إلى أسماعنا فكأن الوادي وعاء كبير يغلي ويفور على النار..

وحين اقتربت السيارة من السفح أزعج صوت موتورها الثعابين فأرهفت رؤوسها تتسمع.. وسكنت حركتها حينًا ما..

تذكرت حكايات السندباد البري، ووادي الحيات الذي أسقطه الرخ فيه.. فمرت القشعريرة بجسدي.. كانت الحركة الملتفة الدائبة قد بهرتني.. فها هنا يستطيع ابن المدينة أن يكتشف إلى أي مدى هو واهي البنيان.. قد أضعفته ملابسات الحضارة، واستنفدت المدنية قواه في تلافيف أساليبها لتبسيط الحياة..!

هنا يواجه ابن المدينة أرضًا وحشية لها قوانينها وتقاليدها.. حيث يهون الموت، وتعالج الأمراض بنبات الأرض، ويختفي الخجل.. وتصبح المباشرة هي الأسلوب الصحيح..

قال الحاج:

- الثعابين عملت وليمة يا ولاد..!

قال الرجال:

- الواحد مننا ولا يبان في جوف التعبان من دول..

قال السائق:

- حانعمل ايه؟..

قال الحاج:

- نوصل بالعربية لحد البير، واللي يريده ربنا يكون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انحدر السائق بالعربة في سرعةٍ على السفح وأخذ يدور بها ويلف، ويندفع يسارًا ويندفع يمينًا.. وكأنه يطارد الثعابين بصوت الموتور..

أزعجت الضجة الثعابين فبدأت تلتوي حول نفسها وتتقلص، وتتمدد ثم أخذت تنسحب من السفح بعد أن داست العربة بعضها..

وكان السائق ينطلق بأقصى سرعة ويدور ويلف حتى لا يعطي الفرصة للثعابين فتشرئب بأعناقها وتصل إلينا..

وكان الرجال في الصندوق الخلفي يصدرون ضجيجًا شديدًا تهرب الثعابين أمامه..

وبعد نصف ساعة، كانت الثعابين قد اختفت كأنما ابتلعتها الصخور..

ولم يبق على السفح سوى الجرحى.. تجر ذيولها المكسورة وهي تفح منسحبة إلى مكانٍ للاحتماء..

ثم وقفت العربة وتهيأ الرجال لمغادرتها فقال الحاج:

- اوعك حد ينزل.. التعابين المجروحة أخطر بكتير من الصاحية.. استنوا لما كلها تروح بعيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلا السفح من الثعابين، وطهرت حافة البئر.. وأخذ الرجال يحملقون في الأرض وحول الحافة، لعل ثعبانًا قد اختبأ هنا أو هناك..

واتفق الرأي على أن نلقي في البئر صفيحة من الماء لتطهير الموتى.. ثم نغطي البئر بقطعة من الصاج ونضع فوقها صخرة..

ثم نصلي على الموتى ونعود..

هبط الرجال بصفيحة الماء وساروا إلى حافة البئر وهم يطوحون رؤوسهم إلى اليمين وإلى اليسار بحذر.. وعند الحافة بسملوا وقرأوا الشهادتين.. وألقوا بالماء في البئر..

ووقف الحاج ناصر إمامًا.. واصطف الرجال خلفه..

وبدأت صلاة الموتى.. الله أكبر.. الله.. الله أكبر.. أربع مرات..

وقرأ الرجال الفاتحة وهم يتلفتون حولهم..!

أي سكينة كان ينعم بها الموتى في مقرهم الأخير.. تاركين الفزع والرعب وهموم الدنيا لنا نحن، الذين كنا في تلك الساعة ندرك بشاعة نهايتهم ونصلي لهم..!

كانت الآيات تنحدر بسرعة على أطراف الألسنة، وكأنها واجب ثقيل يريد الواحد أن يلقي به من فمه ليتخلص منه، ويعود إلى العربة.. وكان بعض الرجال قد نصبوا نطاقًا من أجسادهم حول مكان الصلاة لمراقبة الأرض لتحذير المصلين حين تعود الثعابين إلى الظهور..

وفجأة.. صاح واحد من هؤلاء..

- حاسب يا حاج.. حاسبوا يا رجالة..

قطع الجميع الصلاة وتلفتوا حولهم..

ومن ناحية البئر، رأينا قطعة الصاج تتحرك، وخرجت من تحتها رأس سوداء..

ثم بدأ الجسد الثعباني الضخم يظهر زاحفًا..

ولم ينتظر الرجال ليشاهدوا البقية..

عادوا إلى السيارة جريًا وهم يتمتمون ببيقة الصلاة..

وانطلقت بنا العربة مغادرة السفح، تاركة الثعبان العظيم خلفها يفح حول البئر.. ويتمطى ويتثاءب..

كأنه ملك عظيم على عرشه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشمس تغرب والعربة تغادر السفح الغربي للدرهيب.. والشمس حين تغرب في الصحراء، تصبغ السماء بلون الدم..

وصخور الدرهيب لونها أزرق.. وكانت الشمس الغاربة تكسر إشعاعاتها الحمراء على هذه الصخور فتنبعث منها كل ألوان الطيف..

في هذا الجو الأسطوري الساحر..

في تلك البقعة المنعزلة من الأرض..

خيل إلى أن دماء الرجال الذين ابتلعهم البئر، قد نشرت لونها في الصحراء وصبغت كل شيء..

ولئن كان الموت في المدينة يتحول من حزنٍ ضار يأكل الروح، إلى مظاهرات شكلية.. حيث يغسلون الميت، ثم يبكون عليه.. ويقيمون الصلاة له، ثم يسيرون خلفه إلى مقره الأخير.. وبعد ذلك يتفرغون لتقطيع فروته أو تقسيم ثروته.. بنظام دقيق رتيب يضيع الحزن في تلافيفه..!

فإن هذا الموت الذي رأيناه في الصحراء.. كان موتًا حقيقيًا.. موتًا جعلنا نشعر أن الطبيعة تعطي، ثم تأخذ.. كي تدور العجلة.. وأن الطبيعة ليست باردة.. فكثيرًا ما يصيبها الحزن على الضحايا..

وما أروعه من حزنٍ ذلك الذي كانت تفوح رائحته في الأرض والسماء والجبال..

حزن ملون كانت الطبيعة تنثره أمام العربة وهي تتقدم بنا.. تاركة وراءها الرجال الأربعة، الذين كانوا.. داخل البئر القديم الذي يحرسه الآن ثعبان عظيم.. حيث لن تستطيع بعد ذلك أن تدوس الأرض هناك قدم إنسان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(11)

بهذا الحدث المأساوي قدمت لنا الصحراء نفسها وهي تستقبلنا..

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت معرفتنا بالصحراء حميمة، ولم نكن بعد قد أوغلنا في قلبها..

كان الطريق إلى أبو غصون طويلًا.. وقد بدأ الليل يدنو مطبقًا بجناحيه الرماديتين على السماء الدموية اللون، التي تسكب حزنها على الصخور والرمال أمامنا..

وقد اقترح الرجال أن نقضي الليل في منجم التلك شرق الدرهيب.. فبدأت العربة تقتحم السواد والحزن بشريط الضوء المندفع من عينها الواحدة.. بينما جلس الرجال يحتضنون سيقانهم في صندوقها الخشبي..

ولم يعد بإمكاننا أن نرى شيئًا في الظلام المطبق على هذا الجزء من الكون حولنا..

وبين الحين والحين يسقط شريط الضوء على حافة جبل عند المنحنى.. على ذؤابة صخرة ثابتة في الطريق.. على آثار العجلات القديمة فوق الماركة.. فنتبين شيئًا من المعالم في ذلك التيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعتين كنا قد أكملنا دورتنا من غرب الدرهيب إلى شرقه.. وعندما بدأت العربة تدرج على الصخور الحمراء الناعمة التي ترصف طريقًا يؤدي إلى المنجم، لمحنا حبات النور الأحمر المنثور في معسكر العمال..

قال الأستاذ فؤاد:

- الخواجة نيكولا صاحي أهه..

قال الحاج ناصر:

- زمانه جاعد يسكر.. حاكم يحط الجزازة جنبه ويجعد يسكر لوحده كده طول الليل.. والله مانا عارف ياخي بيجيب الخمرة دي منين..

قال السائق:

- كل ما ينزل مصر يشتري صندوق ويجيبه معاه..

قال الأستاذ فؤاد:

- أمال بيقولوا بطل يشرب..

قال الحاج:

- لاه.. دول كانوا يومين، تلاجي الخمرة خلصت منه.. هوه ده يبطل أبدًا.. ما خلاص بقى داخل على الثمانين سنة أهو.. حايبطل ليه!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخواجة نيكولا روسي أبيض، خرج من روسيا عندما قامت الثورة الشيوعية، وظل يضرب في الأرض بضعة أعوام، حتى استقر به المقام في منجم الدرهيب بالصحراء الشرقية.. يرسم الخرائط للأنفاق والممرات ويجس متانة الصخور، ويشرف على استخراج التلك من قلب الجبل الرهيب..

وقد ظهر في الصحراء ذات يوم، أبيض الشعر طيب الوجه قليل الكلام.. مقطوع الصلة بالماضي تمامًا.. وقد حاول العبابدة الذين يعملون في المنجم أن يعرفوا هل تزوج أم لا، وهل له أقرباء على ظهر الأرض، أم أنه مقطوع من شجرة، فلم يصلوا لشيء.. وكل الذي استطاعوا أن يفعلوه معه، هو اختصار اسمه الطويل من نيكولا نيكولا بيفتش إلى الخواجة نيكولا..

وعندما وقفت العربة في قلب المعسكر وهبطنا منها، رأيناه واقفًا أمام خيمته ويده على عينه المصوبة نحونا، محاولًا ببصره العجوز المحدود، أن يعرف من القادم..

ولم يستطع ببصره الضعيف أن يتعرف علينا، حتى أصبحنا حوله وبدأ الحاج يداعبه:

- هات الكاس يا خواجة..

قال الخواجة وهو يرحب بنا:

- مافيش فلوس يا حاج..

- ليه؟..

- المنجم خربان مش شغال..

قال الأستاذ فؤاد:

- ليه يا خواجة نيكولا؟.. خير؟..

قال الخواجة:

- الميه بتاع المطر نزل في المنجم من الفتحة بتاع التهوية.. عطل كل حاجة.. شغل مافيش.. فلوس مافيش.. خمرة مافيش!..

كان بيتكلم بالعربي..

وقادنا إلى حيث كان يجلس قبل مجيئنا..

ثم قال وهو يشير إلى مائدة صغيرة عليها رقعة الشطرنج:

- دلوقت بنلعب شطرنج طول النهار..

قال الأستاذ فؤاد:

- دلوقت ننزل ونشوف الحكاية ايه.. إذا كان كده نبعت لكم طلمبة من أبو غصون تنزحوا بها المية..

وكان الفانوس الزجاجي يضيء البقعة التي جلسنا فيها.. وأمامنا في شبه دائرة كانت مساكن العمال.. أكواخ من البراميل الفاسدة وأغصان الجبل الجافة، والأخشاب القديمة، وبعض الصخور.. بيوت ملفقة واهية، كان من الصعب أن أتصور إمكان وجود أي نوع من المخلوقات البشرية بداخلها..

ولشد ما أذهلني أن أتبين أي نوع من العمل المعجز، يقوم به سكان هذه الأكواخ، عندما دخلت المنجم مع الخواجة نيكولا، والأستاذ فؤاد شال..

ولنحاول الآن أن نبدأ خطوة خطوة، حتى تتجمع لنا عناصر هذا الوجه الآخر من وجوه المأساة في حياة الصحراء..

عندما انحدرت قبائل العبابدة من السعودية والسودان والحبشة، منذ سبعمائة سنة.. لترعى الغنم في هذه الصحراء.. كانت الجبال منطوية على أسرارها، وكانت الصحراء غامضة ومغلقة.. وكان العبابدة يرسلون القافلة كل ثلاثة شهور إلى السودان أو قنا، لتشتري لهم السكر والشاي والحلاوة الطحينية والشعير والعدس..

يتصل النجع بالنجع، ويتفقون على المطلوب بيعه من الغنم.. والمطلوب شراؤه من التموين والزينة.. ويتهيأ المندوبون فيرحلون بجمالهم يقودون الغنم أمامهم فيصلون إلى السودان في عشرة أيام أو اثني عشر.. ويصلون قنا.. أقرب الأسواق إليهم.. في خمسة أيام..

وحين يقترب ميعاد العودة يخرج البدو على الماركة.. ويرصدون الأفق عساهم يلمحون القافلة وهي تعود..

يكون الحرمان قد أضناهم، والشوق إلى الأشياء القادمة من وراء عالمهم، يحرك فضولهم.. وحين تجيء القافلة يقيم العبابدة فرحًا في نفوسهم ويطربون..

وتصبح الصحراء مدينة كاملة، لا ينقصها شيء، إذا جاءت القافلة بالسجائر والحلاوة الطحينية!!..

في واحدٍ من تلك الأيام البعيدة والعبابدة يرصدون عودة قافلتهم عند الأفق..

دخلت الصحراء قافلة من الخواجات والأفندية..

أخذت تقيس الجبال وتفحصها..

ثم ذهبت وجاءت وبصحبتها قافلة أخرى محملة بالمعدات..

أقامت القافلة الأخرى الخيام ونصبت المعدات.. وبدأت تنقب في الجبل كأنها تبحث عن كنز..

كنز غامض مبهم لا يعرف العبابدة عنه شيئًا، وهم يعيشون بجواره طوال الوقت!!..

وهكذا نشأت صناعة التعدين في بلادنا..

أنشأها خواجات جاءوا من وراء البحار، ليبحثوا عن الكنوز في جبالنا..

في أول الأمر، استولى الغيظ على العبابدة، فبدأوا ينفرون من الأجانب..

وعندما حاول الخواجات استخدامهم في فحت الجبال ونقل المعادن، رفضوا..

قليلون منهم لا يملكون غنمًا، التحقوا بهذا العمل الجديد، يرتزقون منه.. وخلال احتكاكهم بالخواجات عرفوا سر الجبل، وما تحتويه صخوره من خامات..

وكأنما هو غضب غريزي ذلك الذي استولى عليهم، حينما أدركوا أن هؤلاء الخواجات يأخذون من جبالهم التي يمتلكونها، منافع لا حق لهم فيها..

فبدأوا يرفضون التعاون معهم..

في تلك الأيام البعيدة الغريبة التي كان الخواجات يحكمون فيها بلادنا، فكر الإنجليز في إنشاء سلاح الحدود.. فرق من الهجانة مسلحة بالبنادق والكرابيج.. ظاهرها حماية الحدود الصحراوية من عمليات التسلل والتهريب.. وباطنها حماية الشركات الأجنبية التي تنخر في جبال الصحراء وتستخرج المعادن وتشحنها إلى بلادها..

وقد استطاع الخواجات التغلب على مشكلة الأيدي العاملة بالاتجاه إلى الصعيد..

بعد أن رفض العبابدة التعاون معهم، نزلوا إلى قوص والبراهمة وقنا وادفو وأسوان.. وجاءوا بالفعلة وعمال التراحيل والمزارعين الأجراء من قرى الصعيد إلى الصحراء.. وبدأوا العمل..

كانوا مجموعة من المغامرين نزلوا هذه الجبال وهم يعلمون أنهم سيأخذون منها ما يمكنهم حمله ويرحلون.. ولم يحاولوا استخدام الآلات الميكانيكية الحديثة.. لأن الأيدي العاملة القادمة من الصعيد كانت رخيصة القيمة.. والاعتماد عليها في الإنتاج يربح أكثر.. ويتكلف أقل..

ويومًا بعد يوم زاد عدد الخواجات وزاد عدد المناجم، لكنهم جميعًا ظلوا يستخدمون الوسائل البدائية.. الاعتماد المباشر على أيدي العمال!!..

الرجال والصخر.. وجهًا لوجه ينحتون بأزاميلهم ويغوصون في الجبل متتبعين الخامة.. والخواجة وراءهم.. يجمعها..

ولم تتقدم صناعة التعدين في بلادنا.. لهذا السبب..

ولن يأخذنا الحماس فنقول أن الخواجات كانوا يضطهدون العمال ويرغمونهم على العمل بالكرابيج..

أبدًا..

كانوا يستغلونهم فقط..

يتركون الصخر يفتت قواهم، ويدك عظامهم حينما تنهار الفتحات.. يعرضونهم للأخطار دون وقاية أو رعاية.. مقابل عشرين قرشًا في اليوم..

ولشد ما خالجني هذا الشعور أكثر من مرة، ساعة الغسق ونحن نمر بالسيارة على جبلٍ من الجبال.. إذ يبدو كأن صخوره الحادة المدببة، تضم خليطًا من اللحم والدم والعظام.. خليطًا من الرجال الذين راحوا ضحايا الانهيارات الصخرية، وانعدام الماء أو الهواء، داخل أنفاق التعدين.. إذ ذاك يخالجني الشعور بأن الجبل من لحمٍ ودم!!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(12)

نهض الخواجة نيكولا وأحضر من غرفته ثلاثة مشاعل تضاء بالكربون وأعطى واحدًا لكلٍ منا وتقدمنا إلى مدخل المنجم..

المنجم يبعد قليلًا عن معسكر العمال، وفي الطريق إليه أشار الخواجة نيكولا بإصبعه إلى السماء فوقنا وهو يقول:

- بص.. القمر بتاع روسيا أهه..

رفعنا رؤوسنا حيث يشير فرأينا السماء فوقنا وقمم الجبل الذي يحيط بالمعسكر في شبه دائرة، تكاد تلمسها..

وكانت ملايين النجوم المنثورة في السماء الداكنة الزرقة ثابتة.. وبينها نجم واحد يتحرك منحدرًا ناحية الشرق، ثم يختفي وراء قمم الجبال..

وقال الأستاذ فؤاد شال:

- القمر بتاع بلدكم ده ولا القمر بتاع الأمريكان..

قال الخواجة بحماس:

- لا.. القمر بتاع الأمريكان موش بييجي خالص.. قمر روسيا ده.. أنا باشوفه كل يوم..

ولمعت في عيون العجوز دمعة أخفاها وهو ينحني ليشعل مصباحه ويتقدمنا في فتحة المنجم..

أي حنين جارف مدمر كان يحسه العجوز تجاه وطنه الذي غادره وهو شاب؟..

أي رغبة عارمة في أن يعود إلى الأرض التي أطلق منها القمر الصناعي، ليموت هناك ويدفن بجوار أبيه وأمه وجده زباقي أقاربه..

كان يقودنا في النفق الضيق المؤدي إلى قلب الجبل على عمق أربعمائة متر بإدراكٍ شديد الحساسية.. وبين الحين والحين يحذرنا من منحدرٍ خطر، أو صخرةٍ ناتئة أو معبرٍ زلق..

وكان واضحًا أنه يعرف جوف الجبل معرفة جيدة.. معرفة حب ومودة.. وكأنه قد أقام بينه وبين جوف الجبل علاقة حميمة فجعله وطنًا يستعيض به عن وطنه القديم الذي لا يستطيع العودة إليه..

ها نحن داخل منجم لأول مرة..

حيث يحفر الرجال أنفاقًا وممرات وشوارع ويتحول جوف الجبل إلى مدينة أشبه بمدن النمل..

ولنبدأ من البداية..

فحينما تتبين المجسات وجود الخامة، يبدأ الرجال في النحت داخل الجبل للوصول إليها.. وحينما يبدأون لا يعرفون أبدًا متى ينتهون.. فجوف الجبل مباح لهم، يغوصون فيه وراء الخامة في نهم.. يحفرون الممرات لعبور العمال ثم يمدون قضبان العربات الحديدية لتنقل الخام خارج المنجم ثم يحفرون في الجبل ثقبًا من داخله إلى أعلاه.. للتهوية..

وهكذا..

ويصبح جوف المنجم مليئًا بالممرات والكهوف التي أنتزع منها الخام.. ويرقص الخطر مع كل دقة مطرقة، وكل قطعة من الخام تنتزع من جوف الجبل..

أي عمل بطولي يقوم به هؤلاء الرجال داخل هذه الممرات.. فعندما يرفع الواحد منهم مطرقته وهو على عمق مائتي متر أو ثلاثمائة متر في بطن الجبل، يعرف جيدًا، أن من المحتمل أن تتخلخل الصخور فوقه، وتنهار فتسد أمامه طريق العودة إلى الأرض.. وربما يحدث الانهيار بعد قطعة من الخام ينتزعها فريق آخر بعيدًا عنه..

كان الخواجة نيكولا يتقدمنا، في جوف الجبل الأبيض.. فإن خام التلك حجر شديد النعومة، شمعي الملمس، هش، الجيد منه شاهق البياض، وتصنع منه بودرة التلك، وبودرة الزينة، والروج وأصناف الدهانات التي تطلي بها النساء وجوههن..

والرديء منه، يميل إلى السواد أو الزرقة.. وتصنع منه السموم لإبادة الحشرات..

وأول من اكتشف التلك هم الفراعنة.. وهم أيضًا أول من استخدمه في صناعة أدوات الزينة..

وأخذنا نتقدم في الممرات الشديدة العمق.. في جوف الجبل.. والخامة حولنا ناتئة كأنها أسنان ضخمة، تطل علينا.. أو ذؤابات مدببة في كهفٍ من الثلج..

نهبط، ثم نصعد على الأرض اللزجة المفروشة بالخامة الصابونية.. ممر يقودنا إلى ممرٍ آخر.. في جوف الجبل الرهيب الذي درنا حوله من الخارج في ساعتين..

وكان تقاطع الممرات يصنع تناقضات شديدة الخطورة..

فأحدها نعبره، فكأننا نعبر داخل فرن مشتعل باللهب، ثم نخرج منه إلى آخر، شديد البرودة تجري بداخله تيارات ثلجية من الهواء..

وبعد ساعة ونصف، كنا على عمق ثلاثمائة متر في جوف الجبل..

وأشار الخواجة نيكولا بإصبعه فرأينا فجوة عميقة في الأرض مليئة بالماء.. وقد توقف الحفر عندها..

قال الخواجة نيكولا:

- ده البير بتاع التهوية..

فرفعنا رؤوسنا إلى أعلى فرأينا ثقبًا عموديًا يخترق الجبل.. قطره متر.. وطوله أكثر من ألف متر.. وفي نهايته رأينا السماء.. قطعة صغيرة مستديرة من السماء شديدة البعد.. وكانت الرحلة في بطن الجبل قد أدارت رأسي..

هنا في ذلك المكان.. على عمق أربعمائة متر من الأرض.. في الممرات الحارة والممرات الباردة.. في الكهوف البيضاء المظلمة التي تطل علينا منها أسنان خامة التلك الشمعية التكوين..

هنا في قلب الجبل الأصم.. داخل منجم التلك.. أدركت أن الصحراء ليست قفرًا تموت فيه الحياة من العطش..

ليست جبالًا ورمالًا فقط..

أدركت أن الصحراء حياة عارمة تغذي نفسها بنفسها وتتجدد..

فها هي الصخور حولي منذ بدء التكوين وهي دائمة التحول.. يفعل الزمن والجو فعله فيها فتتشكل وتخرج منها مئات الأنواع من المعادن، التلك والزنك والرصاص والنحاس والذهب والباريت والمسكوفيت والاسبستوس والفيرموكيت والفوسفات والحديد وغيرها..

وكل معدن منها له لون وله شخصية مستقلة، واضحة، لها مئات الفوائد والاستعمالات..

إن الطبيعة هنا تتغذى بالموت.. وبالموت تنمي مكنوناتها وتجددها..

بل ها هي المياه العذبة التي تتحرق الصحراء إلى قطرة واحدة منها، تنهمر مطرًا غزيرًا في شهور الشتاء.. ثم تنحدر على قمة الجبل، وتنساب من ثقب التهوية داخل المنجم.. ثم تصنع بئرًا عميقة مليئة بالماء العذب في جوف الجبل..

في قلب الصخور الصماء..

مياه عذبة يمكنها أن تروي عطش البدو عشرات السنين.. لو عرف البدو طريقها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة، وأنا أشرب الشاي الثقيل الذي صنعه لنا ولد أسمر، حلو العينين، أمام خيمة الخواجة نيكولا، الذي كان يلعب الشطرنج مع نفسه ويغلبها.. كنت أتأمل ذلك الليل السحري الخفاق، الذي تملكه الصحراء..

أي شوقٍ خفي كان يرقص في داخلي وأنا أتابع الجبال الرابضة في الظلام.. النابتة من الظلام.. وهي تشرئب وتتطاول بقممها العالية، وكأنها تطعن السماء، أو تحاول الإمساك بها!..

وكم كانت تلك السماء قريبة حينذاك، حتى أمكنني أن أود القيام برحلةٍ فيها!..

أي قدرة فذة تملكها هذه الصحراء على التحول.. فيمكنها أن تفرش الحزن على طريقنا ونحن قادمون إلى المنجم عند الغروب..

ثم تغسل قلوبنا بالشوق الخفاق في ليلها السحري..

وهي تعلم أنها في الصباح، سوف تسلط علينا شمسًا لا هوادة فيها ولا رحمة.. شمس محرقة تكوي جلودنا وتصبغها!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(13)

غادرنا الدرهيب في الفجر إلى أم سميوكي..

تحركت بنا العربة وجبال الصحراء غاطسة في ذلك الضوء الرمادي الذي يسبق ظهور الشمس..

وكانت الطرق الصخرية مفعمة بالبرد المضمخ برائحة الجبال المغموسة في الندى..

أي رحابة كانت تلك المساحة المرئية لنا من الكون اللانهائي تفعم قلوبنا فيصطخب فيها نوع من الشغف الرقراق.. الشغف الظامئ للمستحيل.. حتى ليود الواحد منا لو يتحول إلى ذراتٍ تذوب هباء، وتنتشر في ذلك المدى الفسيح.. ويمتزج الواحد بالكون.. بل يصبح جميع الكون!!..

في ذلك المكان كنا نعبر الجزء الجنوبي من الصحراء..

حيث أشار هيرودوت في تاريخه قائلًا: هنا توجد كميات وفيرة من الذهب..

ولقد جذبت هذه الإشارة إلى الصحراء عددًا من الشركات الأجنبية.. هبطوا إلى جبالها ورؤوسهم عامرة بأحلام الذهب المصري القديم بألوانه المتنوعة.. الأصفر اللامع، والأصفر الشاحب، والرمادي، والأحمر.. مع درجاتها المتفاوتة..

فمن النادر أن يكون الذهب نقيًا في الطبيعة.. فهو يحتوي في أغلب الأحوال على الفضة أو بعض المعادن الأخرى..

والذهب البكر يوجد مختلطًا ببعض الأخلاط الأرضية..

في قاع الأنهار الجارية أو الوديان الجافة.. أو على شكل عروق في أخاديد الصخور..

والذهب الموجود في الرواسب يتجمع بواسطة عوامل التعرية.. التي تفكك العروق المحتوية على الذهب من الجبال وتسقطها بالقرب من مكانها الأصلي.. فتحملها مياه السيول لتترسب بعيدًا..

أما الحصى الغني بالذهب فيوجد بالقرب من صخوره الأصلية.. إذ يعجز الماء عن حمله بعيدًا.. فالذهب أثقل المعادن..

والذهب الموجود في رواسب الوديان عادة يكون أنقى من ذهب العروق، وقد يرجع ذلك إلى ذوبان الفضة من سطوح حبيباته..

ويتراوح حجم الذهب الموجود في هذه الرواسب.. من مجرد آثار بسيطة إلى كتل يبلغ وزن بعضها أكثر من مائتي رطل!!..

وخامات الذهب في رواسب الوديان لا توجد دائمًا على السطح.. إذ أنها قد تكونت خلال عصور جيولوجية مبكرة، ثم غطاها الزمن بعد ذلك برواسب أحدث عمرًا.. أو بصخور نارية مثل الطفوح البركانية..

وقد تتجمع رواسب الذهب نتيجة لتفاعل الموج والتيارات المائية على صخور محتوية عليه بالقرب من شاطئ البحر..

وتوجد أغلب عروق الذهب على بعد كيلو متر ونصف تقريبًا من صخور الجرانيت.. وأكثر المناطق صلاحية لاستخلاصه، هي القريبة من التداخلات الجرانيتية الصغيرة..

وعروق الكوارتز الحاملة للذهب.. هي أكثر الخامات إنتاجًا للذهب.. وتوجد هذه العروق في الأعماق الكبيرة.. تحت ظروف الضغط والحرارة العاليين.. وقد تتكون عروق من الذهب مع عروق الكوراتز وغيرها في أعماق ضحلة نسبيًا.. وتحت درجة الحرارة والضغط المنخفضين.. لكن عمرها يكون قصيرًا.. وربما كانت لها قيمة ظاهرية، لكنها لا تمتد حتى الأعماق الكبيرة..

وفي كثيرٍ من مناجم الذهب يتكون الخام من الكوارتز مع حبيبات مرئية من الذهب منتشرة خلاله.. وفي مناجم أخرى يتكون المعدن على هيئة حبيبات دقيقة جدًا من معادن كبريتيدية..

ويختلف حجم الحبيبات في الخامات المختلفة بدرجة ملحوظة، ففي بعضها تبلغ من الصغر جدًا لا يمكن معه رؤيتها بالعين المجردة.. ويمكن رؤيتها فقط.. في السطوح المصقولة من الخامة عند وضعها تحت مجهر ذي قوة تكبير عالية..

وكم من المناجم للذهب في العالم، مناجم مربحة تنتج كميات وفيرة من الذهب.. دون أن يتسنى لعامل واحد، في أي جهة من الجهات.. أن يشاهد الذهب في الخام، بعينه المجردة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في جبال الصحراء..

في هذا المكان الذي كنا نعبره، في ذلك الضوء الرمادي..

اكتشف المعدنون الأجانب الذين استجابوا لإشارة هيرودوت، أن المصريين القدماء قد سبقوهم إلى مناجم الذهب..

وأن عرب القرون الوسطى قد أكملوا على ما بقي منه..

ففي كل جبل وجد الخواجات الأجانب آثار تعدين..

وربما وقفوا في الكهوف والمغارات مبهوتين للقدرة الخارقة التي كان يملكها بناة الأهرام هؤلاء.. حتى يتوصلوا إلى صناعة الذهب في عصور ما قبل الميلاد!!..

ولقد زار أجاتاركيس.. وهو كاتب إغريقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد.. مناجم الذهب في مصر القديمة هذه، وكتب يصفها..

"كان الصخر يشق ويكسر بواسطة النار.. ثم يحطم بالمطارق والمعاول، ثم ينقل خارج المنجم ليجرش في أهوان من الصخر حتى ينكسر إلى قطع صغيرة.. توضع في طواحين من الصخر تدار باليد، فتحوله إلى مسحوقٍ ناعم.. يغسل بماء متدفق على سطحٍ منحدر.. فتذهب ذرات الصخور مع الماء، وتبقى ذرات الذهب.. فتصهر وتصنع منها السبائك»..

ولقد شاهد الخواجات كثيرًا من الطواحين الصخرية القديمة.. وبقايا السطوح المنحدرة التي لا تزال موجودة بمكانها القديم من تلك المناجم.. كشواهد حية على أنه لا تكاد توجد عملية حديثة من عمليات استخراج الذهب إلا وكانت معروفة في مصر القديمة..

ولم يخل الأمر.. من منجم هنا ومنجم هناك، به بقايا من الذهب ورواسبه.. أعاد فتحه بعض هؤلاء الخواجات واستخرجوا الخام منه.. حينًا بعد حين..

وقد بلغ مقدار ما استخرج من الذهب، من براثن هذه الجبال.. من عام 1902 إلى عام 1927.. ست وثمانون أوقية..

مقدار قليل..

ثم أصبح الموجود منه يتكلف لاستخراجه أكثر من قيمته.. فتحول الخواجات إلى الجبال ينقبون عن المعادن الأخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أهم المناجم التي احتوت على عروق الذهب في الصحراء، توجد في البرامية.. وأم جريات.. وعطا الله.. وأم الروس.. وأم الطيور..

وكلها أسماء جبال شامخة عنيدة.. في الجزء الجنوبي من الصحراء الشرقية..

وفي أوائل هذا القرن، تجاوبت هذه الجبال بأصداء المطارق والتفجيرات.. وازدحمت الكهوف بالعمال القادمين من الصعيد.. يفتتون الصخر في المغارات..

وقد خلقت شركات التعدين في الصحراء نوعًا من الحياة الاجتماعية المتناقضة، فبينما تربع الخواجات والمهندسون في خيامهم الأنيقة، يخططون على الورق مداخل الكهوف والممرات ويأكلون الطعام المشوي والفواكه

المحفوظة، ويحصلون على أكبر نصيب من الماء.. كان العمال في المغارات والكهوف معرضين للموت تحت الصخور في أية لحظة، يأكلون ما يقيم أودهم فقط.. وفي أغلب الأحيان لا يجدون الماء..

كانوا أشبه بآلات مسخرة لإنتاج الخام.. تدفعهم الحاجة إلى هذا الأجر المميز إلى حدٍ ما – عشرين قرشًا في اليوم وكانوا يعملون في التراحيل بثلاثة قروش!! – إلى الاستمرار في العمل بالصحراء..

وهم ينظرون إلى الشركات الأجنبية كخصمٍ يسخرهم ويربح من ورائهم.. وقد استخدم سلاح الحدود في تلك السنوات القديمة.. لقمع كل الثورات التي كانت تصطخب في هذه المناجم مطالبة بحياة معتدلة.. لكن الثورات كانت تجد لها متنفسًا بطرق متعددة..

فما يكاد العامل يدخر مجموعة من الجنيهات في تلك الصحراء التي لا يمكنه أن ينفق فيها مليمًا واحدًا – فليس فيها ما يباع – حتى يهجر العمل.. ويعود إلى قريته.. فيشتري أرضًا، ويشتغل بالزراعة..

أو ينتقمون من الخواجات بطريقة أخرى كما كان يحدث في البرامية، في أوائل هذا القرن..

كان منجم البرامية قد أعيد فتحه لحساب خواجة طلياني.. وكان الذهب قد بدأ يظهر في العروق.. وبدأت الكسارات تطحن الصخر وتفتته، فيذهب إلى المطاحن الصخرية فتحوله إلى ذرات، تتعرض للماء المنحدر على الأحواض المائلة، فتذهب ذرات الصخور مع الماء.. وتبقى ذرات الذهب في قاع الحوض..

وكان الخواجة يضع الذهب في صندوقٍ حديدي، يحرسه خفير مسلح..

وذات ليلة، كان قد اجتمع في الصندوق ذهب كثير ينتظر إرساله إلى مصر لصياغته.. وكان المعسكر نائمًا، والغفير صاحيًا، والليل السحري يحتوي الصحراء.. عندما انشق الجبل عن مجموعة من الرجال الملثمين.. كمموا الغفير وربطوه وحملوا الصندوق ورحلوا..

وقد فشلت جهود سلاح الحدود في القبض على هؤلاء الرجال.. في تلك الصحراء الشاسعة والجبال المخيفة.. فاشترى الخواجة صندوقًا حديديًا جديدًا.. وزادت الحراسة عندما تجمع الخام الجديد في الصندوق.. ولكن المسألة تكررت بعد شهرين..

انشق الجبل عن مجموعة من الرجال الملثمين في ليل الصحراء السحري.. وكمموا الحراس وربطوهم.. وحملوا صندوق الذهب ورحلوا..

ولقد تكررت هذه الحكاية بضع مرات.. حتى خسر الخواجة نقوده التي أنفقها في البحث والتنقيب.. فجمع أدواته.. وترك المنجم مهجورا ورحل..

وظلت الصحراء من بعده تردد قصة هؤلاء الرجال الملثمين الغامضين..

بعض التفسيرات تقول.. إنهم مجموعة من البدو يقطعون الطرق في تلك المنطقة..

لكن هؤلاء البدو المغامرين، كانوا أبرياء من ذلك التفسير.. فإنهم يعيشون في الأطراف الجنوبية على طريق القوافل بين الصحراء والسودان.. ولديهم في قطع الطريق على هذه القوافل رزق مضمون.. يوفر عليهم مشقة الرحلة في الجبال إلى منجم البرامية..

التفسير الوحيد المقبول، يتهامس به عمال التعدين جيلًا بعد جيل..

أن هؤلاء الرجال الملثمين كانوا عمالًا..

كانوا يحفرون وينقبون ويستخرجون الخام من الكهوف طول النهار.. ويضعونه في الكسارات، ويعبئونه في الصندوق..

وعندما يجيء الليل..

يتسلل واحد منهم.. فيقود جماعة من أقربائه، تعشش في جبلٍ قريب.. فيسطون على الصندوق ويحملونه بعيدًا..!

وفي الصباح.. يعودون إلى الكهوف فيعملون في اجتهادٍ واضح في استخراج الخام.. وكأن شيئًا لم يحدث في الليل..

وكان ذلك أبرع انتقام من الغرباء.. عرفته الصحراء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(14)

أم سميوكي واحد من جبال الصحراء، يضم مناجم النحاس.. على البعد يبدو أزرق اللون، وكلما اقتربت احترق هذا الأزرق، وتحول إلى اللون الرصاصي..

وقد وصلنا في الظهر..

اخترقت العربة مضيقًا في الجبل، ثم انحرفت على طريق صخري شديد الالتواء، حتى وصلت إلى السفح الداخلي المفروش بفتات الصخور..

على السفح رأيت خيام العمال.. مزقًا وأشتاتًا من الخيش والصفيح والقش..

ودرجت السيارة حتى وصلت إلى الورش.. وجلسنا نستريح..

أثناء الراحة، انهار الحلم الذي رأيته على الورق..

واسمحوا لي أن أنقل لكم صفحة من الكتاب الذي أصدرته هيئة مشروعات السنوات الخمس..

الصفحة بعنوان: «استغلال خامات النحاس بأم سميوكي»..

الموقع: الصحراء الشرقية..

الجهة المشرفة على المشروع: الهيئة العامة لتنفيذ برامج السنوات الخمس للصناعة..

المبلغ الإجمالي لقيمة الاستثمار خلال الخطة الخمسية الأولى: أربعة ملايين جنيه وربع مليون..

يتضمن هذا المشروع استغلال النحاس بمنطقة أم سميوكي حيث أثبت البحث وجود خامات غنية بالنحاس الذي يبلغ في المتوسط 3% والزنك الذي يبلغ 25% والمقترح أن تكون الطاقة الإنتاجية المبدئية هي 250 ألف طن من الخام لإنتاج 20 ألف طن من مركز خام النحاس وأربعة آلاف طن من مركز خام الزنك، بنتج منها حوالي خمسة آلاف طن من معدن النحاس و40 ألف طن من معدن الزنك..

ويكفي النحاس الناتج حاجة الاستهلاك المحلي ويمكن أن يوجه الفائض نحو التصدير للخارج..

أهداف المشروع:

1 - الوفر في العملة الأجنبية 1084 ألف جنيه..

2 - الزيادة في الدخل القومي 2284 ألف جنيه..

3 - الزيادة في عدد المشتغلين 1194 مشتغلًا..

حلم براق رائع.. قرأته في كلمات قبل أن أذهب إلى الصحراء وأشهد أم سميوكي.. وقد زاد في تألقه ولمعانه أن الصحف في تلك الأيام، قد بهرتنا بمانشيتات ضخمة تدور كلها حول هذا النحاس الذي اكتشفناه.. والثروة القومية التي سنستخرجها من هذا الجبل..

مانشيتات براقة ضخمة، يقرؤها الواحد في مكتبه أو بيته، في رفاهيته المدنية هنا فيحلم بالصحراء والجبل وكنز النحاس الذي هناك..

لكن هذا الحلم كله.. انهار دفعة واحدة.. وأنا جالس أشرب الشاي، بعد رحلة ست ساعات في الطرق الجبلية، إلى أم سميوكي.. وتكشفت التفاصيل التي عرفتها عن مأساة التعدين في بلادنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في عام 1955 أرسلت مصلحة الأبحاث الجيولوجية بعثة لدراسة خامات النحاس في الصحراء الشرقية..

البعثة مكونة من الجيولوجيين خريجي كلية العلوم.. قسم الجيولوجيا..

القسم محدود وخريجوه محدودون وتجاربهم على التعدين محدودة، فهي قاصرة على دراسة المعادن في الكلية.. ونادرًا ما يقومون برحلة فعلية إلى الجبال لمواجهة الطبيعة..

وهكذا عندما يتسلمون وظائفهم وترسلهم المصلحة إلى الصحراء.. يواجهون هذه الطبيعة لأول مرة..

يواجهون واقعًا شاقًا لم يتعودوا عليه، ولم يدربوا له..

وهذه هي نقطة الضعف الأولى..

المطلوب من هؤلاء الشبان الذين لا يملكون في هذه الصحراء سوى خيمة وعربة وبعض المعدات وقليل من الماء، أن يجوسوا في الصحراء، ويدرسوا مسطحات جبالها مترًا مترًا، بحثًا عن الخام..

عمل دقيق وصعب وشاق.. ولا توجد رقابة فعلية عليه..

والتقدم فيه متروك للتقارير التي يرسلها هؤلاء المستكشفون أنفسهم.. إذ يقولون اكتشفنا كذا واكتشفنا كذا.. وهم واثقون أنه لا أحد من المصلحة سوف يجيء لمشاهدة ما اكتشفوه في هذه الجبال المخيفة..

والحقيقة، أنهم يجوسون في الجبال بضعة أيام في أول عملهم بدافع الحماس، وللتعرف على المكان.. ثم يركنون إلى الهدوء على شواطئ البحر

الأحمر يصيدون الأسماك ويسبحون.. وبين الحين والحين يجيئهم بدوي من سكان الصحراء في حاجة إلى بعض الطعام والماء، بالمعلومات..

وهؤلاء البدو العبابدة خبراء بحكم الإقامة، وبحكم الزمن الطويل الذي عاشوه في هذه الجبال.. بأماكن المناجم كلها التي تضمها هذه الصحراء.. والبدوي يعتبر ما يملكه من المعلومات كنزًا.. لا يفرط فيه ببساطة..

وحسب المنطق البدوي الساذج الذي قاله لي واحد العبابدة.. أمكنني أن أقتنع بما قالوه..

قال لي الرجل:

"الخام كله.. نعرف مكانه فين.. في الأول كنا نقول لبتوع الأبحاث على المكان.. يروحوا باعتين تقرير للمصلحة ونطلع احنا على مافيش.. لما يتمعظموا يعطونا جنيه وشوية أكل.. لكن احنا عايزين نعيش.. عشان كده بنديهم معلومات قليلة قد الأكل والميه اللي بيدوها لنا»..

وهكذا يجيء العبادي ومعه قطعة من الخام.. إلى مركز الأبحاث..

والشبان ممددون في الظل يلعبون الطاولة والشطرنج..

- من فين الخام ده يا راجل؟..

- من هناك في الجبل الأخضر..

- فيه كتير منه هناك؟..

- فيه ياما..

ويذهب موظف الأبحاث إلى الجبل مع البدوي ويشاهد الخام.. ويعطي للبدوي الطعام والماء.. ويرسل تقريرًا خطيرًا مزدحمًا بالكميات الجزافية إلى المصلحة، فترسل المصلحة المعدات إلى الجبل..

وبعد شهرٍ واحد من النقل والتركيب والتكاليف تنتهي المسألة بكمية من الخام، لا تصل أبدًا إلى قيمة التكاليف التي أنفقت في استخراجها..

وهذا هو ما حدث في أم سميوكي..

أرسلت الأبحاث تقاريرها عن اكتشاف النحاس في عام 1959 وخرجت الصحف على الناس بمئات المانشيتات.. وأرسلت المصلحة إلى هيئة السنوات الخمس.. ونشرت هيئة السنوات الخمس هذا الحلم البراق ضمن مشروعاتها.. واستدعت بعض الخبراء الأجانب عام 1960 لاستخراج هذا النحاس من الجبل..

ذهب الخبراء إلى الجبل، وقالوا إنهم لا يستطيعون تقدير كمية الخام الموجودة في أم سميوكي قبل حفر المغارات والأنفاق لاقتحام الجبل من الداخل.. ورسموا مشروعًا للحفر..

واعتمدت الهيئة للمشروع نصف مليون جنيه.. وسلمته للشركة العامة للمناجم والمعادن (سبك المعادن سابقًا)..

وبدأت هذه الشركة في تمهيد الطرق وعمل الآبار..

أنشأت طريقًا جبليًا من سفح الجبل إلى أعلاه، يصعد ويهبط ويلف ويدور حول القمة، بارتفاع ثمانين مترًا في مساحة مائتي متر في مائة متر.. محل البحث..

واستقدمت الشركة أيضًا خبراء من الأجانب..

وهذه هي نقطة الضعف الثانية.. فعندما يجيء الخبراء الأجانب فإنهم يضعون في حسابهم أولًا، خدمة شركات الآلات والمعدات في بلادهم، فيطلبون آلات ومعدات هذه الشركات بالتحديد.. وقد تناول هؤلاء الخبراء أجورًا طوال خمسة شهور في انتظار هذه الآلات.. قدرها 20 ألف جنيه..

حتى نهاية عام 1961 كانوا قد حفروا خمسة آبار.. بعمق عمودي خمسين مترًا داخل الجبل.. وعددًا من الممرات الأفقية في الجبل..

وبعد هذا الزمن، وهذه النفقات، وهذه المانشيتات والأحلام النحاسية.. تبين أن نسبة النحاس في الخام أقل من 1% بخلاف ما قالته تقارير الأبحاث.. وكانت النفقات قد وصلت إلى نصف مليون جنيه..

عند هذه النقطة كان المفروض أن يتوقف العمل..

لكن المسئولين عنه خجلوا أن يعلنوا فشلهم..

واستمر العمل.. دون أمل في نتيجة..

وظل الجبل يحتوي على اثنين من مهندسي المناجم يتقاضون مائة وستين جنيهًا في الشهر.. وأربعة من الجيولوجيين يتقاضون مائتي جنيه.. وستة من الحفارين بمائتي جنيه.. ومائتين وثمانين عاملًا وموظفًا إداريًا يتقاضون شهريًا ثلاثة آلاف جنيه وخمسمائة.. عدا ألفين من الجنيهات، مصاريف أكل وشرب ومشتريات وانتقال وأدوات هالكة..

ولم يكن الاعتماد المخصص للمشروع قد انتهى.. ولهذا استمر المسئولون عنه في هذا العمل غير المجدي، حتى ينتهي الاعتماد..

ولم يفكر واحد من المسئولين في الهيئة العامة لمشروعات السنوات الخمس، ولا في مؤسسة التعدين.. في زيارة الصحراء لمشاهدة حقيقة ما

يحدث في الجبل.. وظلت التقارير المبالغ فيها تروح وتجيء بين مكاتب القاهرة المكيفة بالهواء، والأرض الصخرية في الصحراء.. حتى إبريل عام 1962 عندما تحول المشروع لشركة أخرى ثالثة للإشراف عليه..

وفي سبتمبر من ذلك العام، بدأت هذه الشركة في الدراسة الفعلية للمشروع.. ثم أعلنت أن المنجم غير صالح للاستعمال، لأن كمية النحاس الموجودة به، يمكن شراؤها من أي محل، بثمن أقل من النفقات التي ستذهب في استخراجها من الجبل!..

وبعد هذا التقرير، حسبت الخسارة النهائية للمشروع، فوصلت إلى ثلاثة أرباع مليون جنيه..

ثلاثة أرباع مليون جنيه، لو تم صرفها من مصلحة سك النقود إلى ملاليم.. ولو تم سبك هذه الملاليم إلى نحاس.. لأمكن الحصول على كمية من الخام، أكبر بكثير.. من تلك الكمية التي استخرجت من جبل أم سميوكي.. والتي ما تزال منثورة هنا وهناك عند فتحة المنجم في الجبل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تنته المأساة عند هذا الحد..

فقد تضمن القرار بوقف العمل، قرارًا إضافيًا، بتحويل العمال الذين يعملون في المشروع إلى مشروعات الحديد في الواحات.. ومناجم الفحم في سيناء..

أمر طبيعي وعادي..

لكن التنفيذ لم يكن طبيعيًا، ولا عاديًا..

فقد أراد المشرفون الاقتصاد في النفقات، فلجأوا لحيلة يوفرون بها بضعة ملاليم.. بعد ثلاثة أرباع المليون التي ضاعت..

فماذا فعلوا؟..

سأترك إحدى الأوراق تتكلم..

الورقة موجهة من عمال التعدين بأم سميوكي.. إلى مدير مكتب العمل بالقصير..

شكوى

السيد مدير مكتب العمل بالقصير: بعد التحية..

نتشرف برفع هذه المظلمة إلى سيادتكم نحن عمال منطقة أبحاث النحاس سميوكي محافظة البحر الأحمر..

بما أننا نحن الموقعين بإمضائنا أدناه نعمل بالمشروع المذكور وكل منا له مدة خدمة حوالي سنتين وبعضنا له أكثر من هذه المدة ويخصم منا تأمين وادخار، وقد حدث صدور أوامر بانتهاء المشروع واحالتنا إلى مشروعي الفحم والحديد، وحضر لنا مندوب من هيئة مشروعات السنوات الخمس ومعه إقرارات طلب منا التوقيع عليها.. فوقعنا..

وبعد ذلك علمنا أن الإقرارات تتضمن موافقتنا على اعتبارنا عمالًا جددًا بالمشروعات التي سنحول إليها.. ولن تضم لنا مدة الخدمة السابقة، وبمرتبات أقل.. فثرنا لهذا العمل الذي لا يتفق مع الضمير الحي، واعترضنا سيارة سيادته التي أوشكت أن تغادر أم سميوكي، وأخذنا الإقرارات وقطعناها.. فقال لنا معنى هذا أنكم ترفضون العمل فوقعوا بذلك.. ورفضنا التوقيع على هذا الظلم.. وأرسلنا صرختنا هذه إلى المسئولين في انتظار رفع هذا الظلم عنا، ونتلمس منكم إرسال مندوب التحقيق رحمة بأسرنا وأولادنا الذين تركناهم وراءنا لنلتمس الرزق في هذه الجبال..

وتفضلوا.. إلخ..

توقيعات

ثلاثمائة توقيع..!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(15)

كل شيء في أم سميوكي، كان في حالة توقف..

السيارات واقفة.. والآلات واقفة.. والناس واقفون.. كل شيء كان متوقفًا كأنما بأمر.. كأنما بقانون..

الناس واقفون، كأنهم كانوا يسيرون ويتحركون ويغوصون في جبل النحاس ويخرجون.. وفجأة صدرت إليهم الأوامر بالتوقف.. فوقفوا وهم مدهوشون.. صامتون..

في يناير قالت اللجنة النهائية:

"إن المشروع فاشل.. وإن النحاس المتبقي في الجبل قليل»..

فتوقف كل شيء.. من يناير.. إلى إبريل.. حتى جئنا لنتفرج..

في ذلك الحين كانوا قد كفوا عن التوقف وبدأوا يتقدمون إلى الوراء.. بدأوا يسيرون القهقرى.. وعذرًا لأني لم أجد بديلًا لهذه الكلمة المنهزمة المتكأكئة..

كانوا يرفعون الآلات ويخرجونها من المنجم، ويشحنونها.. ويفكون الورش، ويرفعون أعمدة التليفون والكهرباء..

وكان الجبل مليئًا بآثار الرحيل..

وكان الجبل يبدو لي من جلستي البريئة المحايدة، مجتمعًا كاملًا.. يضم ثلاث طبقات..

ففي السفح عندما دخلنا، عبرنا الحفر الوعرة بين الصخور، حيث أقام العمال أعشاشهم الفقيرة المكونة من القماش والقش على أرضٍ جهنمية مليئة بجحور العقارب والثعابين..

هؤلاء هم الحفارون والنحاتون، والحمالون وقاطعو الصخر..

أجرهم باليومية.. والإجازات يدفعون ثمنها..!

هم الطبقة السفلى في صناعة التعدين..

نارهم تشتعل في حضن الأرض، وطعامهم الرخيص يطبخ عليها.. وعلب الفاكهة المحفوظة التي تسقط عليهم من قمة الجبل الطبقية، تستعمل غلايات للشاي.. تظل تغلي الشاي وتغلي الشاي، شهورًا، وشهورًا.. حتى تسود وتفقد ماركتها فلا تعرف إن كانت علبة سالمون أو علبة كشري..!

غادرت العربة هذا السفح وهي تدور حول صخرة ضخمة كأنها جبل طفل.. تدور وهي تصعد حتى بلغت بنا سفحًا ثانيًا في منتصف الجبل..

هنا خيام وأكشاك..

هنا يبدأ الخشب في الظهور..

هنا يسكن الاسطوات والسواقون، والكتبة حول الورش والمخازن الصغيرة والجراج والكانتين..

هنا تسكن الطبقة المتوسطة..

الموظفون بالشهر..

الإجازات يقبضون ثمنها..

الثعابين لا تصل إليهم.. لكن العقارب محتمل!..

يتعاملون مع الكانتين.. لأنهم يملكون الثمن..

قدموا لنا الشاي، وجلسنا نستريح من رحلتنا.. ومن ذلك السفح المتوسط رأيت بقية الطريق الصاعدة إلى قمة الجبل..

على القمة خيام الطبقة العليا..

المديرون ومهندسو الآلات، والكهرباء والمعادن..

لهم مطبخ مخصوص وخفراء..

والطريق إلى معسكرهم شاق، ومخيف..

إنه طريق منحوت في الجبل، في حافة الجبل.. صاعدًا بارتفاع 250 مترًا.. في مساحة 2 كيلو متر..

تصعده السيارة متأنية كأنها تحبو.. عجلاتها عند الحافة.. وركابها يشرفون على الصخور الحادة الناتئة من الهوة السحيقة التي تنتظرهم إذا حدث خطأ وانحرفت العجلات قدمًا واحدًا..

كأنهم يقولون لك، هذه هي القمة.. محفوفة بالمخاطر.. ويجب أن تعبر إليها فوق وادي الهلاك..!

هذا الطريق الجنوني المنحوت في الجبل الصاعد ملتويًا متسلقًا كأنه ثعبان عظيم.. تكلف خمسة وأربعين ألفًا من الجنيهات..

ولم يهدأ روعي والسيارة تحملني عليه إلى القمة، إلا بعد أن ملأت رأسي بالصور المسحورة الخرافية، لهؤلاء الرجال الحيوانيين الذين تسلقوا جوانب

هذا الجبل كالحشرات.. ونحتوا فيه هذا الطريق الخرافي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على القمة كنت منكس الرأس غير قادر على مواجهة الطبيعة حولي من هذا الارتفاع الشاهق..

لعلها نظرة سريعة واجفة ألقيتها فيما حولي حين غادرت السيارة على قمة أم سميوكي..

ثم ارتدت نظرتي جزعة خجلانة..

رأيت نفسي قد جرؤت على هذا الارتفاع الشاهق ولم تعد نظرتي تسقط على الأرض كما تسقط نظرات البشر.. كانت نظرتي تسقط على قمم الجبال حولي.. القمم المتعددة اللانهائية البيضاء والصفراء، والخضراء والمحمرة..

رأيت نفسي في دنيا فسيحة عظيمة ملونة..

دنيا من الصخر الصامت الحي، لم أجد في قلبي الشجاعة على تأملها، أجرؤ على إطالة التحديق فيها..

وكانت القمة دائرية، وقد نصبت الخيام على حافتها.. وكانت لها شرفة صخرية صنعتها الطبيعة.. رأيت فيها مائدة خضراء ملونة.. مائدة للكرة البيضاء المتقافزة، لعبة العضلات المرهفة البنج بونج..!

أي حياة كانت هنا وتستعد للرحيل؟!..

أي معني لهؤلاء الناس والآلات، والخيام عند هذا الجبل الصارم الصامت؟!..

ثلاث سنوات وهم يقلبون في أحشائه.. ثلاث سنوات من الحياة والضجة والطعام والنوم والبحث.. ثم آن لكل شيء أن يهدأ.. آن للجبل أن يستعيد حريته..

حريته..!

يا للعجب..

أكان الجبل سجين هؤلاء الناس؟..

أكان فريسة بين أيديهم يمتصون قلبها؟!..

أبدًا..

رغم العظمة البشرية والتقدم العلمي الممثل في هذه الآلات العظيمة الفكين والأنياب.. لقد كان واضحًا تمام الوضوح، لكل من ينظر بقلبه لا بعينيه.. أنهم جميعًا سجناء هذا الجبل.. وهم جميعًا الذين يستعيدون حريتهم بالرحيل عنه.. وليس الجبل..!

على القمة تناولت طعام المديرين، الذي يجيء طازجًا من البحر، أو معبأ في علب..

وبعد الطعام جلسنا نناقش مشكلة التعدين..

في أوروبا يتقاضى عامل التعدين جنيهين لعمل ست ساعات وهنا يتقاضى ربع جنيه.. ويعمل سبع ساعات..

في أوروبا تقام المعسكرات العائلية للعمال.. وهنا ممنوع على العامل أن يصحب أسرته..

في أوروبا يعالج العامل في المستشفيات ويأخذ إجازات.. وهنا تحسب عليه إجازاته، ولا مجال للعلاج..

وعمال التعدين عندنا مجلوبون من الصعيد.. وكي يعود إلى الصعيد لرؤية أسرته، تستغرق الرحلة منه يومين أو ثلاثة أيام، والإجازة عادة لا تزيد عن خمسة أيام.. فتضيع في السفر..

ولهذا لا يوجد عمال تعدين متخصصون عندنا، فما يكاد الواحد منهم يعمل سنة أو سنتين ويدخر بضعة جنيهات، فيشتري أرضًا في بلده ويهجر التعدين.. يهجر هذه المهنة المخيفة، التي لا يسمح له خلالها بأكثر من نصف صفيحة ماء، ليشرب منها، ويطبخ، ويقضي حوائجه..

إنها مهنة بلا محبين..

وبالرغم من الامتيازات التي شملت عمال الصناعة عمومًا خلال القوانين الاشتراكية، فإن ما يحصل عليه عامل التعدين عندنا، لا يوازي أبدًا ما يبذله من تضحيات..

إنه في حالة خطر دائم..

في حالة موت مستمر..

موت دون ثمن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(16)

كان الحزن مهيمنًا على الخيام..

فليس سهلًا أن يعاشر الناس مكانًا، ثم يرغمون على مغادرته..

وقد كانت علاقة هؤلاء الناس بجبل أم سميوكي، علاقة حميمة.. علاقة قوامها العرق والدم.. فمن أنحاء الوادي وجنباته يمم هؤلاء الناس جميعًا وجوههم ناحية الجبل وساروا إليه في قلب الصحراء، وهم يحملون زادهم ومتاعهم القليل.. تاركين خلفهم البيت والزوجة والأولاد، والهدوء العائلي..

وكانوا يعلمون أنهم ليسوا ذاهبين في نزهة..

وقد فتحوا في الجبل ممرات لأقدامهم، ولمسوا قلبه الداخلي بأيديهم الخشنة.. حتى أن القلب كان ينبض تحت لمسات أصابعهم..

وقد جعلوا من أم سميوكي زوجتهم، وأولادهم، وبيتهم.. وأقاموا فيه حياة عائلية جديدة.. خشنة وجافة وقاسية، لكنهم تعودوها شهرًا بعد شهر.. حتى صارت حياتهم الحقيقية التي كانت لهم قبل ذلك، نوعًا من الوهم الغامض، لا يربطهم به سوى عربة التموين التي تجيء بالطعام والخطابات مرة في الأسبوع..

فعندما تهل هذه العربة الأسطورية التي تقطع المسافة بين الحضارة والبدائية في بضعة أيام.. يكون القوم جالسين في معسكراتهم ينتظرونها بقلق.. على مدى الشوف، يمدون أبصارهم الغريزية يتلمسونها قادمة بين الجبال قبل أن تجيء، رغم أنهم يعرفون موعدها بالساعة والدقيقة.. فإن تأخرت فلابد قد حدث لها شيء.. وعلى الفور تتحرك العربات من المعسكر باحثة عنها..

عربة التموين التي تذهب إلى ادفو فتحمل الخطابات التي جاءت من أنحاء الوادي وجنباته.. وتحمل الفاكهة والخبز والخضروات، وتحمل الشوق والأخبار لهؤلاء المبعدين في قلب الجبال دون جريمة.. المنفيين دون ذنب..

هذه العربة ما تكاد تطأ بعجلاتها أرض المعسكر الهادئ حتى يتحول كل شخصٍ فيه إلى عدد من الأشخاص..

فمن خلال الخطاب الواحد، الذي يتسلمه شخص ما، يتحول هذا الشخص إلى أب وأم وزوجة وأخت وأولاد.. يتحول الواحد إلى عائلة.. وتتحول العائلة إلى أنباء.. سطور ملخصة لم يكن من الممكن تلخيصها لو كان هذا الشخص هناك، حيث جاء الخطاب.. أنا حامل.. أمك مريضة.. دخول المدارس.. ملابس الأولاد.. البقال يطلب ديونه.. خالك باع البقرة.. وهكذا..

ويهدأ كل شيء في المعسكر حينما يتناول كل واحد خطابه..

يهدأ تمامًا..

وعندما يذهب الرجال بالخطابات إلى فراشهم ويسحبون الأغطية على أجسادهم.. فإنهم يصيرون غير موجودين بالمعسكر على الإطلاق..

فإن كلًا منهم يغادر المعسكر بكيانه الداخلي ليعيش تلك الليلة في بلدته..

تاركًا جثته على السرير!..

وها هم جميعًا مطالبون الآن بالرحيل.. بل إنهم يرحلون فعلًا، منذ بضعة شهور..

وسيعود الجبل جبلًا من جديد بعد أن تختفي هذه الضجة التي تزحف عليه..

وها هم الرجال حزانى كأنهم ثكالى.. يسيرون منكسي الرؤوس.. فعندما يغادرون هذا الجبل فلا أمل في لقاءٍ معه بعد ذلك على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(17)

بدأ الليل يهبط على الصحراء وأنا على قمة الجبل.. ومن القمة كنت أرقب الحزن يلمع في ليل الصحراء الرقراق.. والرجال يحاولون هزيمته..

قال واحد من العبابدة:

- حدانا فرح في الوادي.. بيننا وبينه شلحتين..

أي خطوتين، فعندما يخطو الرجل يرتفع طرف ثوبه، وفي ذلك المشوار لن يرتفع طرف الثوب غير مرتين..

ودعانا العبادي لحضور هذا الحفل الذي سيتزوج فيه قريبه..

الجميع سيرحلون وهذا العبادي وزملاؤه سيبقون.. لأن الصحراء أرضهم وبيتهم.. وقد أصر على دعوتنا لعله يذيب الحزن من قلوب الرجال..

قال الأسطى صالح الميكانيكي:

- يعني حانروح ماشيين وللا نآخد سيارة؟..

قال العبادي الذي كان اسمه هلال:

- نآخد سيارة.. قصدي شلحتين يعني ماهو بعيد كتير..

وكان بيننا وبين موعد العشاء ساعتين فأخذنا سيارة وقلنا نحضر الفرح ونعود..

كنا خمسة.. والعبادي سادسنا..

ولم يكن بالسيارة بنزين يكفي لأكثر من مسيرة أربع ساعات..

وتحركت بنا العربة تخترق ظلال الجبال الكثيفة بشريط الضوء المنبعث من عينها الواحدة.. والعبادي جالس على مقدمتها، وكأنه عين ثانية..

العبابدة سكان الصحراء ينقسمون إلى قسمين..

البدو الذين يرعون الإبل والغنم في الجبل..

والحضر الذين انحدروا إلى حافة وادي النيل واندمجوا في الصعيد وعاشوا على الزراعة..

والبدو العبابدة لا يقيمون وزنًا كبيرًا لأقاربهم الذين يقيمون في الحضر.. ولا يتكلمون عنهم باحترامٍ كبير، لأنهم فضلوا الحياة السهلة اللينة بجوار الماء.. وهجروا الجبل والمراعي الخشنة القاسية التي تصنع الرجال..

والمرأة العبادية، لا تتزوج إلا عباديًا مثلها.. ولا تسمح لأي رجل أن يقع بصره عليها..

وعلى طول الطرق الصخرية المحفوفة بالمراعي، كنا نلمح نساء العبابدة في ملآتهن الرمادية الفضفاضة..

تلمحهن دون ملامح، ودون تفاصيل، لأن المرأة العبادية مغطاة من الرأس إلى القدم.. ورغم ذلك فما تكاد عربتنا تقترب من المكان الذي نلمحها فيه، حتى تختفي المرأة كأنما تبددت في الهواء.. ثم نتبين أنها انزلقت إلى الأرض.. ألقت بنفسها بين الصخور فأصبحت جزءًا من الصخور، حتى لا تسقط أنظارنا عليها..

والمرأة العبادية تملك في روحها قدرة جبارة على العناد.. فقد ولدت دون ماء.. وعاشت بين الأحجار..

والعبادية التي تولد وتعيش في الصحراء لا تقبل أبدًا أن تتزوج عباديًا يعيش في الحضر بجوار الزرع والماء.. فهو في نظرها ضعيف خرع.. لم يقدر على مواجهة الصحراء فهرب منها..

وفي الصحراء بضع صخور.. بالقرب من وادي الجمال.. تضم جثمان رجل وحكاية يرويها الأجداد للعبابدة الصحراويين الصغار..

فقد أحب العبادي عمر ابنة عمه التي تقيم في الجبل وأراد أن يتزوجها فرفضته.. وكان عمر قد انحدر مع أهله وهو طفل من الصحراء إلى حافة الوادي في الحضر، واشتغلوا بالزراعة.. وكبرت الزراعة وكبر عمر وأصبح صاحب ثروة بالصعيد..

لكن ابنة عمه الصحراوية رفضته..

ليس معنى هذا أنهم يسألون المرأة رأيها في الزوج.. أبدًا.. ففي العادة يذهب الخطيب مع جمعٍ من أقربائه إلى والد العروس ويتفقون على المهر.. بضعة رؤوس من الغنمٍ وجمل أو اثنان.. وكمية من السكر والشاي.. وحين يوافق الأب فعلى البنت الموافقة..

لكن البنت في هذه الحالة رفضت.. وتوسط الأعمام والأخوال والأقارب، وعقدت مجالس البدو.. وضربت البنت وعذبت، طوال عشر سنوات وهي مصرة على الرفض.. وفي كل عام كان عمر يبيع جزءًا من أرضه ويشتري الشاي والسكر والهدايا ويذهب إلى الصحراء ليكرر المحاولة..

سنة وراء سنة..

وبعد عشر سنوات، مات على الطريق في إحدى هذه الرحلات التي كانت تكلل بالرفض..

وبقيت الحكاية يرويها الأجداد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الجوع قد استبد بنا.. والجبال أصبحت حالكة السواد.. وعقارب السيارة تشير إلى أننا نسير منذ ساعتين..

واستبد الغضب بالأسطى صالح.. فصاح بالعبادي هلال الذي دعانا للفرح:

- فاضل كتير؟..

وأجاب هلال بهدوء وهو يبربش بعينيه الواسعتين في الظلام:

- فاضل شلحتين بس..

هم قوم لا مجال للزمن في حسابهم..

إنهم يملكون الصحراء وهي تملكهم.. وسوف يتساوى الأمر في النهاية.. لو أنهم قطعوا هذه الصحراء في ألف ساعة.. أو في ساعتين..

بل إن الألف ساعة تكون مرجحة.. فلو انتهى مشوارهم في ساعتين.. فما الذي يبقى لديهم ليفعلوه في باقي الزمان..

إنهم يقودون غنمهم ويسيرون.. يسيرون ويسيرون.. من جبل إلى جبل.. حيث تتلاشى المسافات، وتتشابه الأمكنة، ويصبح الهدف الوحيد هو السير.. هو الحركة في حد ذاتها..

وقد ظل العبادي هلال يقود سيارتنا في هذا الظلام الخرافي الغامض بهذه الكلمة الموجزة:

- فاضل شلحتين بس..!

حتى احترقت آخر نقطة من البنزين في خزان السيارة..

وجدنا أنفسنا فجأة قد توقفنا في مضيق صغير بين جبلين.. ولا شيء أمامنا أو وراءنا سوى الظلام الغامض..

الظلام الذي يلد المجهول..

وكانت قد مضت على مغادرتنا المعسكر أربع ساعات..

وها نحن نقترب من منتصف الليل، وبيننا وبين المعسكر مئات الأميال.. دون بنزين..

وبيننا وبين الفرح الذي دعينا إليه، زمن غامض ومسافة غامضة يعرفهما عبادي.. فهو يستعمل زمنًا غير زمننا، ويتكلم لغة ليست لغتنا نحن أبناء الحضر..وإن كان يستعمل نفس الحروف والأرقام!!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرنا السيارة لنتبين مكاننا..

كنا فوق هضبة بين جبلين..

وكانت بقايا الجبال المترامية تتراقص بقممها العالية في قلب الظلام، كأنها مخلوقات قديمة من فجر التاريخ..

وكانت في السماء فوقنا ملايين النيازك والشهب.. براقة ولامعة ومحترقة..

وجدنا أنفسنا في مكانٍ يشبه آلاف الأمكنة بالصحراء ليلًا.. ولا علامة واحدة تخبرنا عن تميزه..

وكان مستحيلًا أن يعود بعضنا إلى المعسكر ليطلب النجدة.. وكان الجوع يقرصنا، نحن الذين غادرنا خيامنا في نزهة، في تلك الجبال الغامضة المجهولة.. حتى ينتهي إعداد العشاء..

قال الأسطى صالح لهلال وهو يكاد يأكله بنظراته:

- فاضل كتير يا شيخ العرب على الفرح..

وقال هلال وهو يشوح بيده في براءة:

- فاضل شلحتين بس!..

فضحكنا رغم المأزق الذي يحيط بنا..

وكان العبادي يتكلم ببراءة فطرية، فلم يكن تعطل السيارة قد أصابه ولو ببعض الدهشة.. فالسيارة ليست ضرورة بالنسبة له.. إنه يملك قدميه..

إنهم جميعًا يمتلكون أقدامهم..

وقد لاحظ العبادي حيرتنا وارتباكنا بعد فترة.. فأخذ يهز رأسه ويشير بيديه ويجذب الأسطى صالح من قميصه للناحية الأخرى من الهضبة، ليقنعه أننا قد اقتربنا فعلًا من مكان الفرح.

قال واحد منا:

- فرح مين يا عم.. ما زمانهم ناموا..

قال آخر:

- لا.. فرح العبابدة ثلاثة أيام..

ليل مع نهار..

وقد اقترح أحدنا أن نتبع العبادي حتى نجد الوادي الذي ينزل فيه العبابدة..

لكن معظمنا كانوا قد فقدوا الثقة بهذا الرجل الصامت الممتثل الذي لا ينبئ وجهه بأي انفعال..

ولم يكن أمامنا مفر من الذهاب معه إلى الفرح..

من البحث عن مكانه على الأقل.. فلا أمل في العودة الآن..

وقد تم الاتفاق على أن يبقى بعضنا بجوار السيارة.. وأن يذهب الآخرون مع العبادي.. على أن يكونوا حريصين على عدم الابتعاد من مكاننا، حتى لا يفقدونا نحن أيضًا..

وكنت مع الذين سوف يذهبون.. الأسطى صالح ومساعده وهلال..

مشينا إلى نهاية الهضبة الخلفية، ثم انحدرنا إلى الوادي..

والكلمات تكتب على الورقة بسهولة.. لكنها في الطبيعة تكلف كثيرًا..

كانت الصخور الصغيرة المدببة تنزلق تحت أقدامنا.. وكان علينا أحيانًا أن نسير على أربع.. إذا أردنا الاحتفاظ بتوازننا..

وبعد نصف ساعة من هذا الهبوط الشاق.. استولى علي اليأس..

حتى نتيجة هذا السير كانت غير مضمونة..!

استولى التردد على قلبي فلاح لي الانتظار بجوار العربة أقل مشقة.. فقررت العودة إلى السيارة..

وبدأت أعاود الصعود على أربع من جديد.. بينما الأسطى صالح والعبادي والمساعد يهبطون ويهبطون حتى وصلوا إلى حافة الوادي.. فوقفت أرقب أشباحهم الصغيرة الضئيلة وهي تنعطف تحت حافة جبل.. ثم ذهبت إلى السيارة وجلست..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبدًا لم يكن الانتظار بجوار السيارة أقل مشقة..

فهأنذا جالس أحدق في السماء وأحدق في الجبال وأحدق في زملائي.. ربع ساعة.. نصف ساعة.. ساعة.. لا شيء غير التحديق والانتظار.. والجوع.. واليأس..

كان السير بمشقته أحسن.. فالحركة لها شخصية.. الحركة فعل إيجابي دوافعه الأمل.. والأمل يمتص المشقة أولًا بأول..

لكن الانتظار سكون سلبي.. الانتظار سجن.. حتى السجين يعرف مقدمًا متى سيفرج عنه.. يعرف الوقت الذي سيضيعه في الانتظار.. أما أنا فكنت لا أعرف.. كيف أنتظر هؤلاء الذين انحدروا من الهضبة ليبحثوا عن نجع البدو، ثم يعودوا ليأخذونا دون أن أعرف متى سيحدث ذلك.. بل حتى لم أكن أعرف إن كانوا سيتمكنون من العودة أم يضيعهم ظلام الصحراء..

وقد امتلأ صدري بالغيظ وأصبح الفضاء الفسيح حولي، سجنًا محكمًا.. وأصبحت الجبال قضبانًا..

وانفجر الغيظ فنهضت..

وكنت قد نهضت قبل ذلك بضع مرات لأحرك أقدامي.. مشيت هنا وهناك لأطمئن نفسي إلى أنني أقوم بفعل شيء..

إن السكون عدو الإنسان الأول..

السكون عدو الحياة..

الحركة هي قانون الحياة الأساسي.. والحي يظل حيًا ما دام يتحرك.. وعندما يكف عن الحركة، يموت.. وهأنذا قد تحركت.. جلست ووقفت ومشيت، وأحصيت النجوم، وأحصيت قمم الجبال.. لكنني كنت متأكدًا من أنها حركة مزيفة.. لأنها حركة محدودة.. فلم يكن باستطاعتي أن أسير دون قيود، حتى لا أبتعد عن السيارة..

كان هذا الحديد الميت، العاجز عن الحركة، قد أصبح محطة الأمان لنا جميعًا..

على الأقل لأنها أصبحت علامة في هذا التيه..

انفجر غيظي فقررت النزول من الهضبة واللحاق بالرجال..

وقد واصلت الهبوط حتى تسلخت يداي.. ولم أتوقف.. كنت أشعر أن التحدي موجه مباشرة إلى شخصيتي.. لقد رفضت أن أترك نفسي فريسة للملل بجوار السيارة.. أنا ابن المدنية التي يموت ثلاثة أرباع أبنائها بمرض الملل قررت أن أدفع الثمن.. لكنني فزعت عندما وجدت نفسي في الوادي المظلم وحدي..

وقد سرت متلمسًا قدر استطاعتي آثار أقدام الأسطى صالح والعبادي، حتى وصلت إلى الجبل الذي انعطفوا عنده، وانطلقت..

وجدت أمامي طريقًا جبليًا محفوفًا بالصخور.. يضيء أحيانًا ويظلم أحيانًا أخرى، حسب الفتحات الصغيرة في القمة، التي تسمح لضوء النجوم بالمرور.. وكان الطريق خاليًا يسوده السكون المريب.. وعندما انعطفت فيه، لم يعد بإمكاني رؤية الهضبة حيث تركت السيارة..

في هذا المكان الذي لا أعرف عنه شيئًا، تذوقت فرح الحرية.. في حدود التجربة الضئيلة التي قمت بها للحركة، أحسست أنني حر.. باستطاعتي أن أوغل في هذا الطريق كما أشاء.. أسير وأسير إلى ما لا نهاية..

رغبة عارمة جامحة استولت على قلبي أن أترك نفسي لهذه الطرق لعلي أكتشف الصحراء من خلالها.. لم يكن ممكنًا أن يصيبني شيء.. سأضل طريقي وأكتشف عالمًا جديدًا لم أعشه من قبل.. قد أصل إليه سالمًا وأعيش حياة جديدة.. وقد لا أصل وأموت على حافة أحد الجبال، ويوضع على قبري علم من ثوبي..

لكنني لم أكن قادرًا على القيام بالمغامرة، فلم تكن حريتي مطلقة.. كنت إنسانًا متحضرًا، مربوطًا من أطرافه إلى عديد من الالتزامات.. والعمل والأسرة والأصدقاء والأماكن التي تعودت التردد عليها..

سأجد متعتي الخاصة.. لكن هؤلاء جميعًا سوف يفتقدونني..

ولو كنت أقل تواضعًا لتخليت عن ذلك الشعور الذي يقيدنا جميعًا.. إن العالم بدوننا سوف يتوقف.. فلن يتوقف شيء على الإطلاق.. إنما هو وهم بأهميتنا يمليه غرورنا.. وهؤلاء الذين يتعلقون برقبتنا لأننا مسئولون عن حياتهم، سوف يجدون طريقة ما يعيشون بها، وقد لا ينسوننا مباشرة، لكن المؤكد أننا سنصبح لهم أقل أهمية مما تصورناه..

وقد استغرقتني هذه الهواجس والجوع يقرص أمعائي..

حفيف مفاجئ حولي جعلني أستريب.. ثم تذكرت الثعابين التي تعيش بين الصخور فاستولى الرعب على قلبي..

ما أعظم بطولة أولئك الناس الذين يعيشون في الظلام.. فعندما كانت الرؤية تتعذر بالنسبة لي، كان كل شيء يتحول إلى ثعابين.. وقد أصابني هوس مفاجئ فأخذت أصرخ وأنا أنتفض وأقفز وأتلفت حولي هاربًا من الوهم والخيالات..

وأخذت أجري وقلبي يدق.. أجري وأنا أصرخ وأنادي الأسطى صالح..

وعاودت صعود الهضبة والهزيمة تملؤني..

وفي منتصف الهضبة رأيت الجميع قادمين نحوي من أعلى.. كانوا قد وجدوا نجع العبابدة في الجانب الآخر فجاءوا ليأخذونا..

وكانوا هابطين للبحث عني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ونحن نهبط إلى الوادي من الناحية الأخرى رأينا الفرح..

حفنتان من الخيام في قاع الوادي وزحام من ناسٍ يتحركون.. ومئات الأغنام نائمة، كأنها أعشاب صحراوية مظلمة..

وعندما اقتربنا، استقبلنا والد العريس.. وكان العريس جالسًا في واجهة خيمة كبيرة.. أبيض في أبيض.. وعمامة بيضاء كبيرة حول رأسه.. جالسًا على سرير من الأغصان، وفي يده سيف.. وأمامه طبق كبير مليء بالتمر..

أجلسنا الشيخ في مواجهة العريس وهو مكان مخصص لكبار الضيوف.. وكان الحفل مشرفًا على نهايته فيما يبدو.. فقد كان الرجال يقومون واحدًا واحدًا.. فيأخذون السيف من يد العريس ويلعبون به ألعابًا بدوية للشجاعة.. ثم يعيدونه إليه.. واحدًا واحدًا، والعريس يتناول السيف، ثم يعيده لمن يطلبه وهو منهمك في أكل التمر..

وكان الجوع يقرص أحشاءنا، والأسطى صالح يتأمل طبق التمر ويفكر في طريقة للوصول إليه..

وكان المساعد قد أخبرنا أن البدو كرماء.. وأننا سنجد عشاءنا عندهم بكل تأكيد..

وهكذا لم تمض فترة قصيرة، حتى اقترب منا الشيخ الذي استقبلنا وهو يقود خروفًا صغيرًا يبدو أنهم أيقظوه من النوم لتوه..

قدمه لنا حيًا يمامئ وهو يقول لنا:

- هذا عشاؤكم..!

وكانت المفاجأة ألجمتنا جميعًا..

قال الأسطى صالح، إياك أن ترفض..

فالبدو كرماء فعلًا، وسوف يغضبون إذا رفضنا الخروف..

نحن نموت من الجوع، وعشاؤنا خروف حي..!

وقبلنا الخروف ونحن نتقلب بين الغيظ.. والحيرة..!

وهمس صالح في أذني:

- طول بالك.. دلوقت نآكل حاجة تصبرنا لغاية ما نشويه..

ونهض فجأة فأخذ السيف من يد العريس، وأخذ يرقص به محاولًا تقليد رقصهم وهو يغمز لي بعينيه.. ثم أعاد السيف للعريس وانحنى فغرف كبشة من التمر دسها في جيبه.. وعاد إلينا بما يمسك بطوننا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح المبكر انتهى الحفل، فأوصلنا الشيخ إلى مكان السيارة على أحد الجمال..

وربطنا السيارة في الجمل وركبناها.. فأخذ يجرها عائدًا بنا إلى المعسكر..

وما كان أغربها من قافلة، تخترق الصحراء في ذلك الصباح المبكر، وهي تجر الحضارة في ذيلها..

وكانت الحضارة الممثلة في تلك السيارة، مهزومة أشد هزيمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(18)

سمعت السؤال أكثر من مرة..

- موش حاتزور الشيخ؟..

في كل جبال الصحراء سمعت السؤال..

فالشيخ هو بركة الصحراء وظلها ونورها وهواؤها..

قال الجميع أن الرحلة شاقة.. لكن الزيارة واجبة فالعيد الكبير على الأبواب، وسوف تزدحم الطرق الجبلية بالسيارات والبغال والجمال.. وسوف تمتليء ساحة الشيخ بالزوار القادمين من أقاصي البلاد.. ضباط وبهوات وعمد وخفراء ووزراء وأغنياء وفقراء..

يركبون الطريق الطويل الصعب أيامًا وليالي ليقيموا في جوار الشيخ بضع ساعات، يتبركون به ويقدمون له النذور..

عدد كبير من هؤلاء الناس يجيئون سيرًا على الأقدام.. تتسلخ أقدامهم ويهترئ جلدها من مشقة الرحلة، لكنهم لا يتخلفون أبدًا عن المجيء.. فالزيارة واجبة.. والشيخ نور ونار..

وهكذا قررنا الزيارة في الصباح المبكر..

وكنا قد عدنا في الظهر والجمل يجر سيارتنا، من رحلتنا الليلية لزيارة فرح العبادي..

وقد وصلنا منهكين إلى النخيرة، فشوينا الخروف على الطريقة البدوية وأكلنا ونمنا..

بينما ذهبت السيارة إلى الورشة لتعالج وتستريح..

وفي الصباح المبكر كانت السيارة ضئيلة وذائبة كأنها حشرة صغيرة تزحف على صخور الجبال، متجهة إلى الأطراف المجهولة حيث يقيم الشيخ.. إلى تلك المنطقة الشامخة الجبال حيث يتصارع البدو على مناطق الماء ويقتل بعضهم بعضًا.. وحيث يصبح نور الشمس جحيمًا يذيب الجلود وتصير بقعة الظل التي يلقيها على الأرض جبل ما، نعيمًا لا يعدله نعيم..

وما من شيء أكثر سخرية من ذلك الخاطر الوامض الذي جاءني وأنا أعبر تلك المنطقة في ذلك الصباح.. فقد أخرجت الخريطة الصغيرة من جيبي لأتبين مكاننا في تلك اللحظة منها.. فوجدت مساحة صغيرة بيضاء صافية.. مكتوب عليها بخطٍ أنيق كلمة «الصحراء»..

هكذا بكل بساطة..

تلخيص نهائي، ضاعت في بساطته كل التفاصيل والأهوال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الحاج ناصر، وكنا جالسين في العلبة الأمامية، مخاطبًا السائق:

- خلي بالك يا محمود، عايزين نجمع شوية حطب لجامع..

فهز السائق رأسه علامة الفهم والموافقة.. بينما سألت الحاج من هو جامع هذا؟..

قال الحاج: جامع، خدام الشيخ.. قاعد مع الشيخ في الحتة المقطوعة دي، وكل زاير يجيب معاه شوية حطب.. برد الصحرا حداهم بيبقى شديد في الليل..

ومضى يحدثني عن جامع.. العبادي الذي ولد بجوار الشيخ.. وأمضى في صحبته أكثر من تسعين سنة، لم يغادر مكانه إلى جوار الشيخ لحظة واحدة.. وقيل أنه أصبح علامة من علامات الصحراء، يعرفه جميع هؤلاء الزوار الذين يجيئون من أقاصي الأرض، لزيارة الشيخ.. ويعرفون ما يحبه وما يكرهه من الأشياء:

"جامع يحب شيئين لا ثالث لهما.. الحطب والملبن»..

شتان للنقيضين!!..

الملبن يسميه «هلاوة»..

وكل زائر للشيخ يعرف أن جامع سيبادره بالسؤال أول ما يراه: جبت الهلاوة؟.. ولذلك يفكر زوار الشيخ في تجهيز الملبن، قبل تفكيرهم في تجهيز حقائبهم للزيارة..

وقد استطاع الحاج ناصر أن يجذب حماسنا إلى صف جامع.. فأخرجنا عيوننا من نوافذ السيارة، ندقق النظر في الصخور والوديان، ونشير بأصابعنا للتوقف، كلما لمحنا غصنًا متساقطًا، أو شجرة جافة..

وكانت السيارة تغوص بنا في قلب الصحراء، تحفها الجبال من الجانبين، ثم تنحدر فجأة في وادٍ شديد الاتساع حيث تختفي الجبال تمامًا.. فتظل السيارة تدرج فيه حتى ليخيل إليك أنه لا نهاية له، وأن السائق قد ضل بنا الطريق.. ونظل نمضغ القلق، والهواء الصحراوي الجاف يمتص عرقنا أولًا بأول، دون أن يجسر واحد منا أن يقطع الصمت على ذلك السائق ليسأله.. بينما يقود

سيارته باطمئنانٍ واثق، وكأنه يعرف طريقه جيدًا في هذا الفراغ الشديد التشابه!!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند حافة جبل.. على المنحدر، لمحنا كومًا كبيرًا من الحطب.. أشجار جبلية مقطوعة وملقاة على الطريق.. كانت بالنسبة لنا لقية مبعثرة..

أشار أحدنا ناحيتها بإصبعه، فتأملها الحاج لحظة ثم قال للسائق:

- وقف يا محمود نآخد عودين..

وما كادت السيارة تقف إلى جوار كومة الحطب حتى ارتفعت من صندوقها الخلفي حيث يجلس العبابدة صيحة احتجاج:

- لا يا حاج.. بلاش ده!

وكنا قد نزلنا من العلبة الأمامية متجهين إلى كومة الحطب..

وكان المحتج شابًا، وقف في الصندوق الخلفي يلوح بيديه لعمدة الصحراء، مقاطعًا رغبتنا..

شتم العمدة الشاب بمرح، قائلًا له أنه لن يأخذ الحطب إلى بيته، وإنما يأخذه كنوعٍ من الثواب، لجامع خادم الشيخ..

وجمعنا قلة قليلة من هذا الحطب المكوم في السيارة وانطلقنا بها، ونوع من التعقيد الدرامي يحلق فوق قافلتنا الصغيرة..

فقد كان الحاج ناصر يجلس بجواري في العلبة الأمامية متأزمًا محرجًا لموقف الشاب منه.. وكان الشاب ما يزال يتمتم بلهجته العبادية محتجًا على ما فعله الحاج، في الصندوق الخلفي..

وفي بادئ الأمر ظننت أن الحطب ملك للشاب.. لكنني من خلال الحوار أدركت أنه لا يعرف حتى صاحبه.. لكنه يعرف العناء الشديد الذي بذله هذا الصاحب المجهول.. ليجمع هذه الكومة الملقاة في جانب من الوادي دون حراسة..

ففي الصحراء عديد من الأشجار الجافة، تكتسحها السيول وتبددها.. وتلهبها الشمس بحرارتها فتصبح خشبًا ممتاز الجفاف، تصنع منه أجود أنواع الفحم.. وفي الصحراء نوع من الناس جعل الفحم صناعته.. إنهم يجوبون الجبال والوديان يجمعون هذه الأغصان والأشجار واحدة واحدة.. ويكومونها.. تحت الشمس اللاهبة.. يفعلون ذلك.. في أرضٍ مجهولة تمامًا، تمر الأسابيع والشهور دون أن يمر بها مخلوق ما.. وكثيرًا ما ينفد الماء من هؤلاء الناس..

إن أبسط ما يتعرضون له أن يقتلهم الظمأ، فلا مجال في هذه المنطقة للحصول على الماء.. وقبل أن ينام الواحد منهم، ينشر قطعة من القماش السميك على سطح إحدى الصخور فتظل تتلقى حبات الندى وتمتصها من الجو طيلة الليل.. وفي الفجر يعصرها الرجل في كوز من الصفيح ليحصل على بضع نقط من الماء تكفيه طيلة اليوم..

لهذا العناء الأسطوري كان الشاب ساخطًا.. إنه لا يعرف من الذي يملك هذا الحطب، لكنه كان يشتغل في هذه الصناعة مع والده.. وكان يدرك أن اقتطاع بضعة أعواد من هذا الحطب.. يعتبر جريمة فظيعة في حق هذا المجهود الشاق الذي بذله صاحبه في الحصول عليه..

وكان هذا أيضًا، هو سر التأزم الذي لازم الحاج طوال رحلتنا!!..

ومن خلال هذه الحادثة الصغيرة، أدركت أن الصحراء قد صنعت لسكانها قواعد أخلاقية.. هي نفسها تلك القواعد الأساسية التي تشكل الأعمدة الرئيسية في أخلاق البشر.. تلك الأعمدة التي دمرتها المدنية.. وأضاعتها..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرب الظهر أشرفنا على منحدرٍ جبلي، هبطنا منه إلى ساحة عظيمة الصفاء.. ساحة صخرية تحدها جدران الجبال.. ومن فتحة المنحدر رأينا بناءًا صغيرًا أصفر اللون في قلب الساحة، يشع إشعاعًا نورانيًا غامضًا.. وتمرح حوله عشرات الجمال العارية البيضاء..

وما كادت عربتنا تدرج على المنحدر وتدخل الساحة حتى رأينا البئر..

وحول البئر عشرات العبابدة يشربون ويملأون.. ويتبركون بالشيخ..

وكان جامع في عشته المقامة على أربعة من الأغصان الجافة.. جالسًا نحيلًا عاجزًا لا يستطيع الحركة.. وخلفه كومة هائلة من الحطب..

كان الحطب بالنسبة له في البداية ضرورة ثم أصبح عادة..

وقد بادر الحاج بمجرد أن سمع صوته:

- جبت الهلاوة؟..

فأعطاه الحاج علبة الملبن..

وأنزلنا الحطب من السيارة..

وشربنا من البئر..

ودخلنا البناء المقام على الطريقة الفرعونية..

حيث يقيم الشيخ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المدخل ساحة مفروشة بالحصير، دون سقف.. ثم باب إلى اليسار يؤدي إلى غرفة ضيقة.. تضم مقام الشيخ في وسطها.. مقام مهيب مغطى بالحرير الأخضر والأصفر..

رأس شامخة خضراء.. وحول المقام ممرات ضيقة تمرح فيها زنانير الصحراء التي تزن وتلدغ.. وعلى الجدران مئات الصور الشخصية.. هدايا الزوار لصاحب المقام.. أو على الأرجح، رغبتهم الأصلية في مجاورته في تلك العزلة النائية وعلى رأس المقام لوحة معلقة في برواز أنيق.. تضم موجزًا تاريخيًا لحياة الشيخ صاحب المقام..

أنقلها لكم:

القطب الشاذلي

نسبه:

القطب الشاذلي هو الإمام العظيم قطب الأولياء وإمام الأصفياء.. من عمت بركته كل مسالك، العارف بالله والدال عليه، القطب الغوث الجامع الرباني الحسن العلوي، أبو الحسن علي الشاذلي إمام كل ولي بن عبد الله ابن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي ابن يوسف بن يوشع بن ورد بن علي بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن سبط المصطفى الحسن بن علي كرم الله وجهه..

مولده:

ولد الشيخ العارف صاحب الأسرار العلمية والحقائق القدسية والأنوار المحمدية، أستاذ الأكابر، والمتفرد في زمانه بالمعارف السنية والمفاخر، أوحد أهل زمانه علمًا ومالًا وقدرًا وهيبة ومعرفة ومقالًا، أستاذ الطريقة الشاذلية، بقرية «غمارة» قرب مدينة سبتة الواقعة على بوغاز جبل طارق من بلاد المغرب الأقصى المعروفة الآن بمراكش في شمال إفريقيا، وذلك سنة 551 من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام..

صفاته:

كان رضي الله عنه آدم اللون (أسمر) نحيف الجسم طويل القامة خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين كأنه حجازي، وكان فصيح اللسان عذب الكلام متصفًا بالأخلاق الفاضلة وعلو النفس والحلم والتواضع والزهد، كثير الخدمة لإخوانه حتى صار محبوبًا عند الكبير والصغير..

حياته:

انتقل رضي الله عنه من مسقط رأسه «غمارة» إلى مدينة تونس وهو صبي صغير فمكث بها مدة، وتوجه منها إلى بلاد المشرق وحج مرات كثيرة وطاف بلاد العراق وبلاد المغرب واجتمع بكثيرٍ من مشايخهما وأقطابهما، فقد كانت سجيته إذ ذاك مصاحبة العلماء، وديدنه خدمة الأولياء..

وفاته:

كان يعتاد زيارة بيت الله الحرام في كل عام وفي سنة 656 هجرية كان بمدينة القاهرة وصحبه في هذه الزيارة سيدي أبو العباس أحمد بن عمر المرسي الأنصاري خليفته الأكبر، وبعض خلفائه ونقبائه المقربين إليه، وكان يشعر بدنو أجله وأن هذه آخر زيارة له، إذ دعا صحبته ورفاقه على غير المألوف كل عام وقال لهم «احملوا معكم فأسًا حتى إذا ما توفي أحدنا وارياه التراب»، فكان ذلك مكرمة منه وإشارة لدنو أجله وموته خلال هذه الرحلة..

وقد التقى خلال سفره بسيدنا الخضر عليه السلام في صحراء عيذاب فقال للشيخ «صاحبك الله اللطيف الجميل وكان لك صاحبًا في المقام والرحيل»..

وقد ودعه عليه السلام حتى قرب مدينة «حميترا» فخرجت روحه الشريفة هناك في هذا المكان، في شهر ذي القعدة من عام 656 هجرية وبذلك يكون قد عمر رضي الله عنه وأرضاه خمس سنين بعد المائة، ولقد دفن رحمه الله بمدينة «حميترا» في صحراء عيذاب، وهي أقصى صعيد مصر من جهة سواكن..

مآثره وبعض كراماته:

لقد ظهر رضي الله عنه ونشر سجل أشياخه المتقدمين وأسس القواعد لأتباعه المتأخرين..

وكان في صحراء عيذاب بالقرب من المدينة التي مات ودفن بها بئر صغيرة جدًا وماؤها مالح، فغسل من هذه البئر فكثر ماؤها وفاض وهدأ وصار عذبًا سائغًا شرابه حتى يكفي الركب إذا نزل عليه، وسميت من يومها ببئر الشاذلي..

ويروى أنه في ليلة وفاته قال لأحد أتباعه «املأ لي إناءًا من هذا البئر»..

فقال:

يا سيدي إنه ملح والماء عندنا عذب..

فقال رحمه الله:

ائتنِ منها فإن مرادي غير ما تظن..

قال:

فأتيته بالماء فشرب منه ومضمض فاه، ومج في الإناء ثم قال لي «أردده للبئر» ففعلت..

فعذبت البئر وكثر ماؤها بإذن الله تعالى..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(19)

غادرنا المقام إلى الساحة الجبلية بعد أن قرأنا الفاتحة للشيخ، وأطلقنا الدعوات..

وقد استسلم كل منا لشعور وهمي مريح بأن الشيخ سيستجيب لنا، ويتوسط عند الرب ليبارك خطواتنا ويغفر لنا كل الذنوب!!..

وفي الساحة الجبلية، على مرمى عشرين ذراعًا من البئر التي مضمض الشيخ فمه في مائها فصار عذبًا، تجمع العبابدة الرعاة والمتسولون تحت العشة المقامة من الصفيح والحطب، يداعبون جامع خادم الشيخ فيوهمونه أن بعضهم يسرق حطبه، فيهب جامع متخاذلًا على ساقيه العجوزتين ويجري هنا وهناك على هاتين الساقين الشديدتي الشبه بأعواد الحطب..

وحين يجد حطبه بخير يضحكون عليه، فيضحك معهم.. لكنه يقع في الأحبولة بعد دقيقة أو دقيقتين..

ذلك منتداهم أو قهوتهم، وتلك هي تسليتهم.. يكررونها على طول الأيام والشهور والأعوام دون أن يسأموا منها.. فكلما تكون خلف عشة جامع كوم من الحطب أحاطوا به وأوهموه أن بعضهم يسرقه.. فيتقافز العجوز كالجرادة على ساقيه الحطبيتين فيضحكون ويضحك معهم..

إنهم يجوبون الصحراء بأغنامهم وجمالهم ثم يعودون إلى منتداهم جوار مقام الشيخ.. فيطلقون الجمال والأغنام تشرب وتمرح.. ويجلسون هم حول الشاي وجامع، يشربون أيضًا ويمرحون..

هؤلاء القوم كانت لديهم مقدرة على الضحك أيضًا، ولشد ما أدهشني هذا..

أي صلابة يملكونها أصلًا.. أو أن الطبيعة قد سلحتهم بها.. إنهم نموذج للقدرة المخيفة على الاحتمال، التي يملكها الإنسان داخل نفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسط هؤلاء الناس البسطاء الذين يدربون أجسادهم جيلًا بعد جيل على التلاؤم مع النظام الضاري الذي تفرضه الصحراء على من يعيشون بها.. تتضاءل وتنهزم كل انتصارات علم النفس والتحليلات الفرويدية..

فالشيء عندهم هو الشيء.. ولا يستطيع الرجل أن يكذب أو يسرق أو يزني.. وقد علمتهم الصحراء شتى الفضائل.. فالرجل رجل، عف اللسان متأمل شهم كريم، يحب لجاره أكثر مما يحب لنفسه..

وهم يستمدون من الفضائل سلاحًا يواجهون به مخاطر حياتهم اليومية.. فإن مئات الخطايا الصغيرة التي نرتكبها بسهولة ويسر في المدينة ضد أنفسنا وضد الناس تتراكم على عقولنا وقلوبنا وتتكثف ضبابًا يغشي عيوننا وأقدامنا فنتخبط في الحياة كالعميان..

فالمدينة زحام.. والزحام فوضى وجنون..

لكنهم في الصحراء قلة والخطايا الصغيرة تصبح واضحة، ويصبح ضبابها على النفس أشد كثافة وثقلًا.. وطرق الحياة في الصحراء تحتاج إلى بصيرة حادة نافذة، لتجنب أخطارها..

إن الفضائل تمنحهم قدرة فذة على الصفاء.. فيمتلكون حسًا غريزيًا مشبعًا بالطمأنينة.. ينير في عقل الرجل حينما يضيع منه الطريق في الصحراء، فيهتدي إلى طريقه.. ويجعل قلبه يدق له إنذارًا بالخطر وهو نائم في ليل الصحراء القمري، حينما يقترب من جسده عقرب أو ثعبان!!..

وسط هؤلاء الناس البسطاء الذين يعيشون بين الجبال على الفطرة، ويصارعون أمهم الطبيعة ويتغلبون عليها..

وأنا أتأمل الجمال العارية وهي تتعانق برقابها وتتغازل، عند البحر.. وأنا أمسح بعيني قمم الجبال المغموسة في السماء..

بدأت أعتقد أن البشر الحقيقيين يعيشون في الصحراء.. وأن هذه المخلوقات التي تسكن في المدن.. ليست سوى حيوانات همجية متأخرة..

ولكم شعرت بالمهانة حينذاك، لكوني شخصًا متمدينًا..!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(20)

بعد هذه الزيارة لسيدي الشاذلي في الجزء الجنوبي من الصحراء، كان علينا أن نعود متأرجحين على الطرق الصخرية والهضبات، داخل سيارتنا الحديدية التي تتحول تحت شمس الصحراء الملتهبة إلى فرنٍ تكتوي بداخله أجسادنا المدنية المرفهة..

إلى أبو غصون لنأخذ حقائبنا ونستريح.. وفي الصباح المبكر نعود إلى نفس الطرق من جديد.. لنرحل نهائيًا عن الصحراء، ونحن نحملها معنا داخل نفوسنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالقرب من وادي الجمال.. وهو منخفض فسيح بين الجبال يمتد إلى أقصى الجنوب، ترحل إليه جميع جمال الصحراء مرة كل عام في موسم الإخصاب.. فتقيم فيه شهرًا أو بعض شهر.. حيث تبدأ الطبيعة تباشر واجباتها الجنسية لامتداد السلالات.. خاضعة لقانون الاختيار الصارم الذي شعاره الأقوى والأصلح.. في هذا الوادي كم ذوت بعض الجمال الذكور وماتت كمدًا لأن الإناث تتجاهلها وترفضها.. وكم لمعت واشتهرت ذكور أخرى لأن الإناث تحوم حولها بالعشرات..

بالقرب من هذا الوادي لمحنا من داخل سيارتنا عباديًا منفردًا يخب في الصحراء وهو يجر حماره خلفه.. وقد استوقفناه وحاولنا تصويره مع حماره.. لكنه رفض.. فبالرغم من أن الرجال والحيوانات الأليفة تتآخى في الصحراء تحت ضغط ظروف قاهرة واحدة..

بالرغم من هذا كله.. إلا أن الفخامة والعظمة، والإحساس بالصلابة البشرية والتفوق الاحتمالي تجعل الرجل الصحراوي شامخًا معتزًا كبيرًا في نفسه، لا يعرف المهانة ولا يعطيها الفرصة لأن تمسه..

وقد رفض العبادي أن نضعه مع الحمار في صورة واحدة ووافق أن نصوره وحده..

كان فقيرًا متسولًا وعندما حاول بعضنا اعطاءه بعض النقود رفض.. فماذا يشتري بالنقود من الصحراء؟!..

النقود هناك لا قيمة لها.. طلب منا بعض الشاي أو بعض السجائر.. وكان شديد السعادة بها..

ها نحن نستيقظ مبكرين وندى الفجر الصحراوي يرطب نفوسنا.. حيث تلتمع الجبال والسيارات والرمال تحت ضوء الشمس الوليد..

وهأنذا أذكر ذلك الغناء المفاجئ الذي انطلق من راديو ترانزستور ونحن نبيت تلك الليلة السابقة في أبو غصون..

غناء مدني في ذلك البعد السحيق عن الحياة المعتادة..

لغة كدت أنساها..

وقد أثار ذلك في نفسي حزنًا لم أدر له طعمًا ولا سببًا..

حزنًا يحاكي العطش!!..

وها هي رحلة العودة تبدأ..

السيارة تتحرك بنا على نفس الطرق..

تخترق الفيافي والجبال متجهة إلى ادفو..

وأنا بداخلها شديد الزحام شديد الامتلاء.. فلم تكن الصحراء شيئًا خارجًا عني.. كانت في داخلي.. كانت كل ما ولد في داخلي وأنا أجوبها..

مضت ست ساعات والسيارة ما تزال تقطع تلك الطرق التي كانت تقطعها القوافل بتجارة الهند متجهة إلى عيذاب.. تلك القرية الفقيرة على بحر مكة، التي في الضفة الأخرى من البحر الفرعوني الأحمر..

كان ذلك يحدث في القرن الثاني عشر..

فلم نكن نحن إذًا أول الرواد..

وهأنذا أعد الجبال وأحصيها وأنتظر عبورها كنوع من تمضية الوقت.. فقد سجنتني الجبال داخلها في رحلة العودة هذه.. أتطلع إلى القمم النهائية وأقول بعد ذلك سنعبر واديًا، وهذا آخر جبل سنراه.. ونظل نمضي تجاه القمة الموعودة حتى ندنو منها ونعبرها، فتتصاعد من ورائها عشرات القمم الأخرى..

تلك هي الصحراء بشموخها وعظمتها، بكل الكنوز الخبيئة فيها.. لا تعطي أسرارها إلا لمن يصادقها ويتشكل على أخلاقها..

وها هو الشتاء قادم..

وسوف تصطدم مياه البحر المتبخرة طول الصيف، بهذه القمم، ثم تسقط مطرًا غزيرًا عذبًا..

مطرًا جارفًا ينحدر من قمم الجبال فيكتسح أمامه الصخور، والأشجار والأغنام والجمال..

سيول منحدرة كالأعاصير تشق وديانًا جديدة وتطهر وديانًا قديمة.. وتغسل الحياة من كل أدرانها، لتقيم مكانها حياة أخرى على نسقٍ جديد.

في البحيرات
حكاية رحلة..

نشرت لأول مرة عام ١٩٦٥..

هناك يبدو كل شيء ممعنًا في القدم..

الأرض والماء والأشجار والناس..

كل شيء هناك..

يبدو عجوزًا.. حكيمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(1)

أردنا أن نقدم استعراضًا صحفيًا عن البحيرات..

كانت الفكرة بسيطة وبراقة..

أن نساهم بهذا الاستعراض الصحفي، في الاحتفال باستقبال بحيرة ناصر، التي تصنعها مياه النيل العظيم في الجنوب وراء السد العالي.. وتغطي بها بلاد النوبة القديمة، وجزءًا من بلاد السودان، وتصنع بذلك تغييرًا هامًا في خريطة إفريقيا.. وخريطة العالم..

هناك حيث يتدفق ماء النهر الآن خلف السد.. جبال وتلال وصحراء شاسعة من الرمال التي لا تنتهي.. أرض صماء يباب مصلوبة على أفران الشمس، تعصف الرياح بصخورها ورمالها.. سوف يغمرها الماء ويتدفق فيها ويعلوها ويدفنها تحته، في جوفه العظيم..

وسوف تدب في جوف هذا الماء مئات الأنواع من الأحياء المائية..

مخلوقات جديدة على تلك الصحراء، سوف تغزوها وتعيش فوقها، وتتغذى بأملاحها ومعادنها التي يتشربها الماء، وتتلون وتتشكل لتتلاءم مع هذه البيئة الجديدة وتتكاثر فيها..

إلى هناك سوف يذهب آلاف الصيادين.. وسيتحول آلاف من البدو إلى رجال ماء..

وسوف ترتفع آلاف الأشرعة على سطح البحيرة الجديدة، وتروح القوارب وتجيء..

وعلى الشواطئ المعشوشبة المترامية في البعد داخل الصحراء وعند أطراف الجبال، سوف تقام المساكن وتنشأ الحقول والحدائق والمدارس والمصانع وفنادق السياحة والكازينوهات وتتحول الأرض الصماء التي كانت يبابًا يموت الإنسان حين يعبره، إلى جنة من الألوان التي يخلقها الماء حينما يدب في مكان..

هذه البحيرة الجديدة ستمتد في عمر الزمن إلى ما لا نهاية.. وسوف تتجدد الحياة عليها أجيالًا.. تتعاقب وتمضي.. هذه الأجيال القادمة كيف ستتذكرنا..؟

نحن الذين كان لنا الشرف أن نعاصر مرحلة تكونها؟.. نحن الذين في زماننا غيرنا مجرى النهر وأقمنا عليه سدًا، وصنعنا خلفه هذه البحيرة؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(2)

كانت الخريطة أمامنا، الفنان هبة وأنا، نطيل النظر في تلك السلسلة الفضية الرمادية الزرقاء من البحيرات التي تنبسط بسماحة أسفل الدلتا، وتتمدد بسكون مشحون بالتوتر عند أقدام ذلك الجزء من البحر المالح.. بطول ساحلنا الشمالي كله.. من الشرق إلى الغرب.. من العريش إلى السلوم..

إن في بلادنا عددًا كبيرًا من البحيرات لا أظننا نعرف كيف نشأت.. ولا أظنها كانت هناك في مكانها هذا منذ بدء الخليقة..

البحيرات المرة، مزيج من البحرين.. الأحمر والأبيض، منتفخة في الصحراء حول قناة السويس كأنها بالون.. والتمساح وراءها..

والمنزلة على رأس الشمال كأنها تنين رمادي يمد أطرافه فيمسك بها أربع محافظات كبرى عند قاعدة الدلتا، هي بورسعيد والشرقية والدقهلية ودمياط.. ويفتح فمه على البحر الأبيض عند أشتوم الجميل، ليأخذ من البحر ويعطيه..

وأشتوم تحريف للكلمة الإغريقية التي معناها فم، والتي كان يطلقها الإغريق على فتحات النيل..

وفي منتصف المسافة بين فرعي النيل حيث يصبان في دمياط ورشيد توجد بحيرة البرلس.. تبدو على الخريطة كأنها طائر عظيم يشغل بجناحيه أكثر من نصف قاعدة الدلتا، بينما يمد رأسه المسمى بوغاز البرلس إلى البحر، ليأخذ منه ويعطيه أيضًا..

ثم تظهر ادكو إلى الغرب من فرع رشيد.. كمثرى ناضجة..

وبعدها مريوط في الغرب الشمالي، كأنها ذراع طويلة تمدها الإسكندرية لتفصل بها البحر عن الصحراء..

ثم تسقط بحيرة قارون من مثلث الدلتا في قلب الفيوم، ورقة التين الشهيرة.. على أطراف الصعيد الأولى..

قال هبة:

- لن نقدم عن البحيرات استعراضًا ناجحًا، دون أن نتعرض للدلتا..!

فانتبهت..

كان ذلك حقيقيًا.. فلم تكن تلك السلسلة من البحيرات، تلك المساحة الشاسعة العظيمة من الماء.. سوى حبات زينة توشي الأطراف السفلى لذيل

الثوب المثلث الشكل، الذي ترتديه الدلتا على الخريطة.. هذه الأرض الهابطة إلى الشمال مع فروع النيل العظيم، لتقف مع البحر وجهًا لوجه..

ولكن..

كيف نتعرض للدلتا.. ومن أين؟..

هل نتحدث عنها أيام أن كان الفراعنة القدماء يسمونها تامحيت.. أو الوجه البحري..

أم نتحدث عنها حينما غزاها الإغريق وكان شكلها المثلث هو السبب الذي جعلهم يسمونها دلتا.. لأن حرف الدال في لغتهم مثلث الشكل..

أم نتحدث عن دلتا القرن التاسع عشر التي خاض علماء الحملة الفرنسية في ترعها ومصارفها.. لحصر الأراضي واكتشاف القرى والبلدان وقراءة التاريخ وسرقة الآثار؟..

- نحن الذين ننتمي إلى جنس الصحافة، كيف يمكننا أن نتحدث عن الدلتا؟..

قال هبة: نلخصها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(3)

كانت الدلتا في الزمن القديم أكثر اتساعًا منها الآن.. حافتها القديمة تمتد إلى خليج السويس من ناحية الشرق، مبتدئة من وادي النطرون في الصحراء الغربية..

ولم تكن قد اتخذت شكلها المثلث بعد..

وكان النيل العظيم ينحدر إليها من أعالي إفريقيا، مخترقًا سلاسل صماء من الجبال والصحاري، يذيب الصخور في مياهه ويحملها معه.. حتى يصل إلى المكان الذي قامت عنده مدينة قرقسورة القديمة (إمبابة ووراق العرب حاليًا) فينقسم إلى أكثر من تسعة فروع.. تفيض منحدرة على الدلتا حتى تلتحم بالبحر في أسفل الساحل الشمالي.. مكونة على الضفاف أحراشًا كثيفة وأدغالًا من الحشائش البرية والمستنقعات..

وفي الزمن الثالث والزمن الرابع للتاريخ، أخذ منسوب البحر في الانخفاض، وامتد الساحل يدفع البحر بعيدًا عن القاهرة التي لم تكن قد وجدت بعد، بحوالي 23 كيلو مترًا، ثم استمر الساحل في تقدمه، يدفع البحر نحو الشمال حتى أصبح على بعد 90 كيلو مترًا.. ولم يستقر الساحل أبدًا على مر العصور التاريخية، فتارة يرتفع البحر فيزحف على الدلتا، وتارة ترتفع الأرض فيتراجع الساحل، مؤرجحًا بين الشمال والجنوب.. إلى العصر الحجري، حيث استقر الساحل على مبعدة 181 كيلو مترًا من القاهرة..

أي أن الدلتا الحالية التي ننوي أن ننزلق على أطرافها المائية في قارب رفيع، كانت في الأصل كما يقول الجغرافيون، خليجًا من البحر يصب فيه النيل.. أي أنها كانت خليطًا من مياه البحر والنيل.. خليطًا من الملح والحلو.. ويومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، ومائة سنة بعد مائة سنة.. أخذ النهر يدفع برواسبه على الضفاف.. وأخذ ماء البحر يتراجع.. حتى تكونت الأرض – بالقدرة الطبيعية على الصبر والمثابرة – ولم يبق من هذا الماء العظيم إلا مستنقعات صغيرة في أنحاء الدلتا، تكونت من التحام بعضها بالبعض، بحيرة ضخمة ظلت ملتحمة بالبحر، يؤكد الأثريون أنها بوطو القديمة.. أو البرلس الحالية.. أول بحيرة تكونت في دلتا النيل..

في ذلك الزمن لم يكن ممكنًا لهذا المسطح الذي انحسر عنه الماء، أن يكون صالحًا للحياة..

في تلك المرحلة البدائية من مراحل التاريخ كانت الحيوانات الضخمة تمرح في أدغال النهر.. والزواحف تتكدس في أحراشه وروافده، وكانت التماسيح تتمطى في أنحاء الدلتا تحت الشمس..

وهناك عدد هائل من الكتب التي تحدثنا عن المعارك الضارية التي خاضها الإنسان المصري الأول، ضد هذه الوحوش والزواحف والأوبئة حتى استطاع أن يمهد لنفسه مكانًا يعيش فيه..

كان النيل يغمر الدلتا كل عام بفيضانه المنتظم، ويترك في الأراضي المنخفضة مياهًا راكدة، تتألف منها البرك والمستنقعات والأدغال.. بينما كانت الأراضي المرتفعة تجف خلال بضعة أسابيع من انتهاء الفيضان.. فسوى إنسان ذلك العصر بين أعالي هذه الأراضي ومنخفضاتها حتى تصبح في مستوى واحد صالح للزراعة.. ثم بدأ يفكر في تنظيم ماء الفيضان نفسه، حتى يمكنه أن ينتفع به وقت التحاريق، فقام بإنشاء الترع والسدود..

وحين أصبحت أرض الدلتا صالحة للسكن قدمت إليها شعوب الشرق من الطريق البري الذي يصل بين مصر وفلسطين وجزيرة العرب.. ثم جاءت شعوب الغرب عن طريق الصحراء الغربية، وكانت قد سبقتهم إليها شعوب الشمال التي دخلت الأرض المصرية عن طريق بحيرة البرلس، بواسطة نقالات خفيفة بعد أن تركوا سفنهم الكبيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط..

وبعد ذلك أخذت القبائل تتجمع وكونت مدنًا لكلٍ منها حكومتها.. حياة بدائية.. تلتف حول صورة حيوان أو نبات تتخذه إلهًا تعبده وأصبحت علامات المدن سواء كانت حيوانًا أو وثنًا، بمثابة آلهة.. تحمي هذه المدن.. ثم تكونت من هذه المدن مديريات كانت تعرف باسم المقاطعات، وكانت هذه المقاطعات في بداية أمرها مستقلة، وحكامها شبه ملوك..

وفي سنة 4240 قبل الميلاد، تكونت في الدلتا أو الوجه البحري أول وأقدم مملكة مصرية..

وبدأ الزمن يتقدم.. والمصري القديم ينشيء في الدلتا المدن والحضارات والممالك.. بوطو.. وصا.. وبوصير.. وديسبوليس.. وميثيليس.. وتنيس.. وغيرها..

حتى أواخر القرن السادس الميلادي.. إذ وقعت في المنطقة الساحلية المصرية زلازل شديدة.. قوضت أركان هذه المدائن والحضارات.. وتسببت في انخفاض الأرض الساحلية فطغى عليها البحر، واقتحم كثبان الرمل التي كانت تفصله عن المزارع والمدن، وأخذ يغمرها ويغطيها عامًا بعد عام.. لينشيء مكانها، البحيرات الثلاث، ادكو ومريوط والمنزلة..

فلن تكون بحيرة ناصر إذًا هي أول البحيرات التي تبتلع مدنًا وحضارات قديمة في جوفها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(4)

غادرنا القاهرة في قطار آخر الليل إلى الإسكندرية فوصلناها في الصباح.. وكان علينا أن نجد فندقًا لحقائبنا، ثم نبدأ البحث عن طريق للسفر إلى بلدة ادكو.. لنصل إلى البحيرة المسماة باسمها..

قال لنا بعض التجار: فيه أتوبيس من اسكندرية – رشيد.. هو ده اللي يوصلكم ادكو.. ما هي في السكة..

وقد حملنا هذا الأتوبيس من محطة الإسكندرية في العاشرة من الصباح، فوصلنا ادكو في الحادية عشرة والنصف.. أتوبيس اقليمي أزرق، من ذلك النوع الذي يذكرك بموظفي المصالح حينما يبلغون الخامسة والأربعين من العمر، فيفقدون وجاهتهم..

وكانت العلاقة وطيدة بين السائق والكمساري والركاب.. فليس الركاب سوى مجموعات من المدرسين والحكيمات وباعة الريف وتجار الصيد، ينتظمون في السفر على هذا الخط في مواعيد ثابتة، ويثرثرون مع بعضهم البعض في مشاكلهم فيتعارفون..

وكان واضحًا عندما دخلنا الأتوبيس – هبة وأنا – أننا نبدو غرباء وأن أحدًا لا يعرفنا.. وقد تحرك الأتوبيس مغادرًا الإسكندرية متجهًا إلى رشيد.. وكلما أعطى ظهره للبحر، غابت عنا رائحته النفاذة.. ثم بدأت الحقول تطالعنا.. وبدأ اللون يتحول من الأصفر إلى الأخضر المزدهر..

وبعد ساعة، بدأت الحقول تختفي رويدًا رويدًا، وبدأ اللون الأصفر يظهر ثانيًا مشربًا بالبياض.. فأدركت أننا قد درنا دورتنا، وأننا نقترب من البحر من جديد..

ثم بدأت الملاحات تظهر.. تلك المستنقعات التي يحاصرها الرمل، وتسلط عليها الشمس حرارتها فتبخر الماء ويبقى الملح أكوامًا بيضاء ناصعة، يجمعها الناس بترخيص..

وكانت الزراعة قد اختفت تمامًا، ولم يبق في الأرض سوى نخلات شامخة، تقف هنا وهناك، ثم تندفع هاربة من نافذة الأتوبيس حين يعبرها..

وفجأة.. والأتوبيس مندفع بأقصى سرعته، يعبر جسرًا.. نظرت حولي فوجدت الماء.. من النافذة التي على يساري، رأيت بحرًا يمتد حتى الأفق.. ومن النافذة التي إلى يميني رأيت بحرًا آخر يمتد حتى الأفق..

وكان الأتوبيس يبدو وكأنه يسير على الماء.. وقد استمر ذلك بضع دقائق.. ثم اختفى البحر الذي إلى يساري، وبدأت الرمال تظهر، وعليها بعض الأكواخ ومراكب الصيد والشباك والنخيل.. فاختلط علي الأمر، وسألت جاري:

- احنا فين الوقت؟..

- في المعدية..

- أمال ايه المية اللي كانت على شمالنا..؟

- ده البحر المالح..

- واللي كانت على اليمين..؟

- دي البحيرة.. ما هي دي الفتحة اللي بتوصل البحيرة بالبحر اللي فتنا عليه من شوية..

وأدركت فورًا أننا نسير على طريق القوافل الساحلي القديم بين القاهرة والإسكندرية.. وأننا عبرنا داخل هذا الأتوبيس الإقليمي المعاصر، في ذلك الصباح الربيعي، بمكانٍ تاريخي، طالما عبره التجار والمسافرون من القرن التاسع إلى الآن..

وكلهم وقفوا حائرين هنا، حيث تنفتح البحيرة على البحر ويختلط ماؤهما.. وكانوا جميعًا يظنونها جزءًا من البحر..

وبينما الأتوبيس يغادر قرية المعدية خلفه مقتربًا من ادكو.. أخذت أتذكر تلك الكلمات القديمة التي تركها لنا هؤلاء المسافرون في الكتب، عن ذكرياتهم في هذا المكان..

لقد ظل هذا الطريق الساحلي مستعملًا حتى القرن التاسع عشر، كوسيلة المواصلات الوحيدة بين القاهرة والإسكندرية.. لأن المسافرين إلى القاهرة أو العائدين منها، لم يكن لهم من سبيل سوى أن يواجهوا أخطار بوغاز رشيد.. أو يركبوا ترعة الإسكندرية التي تتعطل الملاحة فيها في أغلب الأحيان لقلة المياه.. فكان المسافرون يفضلون السفر برًا.. فبعد أن يغادروا رشيد، يقطعون منطقة صحراوية على طريق محددة جوانبه بحجارة عالية، حتى لا تغطيه الرمال فينحرف المسافرون عنه وتبتلعهم الرمال المتحركة التي ظلت تسكن هذه المنطقة فترة طويلة، حتى هزمها العمران..

ويظل المسافرون يقطعون هذه الصحراء حتى يصلوا إلى قطع في الساحل، أطلقوا عليه اسم المعدية، لأنه كان عليه مركب لنقل المسافرين ودوابهم عبر هذا القطع المائي من البر إلى البر..

وفي سنة 1290 كتب بابلوان أركان حرب الجيوش الصليبية في تقريره يقول:

"من رشيد إلى بلدة ادكو فرسخ واحد، ولذا فإن الفرسان والمحاربين يمكنهم السير على الأقدام من رشيد والإغارة على ادكو والاستيلاء على كل ما بها من

البضائع، حيث لا حراسة عليها، ولا يوجد عساكر في البلدة، وإذا طلبوا النجدة من الإسكندرية فإن بينهم وبينها ثمانية فراسخ طوال.. وفي الطريق إليها ذراع من الماء المالح قادم من البحر، ويدخل في بحيرة موجودة هناك وسعته ميل.. والذي لا يستطيع عبور هذا الذراع فإنه يهلك.. ولن يقدم أحد للنجدة، لأن حاكم الإسكندرية ليس عنده سوى أربعين حارسًا وبعض البدو الخيالة.. أما من القاهرة فلا يأتي المدد قبل ستة أيام أو أكثر»..

في تلك الأيام القديمة كانت البضائع تنقل من الصعيد، ومن القاهرة ومن بابليون.. وتفرغ في بلدة ادكو التي كانت محطة تجارية هامة، لتنقل منها على هذا الطريق البري المقطوع بالماء إلى الإسكندرية.. أو إلى رشيد حيث تنقل عن طريق البحر..

قلت لهبة:

- ننزل هنا في المعدية، وللا نروح ادكو؟..

فتدخل الرجل الجالس في المقعد المجاور قائلًا:

- خلاص يافندي.. كلها عشر دقائق وادكو تبان..

فضحك هبة وقال:

- خلينا لادكو بقى علشان خاطر الراجل الطيب ده..

ونظر جارنا إلى هبة في حذر، كإنما يريد أن يستوثق إن كان لا يسخر منه.. ثم ضحك في صفاء وقبل النكتة.. ويبدو أن مصاحبتنا قد أعجبته.. سألته:

- بتشتغل في الصيد؟..

قال الرجل:

- من ده على ده.. يعني صياد ومزارع..

- ازاي؟..

- يعني في وقت الزراعة آديني بأزرع.. وفي وقت الصيد آديني بأنزل البحيرة اصطاد.. ولي أخ مشاركه في تلات نخلات..

- بتزرع نخل؟..

- أمال.. آديلي تلاتين سنة عايش مع النخل.. النخل ده أحسن زراعة.. بس عايزة طولة بال في الأول.. وبعدين هي تشتغل لوحدها..

- يعني ايه؟..

- شوف يا سيدي، النخل ده أصله شهم.. ماتتحكمش فيه أبدًا.. يعني أي شجرة تموت، لو منعت عنها المية.. النخل ده أبدًا.. مايموتش.. يمد جذوره لتحت ويفضل يمدها، لغاية ما يجيب لنفسه ميه من تحت الأرض.. ونفسه حلوة.. يتزرع في أي أرض.. في الرملية جايز.. في المالحة جايز.. في المية برضه جايز.. أيام الفيضان كانت المية غرقت الغيطان والجناين.. كل الزرع مات، وشجر الجناين مات.. اتخنق كله، إلا النخل.. فضل عايش وجاب محصول زين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(5)

منطقة الشواطئ المصرية كلها مشهورة بالنخيل، لقدرة النخلة على اختراق الأرض الملحة، والبحث عن الغذاء تحتها..

ولهذا جذبنا الرجل بحديثه عن النخل..

كان يتحدث بحماس وحب، عن عمل ظل يقوم به ثلاثين سنة.. عن عمل أصبح هو جزءًا منه ومن نظامه ومتاعبه..

كان يلوح لنا بيديه الكبيرتين الغامقتين الشديدتي الخشونة والكبرياء:

ياما ايديا الاتنين دول زرعت فسايل، وقطعت سباطات، وياما طلعت نخل بالحزام.. يا سلام لما الواحد يفضل يطلع ويطلع ويطلع لغاية ما يبقى فوق خالص، جنب السما، وكل حاجة.. البيوت والمراكب والناس والحيوان.. كل حاجة يبقى شايفها صغيرة قوي تحته.. مافيش غير البلح.. هو اللي يبقى كبير..!

صنع بيننا وبين النخل مودة فسألناه..

- والنخل يتزرع ازاي..؟

- له طريقتين..

الأولانية من النوى.. النواية اللي بتبقى جوه البلحة دي نجيبها ونزرعها في الأرض.. ونفضل نسقيها ونسمدها ونراعيها قول سنتين تلاتة أربعة، لغاية ما تكبر وتخرج من الأرض.. الطريقة دي بطلت خالص حدانا هنا في ادكو.. وتقريبا بتبطل في كل حتة، عشان بتآخد وقت وشقا..

الطريقة التانية هي اللي معظم بتوع النخل بيشتغلوا بيها.. اسمها طريقة الخلفة.. فيه نخلة تلاقي طالع جنبها من الأرض فرع خوص أخضر كده أو فرعين، لازقين فيها.. دول يبقوا خلفتها.. بنآخد الخلفة دي بعيد، ونحفر في الأرض مترين لغاية ما نوصل للرطوبة ونحطها.. ونحبش عليها بالغاب والصفيح عشان الرمل مايوصلهاش ونسيبها سنتين تلاتة تبقى علو مترين، وراسها تكبر وتخضر.. ننقلها بقى في أرض عالية ونسيبها سنتين تلاتة كمان تبتدي تطلع بلح..

- كله يطلع بلح؟..

- لأ.. مش كله.. فيه دكر ونتاية..

النتاية بس هي اللي تطلع.. أول ما تبلغ تتجوز.. وأول ما تتجوز تتطلع بلح..

- تتجوز ازاي النخلة يا عم..؟!

- تتجوز في الهوا.. الهوا كده يفضل يروح وييجي بين النخل وبعضه ويآخد من الدكر يحط في النتاية..

- يآخد ايه؟..

- يآخد الريحة من جمار النخلة الدكر ينقلها للنتاية..

- وفكرك يعني إنه بيعمل الحكاية دي مع النخيل كله من غير ما يغلط..؟

- شوف أما أقولك.. إذا كان النخل الدكر عدد النخل النتاية تمام.. كله لازم يتجوز.. الهوا يجوزه من غير ما يغلط.. لكن ماهوش دايما العدد بيبقى مساوي بعضه.. والنخلة اللي تفوت عليها السنة ولا تخلفش، نعرف إن الهوا ماطلهاش نروح نجوزها احنا..

- ازاي..؟

- نآخد حتة من جمار الدكر ونحطها في جمار النتاية..

وضحك العجوز ثم استطرد..

- من يوم ما اكتشفنا الحكاية دي والدكورة معادلهاش عوزة.. فحل واحد بقى يكفي خمسة وعشرين نخلة ويفيض..

وغمز العجوز بعينه وهو يكمل ضاحكًا:

- في الخلفة بس طبعا..

- تفضل النخلة تخلف أد ايه يا حاج..؟

- طول ما هي عايشة..

- وتعيش أد ايه..؟

- ييجي ميت سنة وزيادة..

- وتموت ازاي..؟

- التراب والرمل والريح يفضلوا يآكلوا في جذعها من تحت لغاية ما يرفع.. ولاعدش يقدر يشيلها.. فتقع..

- يسيبوها..؟

- لأ.. يآخدوها يشقوها.. ويسقفوا بخشبها البيوت ويعملوا منه مراكب..

مافيش حاجة في النخلة تترمي أبدا.. الليف يتعمل حبال والخوص مقاطف، والجريد أقفاص وكراسي وأبواب وغيره.. النخلة مبروكة..

قال هبة:

- تعرف يا حاج فيه في ادكو كام نخلة..؟

- في ادكو.. ماعرفش.. لكن ديك النهار أنا كنت في الجمعية التعاونية وسمعت الباشمهندس الزراعي بيقول إن مصر كلها فيها ييجي خمسة ونص مليون نخلة.. أنا صدقته.. بيقول إنهم عملوا احصا..

كان النخل على جانبي الطريق، يجري هاربًا من نافذة الأتوبيس، ولاحظنا أن الطريق يعلو كأنه يصعد تلًا.. وأشار جارنا العجوز إلى زجاج السيارة أمام السائق وقال:

- ادكو هناك أهى..

وفعلًا..

كانت ادكو قد لاحت، مرتفعة كأنها هضبة.. مرسلة على الطريق لاستقبالنا.. كمية هائلة من شباك الصيد الممدودة على الشاطئ خارج البلدة، والصيادون عاكفون على إصلاحها.. وعشرات من الأشرعة والصواري وقوارب الصيد الرفيعة المنزرعة على الجانبين في الأحراش، حتى توقف بنا الأتوبيس على المدخل المرتفع لادكو نفسها..

هذه هي ادكو التي كاد المؤرخون يجمعون على أن يكتبوها «اتكو» سواء منهم العرب أو الأفرنج.. ويقال أن هذه التسمية محرفة عن الاسم القبطي القديم «أتكوب» بمعنى التل المرتفع.. وأن اسمها الفرعوني السابق للتسمية القبطية كان «جوكات» أي التل المرتفع أيضًا..

هذه هي ادكو التي يقول القاموس الفرنسي للأسماء الجغرافية الهيروغليفية أن المدينة المصرية القديمة التي كانت مكانها.. كانت مختصة بعبادة الآلهة هاتور آلهة الحب والمرح..

وقد وجدوا تحت مئذنة جامع الحمصاني الشهير في هذه البلدة، الجزء الأسفل لتمثال من الجرانيت، يمثل شخصًا جالسًا القرفصاء يحتضن ناووسًا، وعلى ظهره بقايا نقوش هيروغليفية جاء فيها.. «روحه لن ترفض، سيد الجنود وقائدهم، حوروس الصادق في كلمته، ابن خوكيل»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(6)

تطوع جارنا الصياد العجوز زارع النخيل، بالنزول معنا في ادكو..

محطة البلدة ليست محطة.. هي مقهى من الأخشاب على أرضٍ غير مستوية، كأنها قمة التل، جدرانها الخارجية تخفيها أقفاص البلح والخبز وبضاعة الباعة الصغار، ومقاعد القش الممتلئة بالرجال الذين لا عمل لهم في تلك الساعة من النهار.. فلم يكن موسم الصيد قد اشتد بعد..

ومن تلك القمة أخذت الشوارع الترابية الضيقة تنحدر وتصب داخل البلدة..

هي نفسها ادكو المعاصرة، إحدى بلاد القرن العشرين.. لكنها فقيرة المظهر.. بيوتها قديمة وواطئة.. حتى الجديد المرتفع يبدو متهالكًا وقديمًا، يغطيه التراب وتهوم حوله رائحة عطنة مفعمة بالملح واليود..

الدكاكين ضيقة وعميقة كأنها كهوف.. وبضاعتها توحي بما يعمله الناس في هذه البلدة.. الصيد والزراعة.. حبال الكتان للمراكب، وخيوط الشباك والفلين والرصاص.. وأدوات النجارة، وأدوات الزراعة.. وعشرات الحيوانات الصغيرة والدواب تمرح في الطريق الضيقة.. ورائحة السمك تغطي كل شيء.. حتى الأرض غير المستوية كانت تبدو كأنها مصنوعة من عظام الأسماك..

ولم تكن البحيرة حتى هذه اللحظة تظهر لنا من أي اتجاه.. لكنها كانت قد فرضت على البلدة ظلها وطابعها ورائحتها.. بل إنها صنعت لها حياتها الحالية.. وكانت البحيرة اللامرئية تبدو لنا وراء كل الأشياء..

- عايزين مركب ننزل بيها البحيرة..؟

قال العجوز زارع النخيل:

- مش كنتوا تقولوا واحنا في المعدية.. بيتي ومركبي هناك وأخويا وأولادي..

وركبنا الأتوبيس القادم من رشيد ليعود بنا إلى قرية المعدية التي عبرناها ونحن قادمون إلى ادكو..

وفي الطريق عرفت من صاحبنا زارع النخيل أن البحيرة يمكن دخولها من أي مكان.. فكل قرية على شاطئها، يمكنها أن تصنع لقواربها مدخلًا إلى البحيرة.. لكن مدخل المعدية سيظل أكبر مداخل البحيرة وأشهرها.. لأنه شديد القرب من البوغاز.. الباب الكبير الوحيد الذي تفتحه البحيرة على البحر لتأخذ منه وتعطيه فيختلط ماؤهما..

لكم رغبت في أن أشهد هذا الاختلاط..

أن أتأمل دخول البحر في البحيرة.. أو دخول البحيرة في البحر..

كيف يكون مثل هذا اللقاء..؟

وتذكرت ذلك الإحساس الخفي الذي راودني على مغادرة الأتوبيس في المعدية ونحن قادمون.. حينما رأيته يعبر بحرين.. لولا أن هبة أخذنا إلى ادكو وهو يضحك، مع جارنا العجوز الطيب..

ها نحن نعود واللهفة تخامرني ممزوجة بالنصر، لأن إحساسي قد أنذرني من قبل بأهمية المكان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(7)

توقف الأتوبيس أمام قرية المعدية، ونهض الرجل الطيب مهرولًا وهو يتعجلنا للنزول.. وحينما انطلق الأتوبيس وأخلى مكانه، أخذت أتأمل ما حولي، وخيل لي أننا نزلنا خطأ..

كنت واقفًا أمام غابٍ كثيف على شاطئ.. وفي مساحة مغتصبة من هذا الغاب رأيت الماء.. كأنه ترعة ممتدة إلى الداخل في أعماق الغاب.. وعلى فتحة الترعة بضعة قوارب غريبة الشكل.. طويلة ورفيعة وضيقة.. كأنها إبرة.. كأنها صنعت لتخترق هذا الغاب وتنفذ منه، حينما يعترضها داخل الماء..

وعلى الشط المملح التراب كانت بضعة قوارب أخرى جريحة يداويها بعض الرجال ويملئون ثقوبها بألياف الكتان.. ومساحات هائلة من شباك الصيد البنية اللون، منتشرة على الأرض الرمادية أمام الغاب الأخضر الطالع على الشاطئ من حافة الماء.. ملأني شعور الغبطة لروعة المنظر، وقدرة المكان على إعطاء الحياة لهذه الألوان الصارخة القتامة.. الأخضر المحروق والبني المحروق والرمادي الكالح..

لكنني كنت أفتقد البحر..

سألت زارع النخيل عنه.. قال:

- مايبانش من هنا.. لازم تمشيله شوية ورا البلد..

- عايز أشوف المعدية نفسها.. البوغاز..

قال الرجل بطيبة:

- مافيش هناك حاجة تنشاف.. كوبري والمية من تحته فايتة على بعضها.. وكشك بتاع نقطة السواحل.. دلوقت ننزل البحيرة وتتفرج تمام..

كان يتكلم وهو يمشي أمامنا متجهًا ناحية الرجال.. وكان بعضهم قد تعرف عليه فنهض لاستقباله.. ووجدنا أنفسنا وسط مجموعة من الصيادين تصافحنا في حماس وترحب بنا..

قال العجوز:

- حدانا ضيوف يا رجالة.. عايزين يدخلوا البحيرة..

غمغم الرجال وهم يرحبون.. وذهب بعضهم لتجهيز القوارب..

وهمس أحدهم في أذن العجوز بشيء.. فبان القلق في عينيه العميقتين.. سألته:

- خير..؟

- بيسأل إذا كان فيه معاكو تصريح من غفر السواحل..

- لأ مافيش..

- أصل ممنوع حد ينزل البحيرة من غير تصريح..!

كان لابد للحصول على هذا التصريح من الذهاب إلى نقطة بوليس الساحل عند البوغاز.. وربما احتاج الأمر للذهاب إلى رئاسة المنطقة في الإسكندرية..

هو إجراء قانوني تجاهلناه دون علمٍ به.. وربما يضيع منا اليوم بسببه.. قلت للرجل أن معنا بطاقاتنا الصحفية والشخصية ولا خوف منا..

فأجاب:

- إن كان علينا مايهمش.. لكن غفر السواحل في لنشاتهم كتير جوه البحيرة.. يمكن حد منهم يقابلنا جوه، ونقع في س و ج..

- ولا يهمك يا حاج حانبقى نتصرف معاهم..

- على خيرة الله.. هو انتوا يعني حاتعملوا ايه جوه.. موش حاتتفرجوا عشان تكتبوا عن الصيادين وأحوالهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(8)

كانت الشمس قد استقرت فوق الرؤوس.. ورغم بوادر الشتاء كان الجو جافًا، فالهواء مفتوح على الصحراء والبحيرة والبحر، فهو يجيء محملًا بخلايا الشمس..

وكان الرجال قد أعدوا قاربين.. أنا والعجوز في قارب، وهبة وأحد الصيادين في القارب الآخر..

لم تكن لهذه القوارب الرفيعة مجاديف..

على مؤخرتها المدببة يقف رجل ثالث ممسكًا بقطعة طويلة مدببة من الخشب القوي.. يدفع بها إلى قاع البحيرة، فينساب القارب على صفحة الماء كأنه بلا وزن..

وقف باقي الرجال على الشط يلوحون لنا وأخذت العصي الرفيعة تضرب قاع الماء فتنزلق قواربنا داخل المجرى الرفيع بين أحراش الغاب..

من هذا الغاب صنع المصريون القدماء الذين عاشوا في أحراش النيل داخل الدلتا قواربهم، كانوا يجدلون الغاب ويضفرونه من مقدمته ومؤخرته على هذا الشكل المدبب الرفيع الذي يحملنا الآن.. لحظة بعد لحظة، أخذ المجرى المائي يتسع ويتسع، حتى وجدنا الغاب ينداح فجأة عن الجانبين.. وتطلع بنا القوارب إلى الفضاء الفسيح.. حيث يستقر الماء ويمتد إلى مسافة لا تدرك العين مداها..

ها نحن وجهًا لوجه أمام البحيرة، تمتد المياه أمامنا كأنها ساحة زجاجية لقباقيب الانزلاق، حتى يطبق عليها الأفق من جوانبها فيخيل إلينا أن الدنيا التي نعرفها تنتهي هناك..

هو ماء مسطح، متواضع العمق.. على التقريب متر واحد.. أو متر ونصف على أكثر تقدير.. يستطيع الرجل أن يخوضه حتى وسطه، وربما حتى رقبته.. لكن القاع خطر وغريب.. فهو مليء بالحجارة وجذور الغاب..

هنا تحت هذا الماء، تثوي في باطن القاع تماثيل الآلهة الفراعنة القدامى، ومباني مدينة النجوم.. وكل الحضارات القديمة التي قامت على هذه البقعة من الأرض قبل القرن السادس الميلادي.. حينما زلزت الأرض زلزالها على الشواطئ الشمالية لمصر، فانهارت المدن الساحلية وطغى عليها البحر وغطاها بهذه البحيرة وزميلاتها..

أردت أن أعرف من هؤلاء الناس الذين يعيشون على هذه البحيرة، كيف يتصورون نشأتها الأولى.. فسألت صاحبنا الصياد زارع النخيل.. قال لي:

- والله فيه حكايات كتير أجدادنا العجايز كانوا يحكوها.. بيقولوا مكانش هنا مية أبدا.. كانت الأرض كلها مزروعة عنب.. وكانت صاحبتها امرأة المقوقس ملك مصر أيام القبط.. وكانت كل ما تطلب إيجار الأرض من الفلاحين اللي بيزرعوها، يبعتولها عنب وتعمله خمرة.. وأحيانا كانوا يبعتولها خمرة.. قول الولية زهقت من حكاية الخمرة والعنب، وكانت عايزة فلوس.. والفلاحين معندهمش، راحت سايبة مية البحر على الأرض غرقتها وخلصت منها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت قد قرأت مثل هذه الحكاية لابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر.. يقول:

"الكثير من جهات ادكو الحالية، يطلق عليها الأهالي أسماء غريبة.. هناك مثلًا حقل قرقورة.. وقرقورة هذا كان ملكًا على مصر وحكمها ستين سنة بعد أبيه مرنيوس.. وهناك حقل المعصرة، ولا يوجد في ادكو شيء يعصر في الوقت الحالي.. ويبدو أن هذه البحيرة كانت كرومًا لامرأة المقوقس، فكانت تأخذ خراجها من الفلاحين بالخمر، فكثر الخمر عليها حتى ضاقت ذرعًا فقالت: لا حاجة لي في الخمر، اعطوني دنانير.. فقالوا ليس عندنا.. فأرسلت إليهم الماء فأغرقتها، فصارت بحيرة تصاد فيها الحيتان، حتى استخرجها الخلفاء من بني العباس فسدوا جسورها وزرعوها، حتى صارت بحيرة صغيرة طولها إقلاع يوم في عرض يوم ويصير إليها الماء من أشتوم في البحر الرومي»..

وفي 13 نوفمبر سنة 1798 نشر جون واليس في لندن خريطة، ليتابع الناس بها عمليات الحملة الفرنساوية على مصر.. وقد وضح في هامش هذه الخريطة عن بحيرة ادكو أنها بحيرة عظيمة ليس لها أي اتصال بالنيل من عهد البطالسة، وتتصل بالبحر بمضيق يسمى المعدية، ينفتح على خليج سمي خليج الحيتان!..

ولابد أن هذه الحيتان قد جاءت مع الماء من البحر حينما انخسفت الأرض في تلك المنطقة.. في ذلك الزمن القديم.. ثم هربت إلى البحر ثانيًا، حينما زحف الصيادون..

وقد وجدوا في قاع البحيرة، وفي بعض الجزر الأرضية المنثورة داخلها، أحجار المعاصر التي كانت الأعناب تتحول على صلابتها إلى خمر..

قال صاحبنا العجوز:

- وفيه حكاية تانية..

- حكاية ايه؟..

- حكاية عن منشأ البحيرة برضه.. بيقولوا كان فيه هنا ملك قديم اسمه بيصر.. وكان له ولد اسمه مياح.. لما مات بيصر.. اتولى مياح الملك بعده..

وكان فيه ملك تاني قريب اسمه غاور له بنت.. شاف صورتها الملك مياح حبها.. طلب يتجوزها لكن أبوها رفض عشان مخاصم الملك بيصر قبل ما يموت.. قول ان الحب اتمكن من قلب الواد مياح وأهمل أمور المملكة.. ورقد مريض.. حكما كتير وأطبا جم شافوه ولافيش فايدة.. الوزرا جمعوا السحرة والكهنة بتوع المملكة وقعدوا يتشاوروا.. لقوا ان مافيش علاج غير انهم يجيبوله حبيبته..

قعدوا عملوا سحر وتعاويذ وبقوا يستحضروله البنت من بلاد أبوها في المغرب.. ويرجعوها تاني بالسحر في الفجر..

واستمر الحال على دي المنوال شهرين تلاتة والواد والبنت غرقانين في الحب، لغاية الملك غاور ما عرف الحكاية.. اتغاظ.. فأعلن الحرب على بلاد الملك مياح.. وجه بجيوشه وصب الزيبق عند ساحل البحر فالأرض انهارت.. ومية البحر دخلت غرقت البلاد والجيوش، وعملت البحيرة دي.. والملك مياح هرب في حتة ورا ادكو.. تل عالي كده، الأهالي هنا بيسموه كوم مياح.. على اسم الملك ده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- عايزين يا حاج نتفرج على الفتحة المشهورة دي، اللي بتدور حواليها كل الحكايات..

- يوه.. ما قلتلك موش حاتشوف حاجة هناك غير كوبري ومية فايتة على بعضها من تحته..

قال الرجل الذي يصاحب هبة في قاربه:

- برضه لازم يروحوا هناك يا حاج، عشان يشوفوا الخواجة الهولاندي اللي بيصيد التعابين وقاطع رزقنا هناك..

قال الحاج:

- برضه واجب.. على العموم احنا جعنا.. يللا شوفولنا لقمة نآكلها.. ونلف في البحيرة شوية، وبعدين نطلع على البوغاز..

- نآكل ايه؟..

- نآكل سمك.. بقى نبقى ماشيين فوقه وهو بيلعب حوالينا كده ولا نآكلوش.. يللا يا ولاد ازعقوا كده حواليكم خلي الصيادين يبانوا، نآخدلنا منهم سمكتين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(9)

لم يكن يظهر لنا على صفحة البحيرة شيء، اللهم إلا أدغالًا من الغاب متفاوتة الأحجام.. منثورة هنا وهناك.. وأشباح بعيدة على صفحة الماء، تكاد تكون ملتحمة بالأفق، لصيادين على قواربهم الرفيعة، من المستحيل أن يمكننا تمييز ملامحهم.. ورغم هذا رأيت أحد الرجال في قافلتنا ينادي ببعض الأسماء.. مرسلًا صوته الممطوط في الفضاء الرحب فتستجيب له الأشباح المهتزة عند الأفق.. وتتحرك متجهة ناحيتنا..

فالصيادون قد دربوا آذانهم على التقاط نغمات الصوت والتمييز بينها.. ومن خلال حركة القارب أو طريقة الصيد يمكنهم التعرف على زملائهم..

القوارب لا تصنع صوتًا وهي تنزلق.. الرجل الواقف على مؤخرة القارب يدفع قاع البحيرة بعصاه، فيتحرك القارب مرتفعًا بمقدمته على سطح الماء..

وفي لحظات كانت قد تجمعت حولنا حلقة من هذه القوارب الرفيعة التي لا يتسع الواحد منها إلا لرجلين على أكثر تقدير.. ووقف الصيادون بوجوههم السمراء وسراويلهم الشرقية الواسعة يرحبون بنا.. وامتدت إلينا عشرات الأيدي بكميات من الأسماك التي تتلوى في قاع قواربهم وما تزال حية.. أسماك نابضة منتفضة من مختلف الأصناف.. نيلية وبحرية وسلالات أخرى بينهما، من كل نوع تحتويه البحيرة.. ورفضوا أن يأخذوا منا ثمنًا..

وكان الرجال قد ربطوا قاربنا بالقارب الآخر الذي يجلس فيه هبة.. وأخرج واحد منهم وابور جاز من خن القارب وأشعله.. ووضع فوقه قطعة مربعة من الصاج.. ووضع فوقها السمك..

كانت ساعة الغداء قد حلت، وقد فعلت معظم القوارب مثلنا.. وانتشرت في سماء البحيرة رائحة الشواء..

أروع غذاء ممكن أن تمنحه الطبيعة لأبنائها..

لقد دخلنا البحيرة ومعنا الخبز فقط.. وكان السمك في الماء..

عصر ذلك اليوم، والشمس تسحب وراءها أشعتها المبللة بالماء، بين أعواد الغاب الطالع على صفحة البحيرة.. كانت قواربنا قد تقاربت والتصقت وكونت حلقة، ونحن داخل هذه الحلقة متربعين في القوارب الرفيعة الضيقة.. نشوي السمك الحي ونأكله.. ونلقي إلى الماء بالفضلات..

وكان يحدث أن ينقصنا شيء ما.. رغيف خبز، أو بضع حبات من البصل والطماطم، أو قليل من الملح..

فيقف واحد من الرجال ويصيح داخل البحيرة على قارب يمر بعيدًا.. معاك ملح يا فلان؟.. معايا.. ويضرب الرجل قاع البحيرة بعصاه فينزلق القارب به، وفي بضع دقائق يحضر الملح ويجيء..

في الفجر يخرج الصياد من بيته مجهزًا بكل شيء.. الخبز والملح والشاي والسكر والجاز للوابور.. ويدخل البحيرة، فلا يعود منها إلا في الغروب.. وبعضهم يقضي الليل هناك.. ولهم في الصيد طرق متعددة..

قال الحاج:

- حانشوف الطرق كلها دلوقت واحنا ماشيين في البحيرة..

وكنا قد انتهينا من الطعام، ووضع الصيادون الشاي على النار وأشعلوا التمباك والمعسل وراحوا يدخنون..

ومن بعيد كان يأتينا غناء عارم يشكو الهجر واللوعة وتباريح الغرام.. ولم يكن واحد من الصيادين يغني.. بل كان راديو صوت العرب يشتغل بالبطارية، في قارب أحد الرجال، إحدى ظواهر التقدم وتحسن الحال..

وقد طفت على سطح البحيرة حولنا، قشور الأسماك المشوية وعظامها ورؤوسها، وبقايا الخبز والبصل.. فضلات طعامنا.. وقد صعدت من تحت الماء عشرات الأسماك الحية تناوش هذه البقايا وتجذبها نتفًا.. وتسارع بالاختفاء، ثم تعود.. ولعلها قد تعرفت فيها على قريباتها وصاحباتها من الأسماك التي افتقدتها منذ ساعات..!!

وفجأة رأيت سحابة كثيفة من الدخان تغطي الأفق، دخان كثيف، تضيئه من القلب نار حمراء.. وتتلوى ألسنته الداكنة على صفحة البحيرة، وهي تتصاعد داخلة في السماء..

ولم يكن أمامنا في هذا الفراغ الفسيح الذي يبدو لا نهائيًا، سوى الماء والنار.. ولم يكن يبدو على وجه الرجال الذين معنا أنهم لاحظوا شيئًا، أو اهتموا لشيء.. فبدأت أسأل..

وأجاب الرجال في هدوء:

- بيحرقوا الغاب!..

- ليه؟..

- أبدا.. فيه غاب بينشف من الشمس ويموت.. يقوموا يحرقوه، عشان يطلع بداله جديد..

- وهمه عايزين الجديد ليه؟..

- ياه.. فيه ناس كتير عايشة عليه.. يقطعوه ويبيعوه.. له تجار وأسواق.. لكن ده ممنوع.. شركة راكتا أصلها بتآخده تعمله ورق.. وغير كده أسباب تانية..

وراح الحاج يحكي لي..

بعض الناس يستأجرون بقعة من الغاب.. ويقيمون حولها شباكهم.. ويتركونها يومًا أو يومين.. ويكون داخل الغاب مليئًا بالسمك.. وحين ينوي الخروج تعوقه الشباك.. ويسقط فيها.. فيجيء الصيادون ويجمعونه..

لكن هناك ناس آخرون لا عمل لهم.. مجموعة من المطاريد أو المحكوم عليهم أو الهاربين من أحكام.. إنهم يتسللون ليلًا إلى هذا الغاب ويقيمون فيه.. ويسرقون السمك من الشباك.. وحينما تتكرر المسألة يجيء الصيادون والغيظ يملؤهم ويحرقون الغاب فيخرج المطاردون من داخله والنار تحاصرهم، وتدور على صفحة الماء معركة دامية..

إن للغاب أسواقًا هائلة يباع فيها.. للفلاحين الذين يستخدمونه في بناء أكواخهم بعد تغطيته بالجبس.. وللمقاولين الذين يصنعونه على هيئة حوائط مبرومة تبنى بها العشش للتصييف..

وأهم هذه الأسواق، في طنطا وكفر الشيخ ودسوق والمطرية، ويكثر الغاب في البرلس.. وادكو.. والمنزلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(10)

كنا ننزلق على البحيرة ونتابع الحريق.. وقد مد الحاج يده وأخرج من حافة الماء شبكة من السلك أشبه بالقمع.. وكانت مليئة بالسمك.. اسمها الجوبيا.. ينثرها الصيادون في أماكن متفرقة من البحيرة.. وعلى حوافي الغاب.. ويتركونها بضع ساعات.. فتمتلئ بالسمك الذي لا يستطيع الخروج..

قلت له:

- دي طريقة سهلة.. موش عايزة مجهود..

قال:

- فيه طريقة أسهل.. هنا في ادكو فيه ناس بتنزل من البر وتمشي برجليها جوه المية.. وتدوس جامد عشان تسيب حفرة مطرح رجليها في القاع.. تمد لجوه البحيرة شوية.. وبعدين ترجع تجمع السمك اللي يكون اتجمع جوه الحفر الصغيرة دي.. بايديهم!!..

وفجأة حدث ما كنا قد توقعناه..

جرى على سطح البحيرة صوت موتور، ثم ظهر في الأفق قارب بخاري مندفع ناحيتنا وقال الرجال:

- غفر السواحل جم..!

فقد رابهم ذلك التجمع.. فجاءوا وعثروا علينا.. فقدمنا لهم أنفسنا.. فطلبوا منا اصطحابهم إلى نقطة السواحل عند البوغاز.. فقدمنا شكرنا للرجال الذين صاحبونا وركبنا معهم هبة وأنا..

وانطلق بنا القارب البخاري يشق ماء البحيرة.. وأنا أتأمل هذا العالم الهادئ الساكن من العشب والماء، وما يجيش تحته من عوالم متباينة وغامضة.. وأتساءل: كيف يمكن أن يكون محتاجًا إلى قانون؟..

قال الشاويش:

- المخالفات في البحيرة كتير.. خد عندك مثلا.. بعض ناس تجيب حزمة غاب أو غصون شجر أو ذرة شامي.. وتزرعها في البحيرة وتسيبها ليلة وتآخدها تاني يوم يكون السمك الصغير الزريعة دخل فيها عشان يآكل.. يصطادوه من غير مجهود!..

والزريعة تأتي إلى البحيرة بطريقتين.. فجميع الأسماك تبحث عن المياه الضحلة الدافئة لتضع بيضها.. كل سمكة تضع بضعة ملايين من البيضات،

ليموت منها ما يموت، وتضمن أن بعضها سيبقى ليحفظ النوع.. وأسماك النيل تضع بيضها في الترع.. وفتحات المصارف.. فيسوقه الفيضان إلى البحيرة لينمو فيها ويكبر، ويعود إلى النيل إن استطاع.. وأسماك البحر، تدخل البحيرة عن طريق البوغاز.. وتضع بيضها هناك.. وحين ينمو البيض ويصبح سمكًا، يعود إلى البحر من جديد..

ومهمة رجال السواحل، الحفاظ على هذه الزريعة الصغيرة، لتنمو وتكبر.. فالسمكة الكبيرة خير من الصغيرة لا شك.. ولهذا يضعون القانون، ويحتمون أنواعًا من الشباك للصيد، تتيح الفرصة لهذه الأسماك الصغيرة أن تنفذ منها، وتعيش فترة أخرى حتى تكبر.. ويمكن صيدها في تلك الحال.. لكن بعض الناس لا يدركون هذا.. فلا تعنيهم أخلاق الصيد.. إنما يعنيهم إشباع حاجتهم العاجلة للطعام..

وأخذ الشاويش يفسر لي سبب ضيق الصيادين بالشركة الهولندية التي أخذت تصريحًا لصيد الثعابين من البحيرات.. إن هذه الشركة تقيم أقفاصًا من الشبكات الحديدية عند فتحات البحيرة على البحر.. فتمنع الثعابين من الخروج وتصيدها في هذه الأقفاص.. ولما كانت فتحات هذه الشبكة شديدة الضيق.. فهي تحجز فيما تحجزه، زريعة السمك التي نما عودها وكانت تنوي الخروج إلى البحر.. والصياد الذي يعرف عمله جيدًا.. يهمه أن تخرج هذه الزريعة إلى البحر.. لأنها ستعود إلى البحيرة بعد شهر أو اثنين كبيرة وضخمة وممتلئة، لتضع بيضها.. فيصيدها حينذاك..

كان القارب البخاري يمرق على الماء، فلمحنا الأرض تقترب.. خط ضيق واه كأنه نوع من الظلال..

ثم بدأت الأرض تظهر.. شريط رملي عليه بلدة المعدية التي أخذنا منها قواربنا الأولى..

ثم ظهرت لنا فتحة البوغاز.. والجسر الذي عبرناه داخل الأتوبيس..

ثم رأينا البحر ونحن داخل البحيرة..

كان الماء يخرج من البحيرة تحت الجسر ويدخل في البحر الذي يمتد فسيحًا إلى سواحل بلاد الشمال الإيطالية وغيرها.. حتى يمتزج بالبحر الأسود ويدخل فيه بالقرب من روسيا..

أي عالم ضيق متشابك ذلك العالم الذي نعيش فيه ويخيل أنه ممتد بلا نهاية.. إن كل الأشياء تذهب وتجيء وتشمخ ستتلاقى في الناهية، على صفحة هذه الكرة الدائرة في الفضاء.. المسماة بالأرض..

رحب بنا المسئولون في نقطة السواحل حينما تعرفوا إلى شخصياتنا..

ووقفنا على الجسر الذي أقامته الحضارة على طريق القوافل القديم الذي كانت تقطعه لقاءات البحر الحارة بالبحيرة الساكنة.. وكان الماء تحتنا متعدد الألوان حسب درجات الأعماق.. وكنت أتابع ببصري تلك الفتحة الواسعة تحت الجسر، وهي ممتدة داخل البحيرة..

إن الخرائط القديمة التي تركها الإغريق والرومان والبطالسة تقول أن هذه الفتحة كانت مصبًا لواحد من أهم فروع النيل العظيم.. التي اندثرت تحت وطأة الزلازل في القرن السادس.. الفرع الكانوبي..

هنا على مبعدة بضع أمتار من هذه الفتحة.. قامت على هذه الأرض مدينة كانوب القديمة.. التي سمي هذا الفرع باسمها..

كانت أشهر مدن العالم وأعظمها.. في الأول بدأت بالعبادة، فأقيمت فيها أشهر المعابد.. هرقليس خلال حروب طروادة، والزفيريوم.. الذي أقيم تكريمًا للملكة أرسينويه زوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس.. ومعبد أفروديت.. آلهة الحب والمتعة..

ومن هنا ولدت سمعتها السيئة في أنحاء العالم..

ففي عهد الرومان كانت شهرتها السيئة قد أصبحت مضرب الأمثال..

لقد وقف أكتافيوس يخطب في جنوده قبل معركة أكتيوم الشهيرة قائلًا: إن أنطونيو قد فقد كل صفاته الرومانية.. ولم يعد سوى لاعب على صاجات كانوب..

وقد هجا بروبرس الملكة كليوباترا قائلًا: إنها ملكة داعرة، على كانوب الفاجرة..

وقد كتب الحكيم سينيكا إلى لوسليوس يقول له: إن الرجل العاقل إذا شاء أن يختار مأوى، لا يذهب إلى كانوب..

ففي كانوب كانت العذارى يذهبن إلى ساحة معبد أفروديت ويجلسن عاريات.. ويمنحن أنفسهن لمن يطلبهن من الرجال، تقربًا للآلهة أفروديت!..

كانوب الشهيرة هذه.. لم يعد باقيًا منها الآن سوى بعض الحجارة الأثرية، بالقرب من حصن التوفيقية الواقع على ساحل البحر، بين أبو قير والمنتزه..

وهذه الفتحة على البحر، التي كان يصب فيها أعظم فرع من فروع النيل.. الفرع الكانوبي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(11)

وفي الزمن القديم كان للنيل فرع آخر يجري في تلك المنطقة إلى جوار فرع كانوب، حتى يصل إلى وادي النطرون.. ومن المرجح أن اندثار هذا الفرع قد خلف وراءه تلك البحيرة المسحورة «قارون» التي تجذب إليها 15 ألف سائح كل عام، يقدمون من أوروبا وأمريكا وبلاد الشرق، للفرجة على آثار قصر اللابيرنت العظيم.. ودمية السباع.. وكوم أوشيم.. وهرم الملك ميدوم.. في منطقة الفيوم..

إن أوراق البردي القديمة التي استخرجت من هذه المنطقة.. وتابوت الذهب الذي عثروا عليه في مقبرة الأميرة نفرو بتاح.. وكل النقوش التي احتفظت بألوانها القديمة الزاهية.. تحكي لنا مئات الحكايات، عن التاريخ العظيم للحضارة التي نشأت في هذه المنطقة من بلادنا..

ولعلنا نذكر تلك الحفريات الأثرية التي تم خلالها الكشف عن بعض العظام والجماجم البشرية، التي أعلن المكتشفون أنها تشير.. أن الإنسان الأول.. إنسان العصر الحجري.. قد بدأت سلالاته هنا.. في الفيوم..

مساحة البحيرة 55 ألف فدان.. وهي منبسطة على الصحراء، غير متصلة بالبحر.. تكاد تكون مغلقة.. ولهذا يسمونها بركة.. وتستمد ماءها من مياه الصرف التي تفيض عن الحقول..

ولكن الحكاية القديمة تقول أن قارون كان ملكًا بخيلًا.. يكتنز الذهب في تلك البقعة الغربية من صحراء الجنوب، وأن الذهب ظل يتكاثر لأن قارون البخيل يكتنزه ولا يسمح للشعب بأن ينفق منه.. وعندما اشتد الفقر بالشعب.. وحل الجدب بالمملكة، وجأر الناس بالشكوى من الجوع، تدخلت العناية الإلهية كما يحدث دائمًا في الحكايات القديمة.. وأغرقت المكان كله بالماء.. فتكونت هذه البحيرة الساحرة، التي احتوت الكنز في قلبها؟!..

وقد جن جنون قارون الملك خشية على ذهبه.. وأمر الجند أن يسوقوا شعب المملكة ويأمروهم بالغطس داخل البحيرة لإنقاذ الكنز.. وغطس الناس في البحيرة تحت حراسة الجند وطلعوا من الماء ومعهم أحمال هائلة من السمك.. من كل الأنواع.. البوري والبلطي وسمك موسى والطوبار والثعابين والبساريا، لكن أحدًا منهم لم يعثر على الكنز..

وقد مات قارون كمدًا..

لكن الناس لم ينقطعوا عن البحث عن كنزه.. وكلما غطسوا داخل البحيرة، طلعوا بأحمال من هذا السمك، بدلًا من الذهب..

ويومًا بعد يوم أدركوا جميعًا أن الكنز الذي يبحثون عنه لم يعد له وجود، فقد تحول إلى سمك.. أصبح السمك هو الكنز الحقيقي.. وبالتدريج بدأوا ينظمون العمل للاستفادة من هذا الكنز الجديد..

فاخترعوا لكل نوع من السمك وسائل للصيد..

سمكة الموسى مبططة، تسير على جانبها الحاد كسيف.. فاخترعوا لها طريقة المد.. إذ ينصب الصياد شباكه في الماء كأنها حاجز ملتو داخل البحيرة، أول الحاجز مثبت في قاع البحيرة بحجر أو قطعة من الرصاص.. وآخره مثبت بقارب الصيد.. ويتركون الغزل هكذا طيلة الليل وينامون في قاربهم.. وفي الصباح يجمعون الغزل وهو مليء بأسماك موسى التي سقطت فيه..

والبوري يصاد بنفس الطريقة.. مع فارق بسيط.. فسمك موسى يسقط في الشباك ليلًا.. أما البوري فيسقط فيها أثناء النهار..

وسمك موسى لا يتراجع عن الشباك عندما يلمسها بمقدمة رأسه، ولهذا يسقط فيها، أما البوري فيتراجع عن الشباك ويفلت منها بمجرد أن يلمسها.. ولهذا يضعون أمام الشباك حواجز من الغاب، يجد البوري متعة في أن يقفز فوقها وكأنها لعبة مسلية.. فيسقط في الشباك الخلفية دون أن يجد الفرصة للتراجع..

هي حرب شريفة بين السمك والصياد.. وكل منهما يتبع وسائله التي سلحته بها الطبيعة.. فالسمك ماكر الغريزة يشعر بالخطر ويتوجس منه.. ولهذا يستخدم الصياد ذكاءه لاستدراجه إلى الشباك..

هناك طريقة من الطرق مثلًا يمد الصياد شباكه داخل البحيرة في خطٍ مستقيم، ثم يذهب إلى بعيد ويطرق على صفيحة بقطعة من الخشب ليصنع أكبر ضجة ممكنة على سطح الماء.. ضجة تقلق السمك فيتدافع ناحية الشباك منزعجًا فيسقط فيها..

وقانون السواحل يمنع الصيد في البحيرة خلال شهري يونيو ويوليو.. ليعطي للأسماك فرصة كي تضع بيضها.. ويعطي لهذا البيض فرصة.. كي ينمو ويصبح أسماكًا..

لتستمر اللعبة..

ويستمر الكنز بنفس حجمه دون أن ينقص منه شيء.. رغم أن متوسط الصيد اليومي الناتج من البحيرة حوالي ثمانية أطنان.. يشترك في صيدها أربعة آلاف صياد..

يستخدمون خمسمائة مركب للصيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(12)

المنزلة هي أكبر البحيرات..

تبلغ مساحتها 578 ألف فدان.. تقترب من المالح في المنطقة بين بورسعيد ودمياط فلا يفصلها عنه سوى شريط رملي يتسع ويضيق حسب الأحوال.. ثم تمتد مستديرة داخل الدلتا، فيلمس محيطها الأرض في أربع محافظات كبرى.. هي بورسعيد، والشرقية، والدقهلية، ودمياط..

وتطبع هذه الأرض التي تلمسها بطابعها.. وتخلق فوقها بضع مئات من القرى، يتميز سكانها عن باقي سكان قرى المحافظة، بأنهم يعملون في الصيد.. وفي الزراعة في نفس الوقت..

عدد هائل من القرى الملحية الأرض، تفوق قدرتنا المتواضعة على الحصر والإحصاء.. تبدأ من قرية القابوطي في بورسعيد.. وتنتهي إلى غيط النصارى والشيخ شطا في دمياط..

ومن كل واحدة من هذه القرى، يمكنك أن تدخل البحيرة.. فالقرى عالية كأنها على تل.. والطرقات فيها ضيقة وملتوية تروح وتجيء داخل القرية، لكنها في النهاية تنحدر إلى البحيرة، وتصب فيها..

وكلما اقتربت من البحر ظهرت الرمال، وتضاءلت القرى، واختفت بيوت الطين.. وانداحت المسافات الشاسعة المغطاة بشباك الصيد الرمادية والسوداء والبنية اللون.. وظهرت بيوت الصيادين المقامة من الخشب..

أكواخ خشبية متلاصقة، على امتداد كيلو مترين أو أكثر لونها في الغالب كان أبيض.. وبعضها أزرق سماوي.. وأحيانًا، نرى عليها رسومًا.. نمر وأسد وجنية بحر، وسمك، وهودج على جمل، وكتابات كثيرة تعبر عن المرح والتشاؤم والتعاويذ..

وأمامها الساحة الرملية ممتدة إلى حافة الماء، حيث تتلاقى صواري قوارب الصيد.. وتتشابك وتتدلى من معظمها الشباك..

وقد اخترنا أن ندخل بحيرة المنزلة من قرية القابوطي في بورسعيد.. إحدى القرى من هذا النوع.. والتي تشكل مع قرينتها شطا بدمياط، حارس الباب.. لفتحتي البحيرة على البحر عند الديبة وأشتوم الجميل..

حيث يتداخل ماء البحيرة وماء البحر، ويختلطان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت بنا السيارة عبر شوارع القاهرة المزدحمة بالسيارات حتى خرجت إلى الأرض المنزرعة، ثم عبرت أطراف محافظة الشرقية إلى الإسماعيلية.. وبدأنا نسير بحذاء قناة السويس ووجهتنا بورسعيد..

من السيارة لا يمكننا رؤية القناة.. فإن كثبان الرمل تخفيها لكن صواري السفن ومداخنها التي تعبر القناة، كانت طوال الوقت تتحرك على سطح الرمل إلى جوارنا، معلنة عن وجود القناة..

وبالقرب من القنطرة بدأت تظهر لنا مستنقعات الملح وتلاله البيضاء..

ثم بدأت رائحة البحر تهب علينا..

وكانت الأرض حولنا ساذجة وشديدة البراءة..

كأنها بكر لم تمسسها يد!..

فلم تكن تنبىء عن آلاف الرجال الذين تساقطت عظامهم وهم يشقون فيها هذه القناة.. في مصر الخديوية..

ولم تكن تنبىء عن آلاف الرجال الآخرين الذين ابتلعتهم وهم يحفرون فيها القناة الأولى القديمة، قناة تراجان، أو قناة سيتي الأول في مصر الفرعونية..

تلك التي كانت تبدأ من الفرع البيلوزي للنيل.. وتصب في البحر الأحمر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بورسعيد ركبنا الأتوبيس الداخلي إلى القابوطي.. تحرك بنا من شارع الشهداء، وعبر سوق السمك وحي العرب والزحام والضجة.. وبعد ثلث ساعة أشرف بنا على الأكشاك الخشبية التي تمثل قرية القابوطي..

كانت القوارب المبططة المخروطية الشكل، ممدة على الشط تستريح.. والصيادون يرتقون شباكهم.. والأطفال يلعبون..

أطفال كثيرون لا حصر لهم.. يناقضون تمامًا تلك التقارير الطبية العليمة ببواطن الأمور، والتي تقول أن سكان هذه المناطق مصابون بأمراض الروماتيزم والعجز الجنسي.. نتيجة عملهم داخل البرد والماء..!

وكانت فكرتنا أن نأخذ قاربًا من القرية يطوف بنا داخل البحيرة.. حتى يصل بنا إلى دمياط..

قال لنا الصيادون:

- موش ممكن يا افندية.. ده انتوا توصلوا في أربع تيام!..

وأحسسنا أننا فعلًا، مجرد أفندية.. ننتمي إلى جنسٍ آخر غير جنس هؤلاء الناس!..

- ما تآخدوا اللنش..

- لنش ايه؟..

- اللنش اللي بيعدي البحيرة بين بورسعيد ودمياط.. وبيقف في السكة ع المطرية والمنزلة.. وتوصلوا دمياط بالليل..

- والله فكرة.. هو فين؟..

- تركبوه من عند الجمرك.. غادي كده!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(13)

اضطررنا للمبيت في بورسعيد.. لأن اللنش لا يتحرك قبل الساعة الثامنة من الصباح..

المرسى الذي يتحرك منه اللنش، مجرد رصيف متواضع.. واللنش نفسه قديم وضيق يتسع لأربعين راكبًا.. لكن غالبًا ما يركب أكثر من ثمانين..؟!

إنه وسيلة المواصلات الوحيدة المهمة، التي يستعملها سكان القرى الرئيسية على البحيرة، للاتصال بدمياط أو بورسعيد.. فالأتوبيس يضيق بأحمالهم من الخبز والسمك والخضروات والحلوى، وبضائع المدن التي ينقلونها إلى قراهم..

وقد كان اللنش مزدحمًا.. ورغم أننا كنا في الدرجة الأولى التي تتسع لسبعة ركاب، إلا أننا أحسسنا اننا مسجونون داخل علبة خشبية تصدر عنها ضجة ميكانيكية رتيبة لا تنقطع، هي صوت الآلات..

بينما تعلو ضجة الركاب وهم يتبادلون الأحاديث والفكاهات.. وبائع الشاي والجنزبيل يتحرك بينهم، ويصيح مناديًا على الطلبات، وباعة الصميت والسوداني والحلوى الرخيصة..

كأننا في سوق..

فغادرنا الدرجة الأولى إلى سطح اللنش..

ما كدنا نصعد إلى السطح، حتى لاحت لنا بورسعيد وهي تبتعد إلى الوراء، واللنش يغادرها داخلًا قلب البحيرة..

مجرد خط.. أصفر باهت..

وانفتح أمامنا المدى الفسيح.. الماء اللانهائي..

وأصبحنا وجهًا لوجه أمام البحيرة العجوز الشديدة القدم.. التي تخفي في باطنها كمًا هائلًا من الحضارات والمدن وآثار الرجال العظماء.. تذكرنا به تلك الجزر الضحلة المعشوشبة التي كانت تبدو طافية على سطح الماء تعترض سيرنا..

هذه هي سايس أو صاو.. قاعدة مصر في عهد الأسرتين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين عاصمة ابسماتيك الأول.. لم يبق من فنونها وحضارتها سوى أنقاض مهملة في «صا الحجر» وبقيتها غارق في البحيرة..

وتلك هي تانيس، التي ولد فيها رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، تطفو بما بقي منها فوق الماء بالقرب من فاقوس شرقية، فيفزع الصيادون لما يشاهدونه من تماثيل.. يقولون عنها ببراءتهم انها أسلافهم من الكفرة الذين سكنوا هذه الأماكن في الزمن القديم.. وقد سخطهم الله!..

تك تك تك تك تك تك تك تك..

مضى وقت طويل ونحن لا نسمع سوى هذا الصوت الرتيب الميكانيكي، حتى تعودناه ولم نعد نشعر به..

إنه صوت الآلة.. لكننا لم نكن نرى الآلة..

كنا فوق سطحها وعيوننا مشدودة إلى ذلك الماء الأزرق الفسيح الذي تسير عليه..

الممتد كأنما لا نهاية له..

ولم يكن الماء جامدًا أصم دون ملامح، كماء البحار والمحيطات.. بل كان ماء بسيطًا نابضًا جياشًا، يكتنفه ضوء النهار الجديد وتتساقط الشمس فوقه وتختفي داخل أحراش الغاب الكثيفة والضحلة، المنبثقة من هنا وهناك.. وتتحرك في قلبه ملايين الملايين من أسماك البوري والغطيان والدنيس والشبار والهليلي والقاروص والكابوريا..

وفي السماء الخالية من السحب فوقه، تروح وتجيء طيور الماء الطويلة المنقار والعنق، البيضاء اللون..

وفجأة، ينحدر بعضها ويسقط منقاره في الماء فيخطف واحدة من هذه الأسماك، ثم يعود بها محلقًا في سمائه..

ولم يكن الماء عميقًا.. ولهذا السبب كانت الآلة تسير ببطء.. وبين الحين والحين تنحرف قليلًا إلى اليمين أو إلى اليسار، كأنها تتفادى شيئًا لا نراه..

وقد لاحظنا على مدى سيرنا أخشابًا مغروسة في البحيرة، وبراميل طافية.. كأنها علامات..

وبالرغم من أن المسافة بين بورسعيد والمطرية، لا تزيد عن ثمانية وعشرين كيلو مترًا، فقد مضت علينا في هذه الآلة الخشبية القديمة، ساعتان.. دون أن تلوح لنا المطرية في الأفق..

كان سطح الآلة مزدحمًا هو الآخر، أقفاص وبراميل وقفف فيها ماء وأسماك ودقيق وبضائع وأدوات.. وأصحابها قد ناموا إلى جوارها، كأنما قد أغراهم بالنوم سطح الآلة الخشبي النظيف الجاف، وشمس البحيرة الحنون، وماؤها

الأليف، وذلك الصوت الميكانيكي الرتيب الفج، بينما هم في الحقيقة قد ناموا، لأنهم يدركون بكثرة المعاشرة، الوقت الحقيقي الذي تحتاجه آلتهم الطيبة، لتنقلهم إلى بلادهم..

بينما أصابتنا نحن الدهشة.. فغادرنا السطح إلى قلب الآلة نتفقده..

كانت النساء في ملاءاتهن السوداء قد ملأن جانبًا كبيرًا داخل اللنش، كأنهن كورس في مأساة إغريقية، وكان الجميع يثرثرن، بينما سائق اللنش قد أعطاهن ظهره، ويداه ممسكتان بعجلة القيادة باهتمامٍ بالغ، كأنما يقود غواصة في معركة بحرية.. وحينما بادرناه بالكلام طلب لنا الشاي، وفتح لنا عالمه المغلق..

إن الطريق الذي يسير فيه مرسوم له.. فالبحيرة ضحلة، وقد حفرت الحكومة في داخلها قناة، ليسير فيها اللنش أثناء رحلته، فلو خرج منها لانغرس قاعه في طمي البحيرة وتوقف، وأصبح أضحوكة لمراكب الصيادين البيضاء المسطحة، التي تشبه كثيرًا طيور الماء..

وبين الحين والحين تجيء الكراكات وتطمئن على عمق هذه القناة وتنظفها من الرواسب.. ويطمئن العمال إلى أن الماء لم يبتعد بالعلامات عن مواضعها.. لكن هذا كله لا يمنع.. ويجب على السائق أن يأخذ حذره.. عليه ضمانًا لسلامته وسلامة لنشه وركابه، أن يقطع المسافة بين بورسعيد والمطرية – التي لا تزيد عن ثمانية وعشرين كيلو متر – في ثلاث ساعات ونصف، أو أربع ساعات..

وكانت قد بقيت بيننا وبين المطرية ساعة ونصف وربما ساعتان..

فصعدنا إلى سطح اللنش، لنتفرج على مجموعة الجزر التي نمر بها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في إحدى هذه الجزر تم العثور على مقبرة ضخمة للملكة مرت نيت (محبوبة الإله نيت) معبودة "صا الحجر" وهي زوجة "ودمو" من ملوك الأسرة الأولى..

من هذا المكان الذي نقف فيه الآن على آلة خشبية تتحرك فوق الماء، قام "سمنديس" من تانيس في عهد رمسيس الثاني عشر، وعين نفسه ملكًا على الدلتا، وفصلها عن الوجه القبلي.. وأسس الأسرة الحادية والعشرين.. ثم استطاع بعد وقتٍ قليل أن يضم الصعيد إلى الدلتا ويحكمهما معًا..

لقد كانت هذه المنطقة حافلة بالمدن العامرة التي لم يزل بعضها يحمل الاسم الفرعوني القديم بعد أن تناولته الأجيال المتعاقبة بالتحريف.. هذه البلمون بمركز شربين، هي نفسها "برآمون" القديمة.. و"ثيرة" بمركز طلخا.. كانت ثار.. وفي أقسام مصر الجغرافية للأستاذ سليم حسن عالم الآثار، يقول

أن هناك مقاطعات فرعونية قديمة لم تزل آثار البعض من بلادها باقية، كالمقاطعة الثانية التي كانت تشمل جزءًا كبيرًا من بحيرة المنزلة الحالية.. ومن مدنها "تنيس"، وكانت تسمى "ثنى"..

ما أبسط أن تنظر إلى واحدة من هذه الجزر التي يعبر بها اللنش وتقول:

كانت هنا في الزمن القديم مدينة..

هذه "تنيس" مثلًا.. مجرد جزيرة يملؤها الغاب ويسرح فيها الجاموس، ويعيش فيها أقوام من الأعراب، يزرعون قليلًا.. ويرعون الجاموس كثيرًا.. وبين هذا وذاك يتسللون في قواربهم ويسرقون شباك الصيادين المليئة بالسمك..

هذه الجزيرة الضحلة الفقيرة المظهر، كيف نستطيع ببساطة أن نقول: كانت هنا في الزمن القديم مدينة.. حين نمر بها؟!..

لقد كان المصريون الأوائل يسمون المدينة "نوت".. وكانت تتكون من مبانٍ كثيرة بيضاء.. فيها مخازن عظيمة الحجم للغلال والحبوب ونبات الأرض.. ومخازن أخرى لآلات الحرث والزرع والحصاد.. وحظائر للماشية.. ومصانع لأصحاب الحرف والصناعات.. وحوانيت للتجارة حول ميدان عام، أشبه بالسوق.. وعيادة طبيب أو اثنين..

وفي المدينة كان يشيد مبنى عظيم شامخ الجدران يشرف على ما حوله، ذلك هو قصر الإله، أو ما يسمى بالمعبد.. ويشغل داخله الرحب المخازن المقدسة ومساكن رجال الدين..

وهناك قصر فسيح آخر، مرتفع عن بيوت عامة الناس.. هو قصر فرعون.. أو حاكم المدينة..

ثم بيوت الموظفين..

ومعسكرات الجيش..

أين هذا كله من تلك الحياة الفطرية وسط ذلك المرعى الكبير للجاموس؟..

أين "تنيس" التي نراها الآن في هذه الجزيرة الطافية، من تلك الأخرى القديمة التي يقول عنها ابن وصيف شاه: «وملكت بعد "أتريب" ابنته، فدبرت الملك وساسته خمسًا وثلاثين سنة ثم ماتت، فقام بالملك من بعدها ابن أختها "قليمون" الملك.. فرد الوزراء إلى مراتبهم وأقام الكهان على مواضعهم، وجد في العمارة، وطلب الحكمة.. وفي أيامه بنيت "تنيس" التي أغرقها البحر وكان بينها وبينه شيء كثير.. وكان حولها الزرع والشجر والكروم وقرى كثيرة ومعاصر للخمر، وعمارة لم يكن أحسن منها.. فأمر الملك أن يبني له في

وسطها مجالس وينصب عليها قباب وتزين بأحسن الزينة والنقوش، وكان إذا بدأ النيل يجري وعم الفيضان، انتقل إليها فأقام بها إلى عيد النيروز ورجع”..

وقد ملك “قليمون” تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووسًا (قبرًا) في الجانب الشرقي، حول إليه الأموال والجواهر وسائر الذخائر، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب، من آتى قاصدًا شرًا حطمته، وكتب عليه “هذا قبر قليمون بن أتريب بن قبطيه بن مصرايم.. عمر دهرًا وأتاه الموت فما استطاع له دفعًا.. فمن وصل إليه فلا يسلب ما عليه، ولا يأخذ ما بين يديه”..

يقول “السيوطي” الذي كتب في القرن السادس عشر عن هذه المدينة: «كانت تنيس من العظمة بحيث أنه ألف كتابًا في مجلدين، يضم أخبار قضاتها وولاتها وسراتها.. ومنسوجاتها الفاخرة الدقيقة الصنع، التي تتخاطفها البلدان»..

لقد قام العلماء بحفائر في الوجه البحري في جميع الأزمنة، بحماسة أقل مما فعلوا في سائر وادي النيل والصعيد.. ربما لأن الأبحاث في الدلتا تتكلف أكثر، وتحتاج جهودًا أكبر.. فالمدن والمعابد التي خربتها الغزوات المتتابعة والتي تحملت الدلتا دائمًا أهوالها الأولى، شهدت تعاقب الدهور وتوالي الأزمنة، وأخذ طمي النهر يغطي أحجارها القديمة حتى طمسها..

غير أن هذه الأنقاض القديمة العظيمة ما تزال مدفونة في قلب الطبقة الأرضية الطينية للدلتا.. التي نزرعها الآن ونصيد منها الأسماك، وننشيء فوقها البيوت والمصانع والمدارس.. تنتظر اللحظة التي يتم فيها الكشف عن كنوزها التاريخية..

ونرجو ألا يطول بها وبنا الانتظار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(14)

ها هي المطرية تلوح لنا عند الأفق.. كأنها مدينة من الورق المقوى عائمة فوق الماء..

بدأ النائمون يستيقظون داخل اللنش، وتحركت القفف والبراميل وبدأت المراكب تتكاثف ويكثر عددها كلما اقتربنا من المطرية.. ثم بدأ الشاطئ يظهر مزدحمًا بأشرعة المراكب والصواري.. وكلما اقتربنا أكثر.. لمحنا العلامة الرئيسية الشديدة الوضوح.. التي تكشف لنا عن الخبايا النفسية لأهالي المنطقة التي نقترب منها.. فبالإضافة إلى كثرة المراكب التي تحدد أن عملهم الرئيسي هو الصيد.. فقد كانت أكثر من ثلاثين مئذنة ترتفع شامخة من قلب هذه البلدة الصغيرة.. لتؤكد أن الله شديد الوجود في قلوب هؤلاء الصيادين..

إنهم يخرجون إلى البحيرة وإلى البحر.. إلى المجهول ينتظرون المجهول..

ولو لم يكن الله معهم لما استطاع أحدهم البقاء داخل الماء لحظة واحدة.. ولهذا فإن أكثر من ثلاثين مئذنة ترتفع من هذه البلدة الصغيرة..

وقد أخذ اللنش يقترب من المرسى الخشبي المتواضع للمطرية كأنه معدية، وعلى المرسى وقف الرجال السمر الوجوه المعقوفو الأنوف.. الشديدو الصلابة في سراويلهم الفضفاضة.. ينتظرون أن يفرغ اللنش من ركاب المطرية، ليركبوه إلى المنزلة..

المنزلة على بعد ساعة أو ساعة ونصف بهذه الآلة الخشبية.. داخل البحيرة أيضًا..

هي بلاد عزيزة ما يكاد القارئ المعاصر يسمع اسمها حتى يتذكر ما حدث عام 1956، ذلك العدوان الغاشم على بورسعيد الذي قامت خلاله هذه البحيرة العظيمة بالدور الفدائي الرائع..

لقد أغلق المعتدون البحيرة.. وأقاموا عليها تحصيناتهم الرئيسية ومدافعهم.. غير أن ذلك لم يمنع أهالي المطرية والمنزلة من التسرب بقواربهم إلى بورسعيد، يحملون صناديق وقففًا مليئة بالسمك ما تكاد تدخل بورسعيد حتى تتحول إلى مدافع وبنادق ومسدسات..

إنهم هم أنفسهم سكان هذه المناطق، المطرية والمنزلة وشواطئ البحيرة، وهم أنفسهم أحفاد الرجال القدامى الذين أزعجوا نابليون وأقلقوا راحته فظل يذكرهم وهو في منفاه بإحدى الجزر المتوحدة بالبحر الأبيض، فكتب يقول:

“خلال المعارك التي خضتها في أوروبا وغيرها، كان من المحتمل أن يثور الأهالي في إحدى القرى أو المدن التي أحتلها.. ويحدثون مقاومة تعطل الجيش.. وقد حدث هذا أكثر من مرة.. لكنني لن أنسى أبدًا تلك المقاومة التي أبدتها بلدة شمالية في ساحل مصر، يسميها أهلها المنزلة»..

وقد وصفهم المؤرخ الفرنسي هانوتو الذي صاحب الحملة الفرنسية بقوله:

“في شرق الدلتا حول شواطئ بحيرة المنزلة، سكان أشداء من صيادي الأسماك والحيوان.. أقوياء ذوو عزم، وقد لوحت الشمس بشرتهم ولهم لحي سوداء خشنة.. وقد هال منظرهم جنود نابليون فقالوا فيهم: إذا أتيناهم محاربين فإن صيحاتهم كانت تخيفنا.. فنلقي بأنفسنا في الماء»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(15)

في روسيا وأوروبا أنواع من الطيور المائية، يحتاج بيضها إلى جوٍ دافئ يفقس فيه.. دافئ جاف..

وقد ظلت تلك الفئة من الطيور تصارع الثلج والبرد الذي يهددها بالانقراض في موطنها الأصلي فمضت تضرب بأجنحتها في الفضاء الكبير الذي يحتضن الأرض والبحار.. باحثة عن هذا المكان الدافئ الجاف لبيضها..

ولابد أن وقتًا طويلًا قد استنفد من هذه الطيور أجيالًا بعد أجيال، حتى اهتدت أخيرًا إلى أن الساحل الشمالي لمصر، والبحيرات الفضية الرمادية الزرقاء، والمترامية وراءه.. هي هذا المكان الذي تبحث عنه..

وقد تطاول بعضها وامتد بطيرانه مع نهر النيل، محلقًا معه من المصب إلى السودان.. فاكتشف في الجزر التي يصنعها النيل في جريانه نوعًا من النبات لا يزرعه أحد، اسمه حب العزيز.. فاستطابت الطيور أكله..

ومذ ذلك الزمن القديم.. وهذه الفئة من الطيور تقوم برحلة سنوية تهاجر فيها من مواطنها إلى سواحلنا لتقيم بضعة شهور، تنعم بالدفء وتفقس بيضها.. وتأكل السمك وحب العزيز.. ولا مانع من الشعير.. ثم تعود..

ولا تجيء هذه الطيور فجأة.. فلابد لها من ميعاد، ولابد لرحلتها من مرشد..

فكل من يذهب في هذه الرحلة، ليس بالضرورة سيعود منها، فهناك مخاطر الرحلة، والصيادون في الطريق.. ومن يعود من الرحلة سالمًا في نهاية العام لن يضمن أنه قد يبقى حيًا للعام القادم، ليقود الأسراب في ميعاد الهجرة، ولكن الطيور في نهاية الأمر لا تعدم خمسين طائرًا أو مائة، امتد بها العمر فذهبت وجاءت مرتين.. وتعرف الطريق جيدًا.. فترسل بعضها في بعثةٍ للاستطلاع.. وتبقي البعض ليقود الأسراب خلف البعثة بيومٍ أو يومين.. ويتصل بالبعثة والأسراب طوال الطريق..

وفي أكتوبر من كل عام، تنطلق الطلائع في سماء أوروبا الوسطى وجنوب أوروبا وسيبيريا..

طيور ملونة براقة مختالة الزينة، أسماؤها تدل عليها.. الغر، والشرشير، والكيش، والحمراوي، والزرقان.. والبلبول، والبلاشونة، تنتمي من بعيد إلى فصيلة البط.. كأنما الطبيعة كانت تتجمل حينما رسمت لها ألوانها.. فقد تكون الواحدة بيضاء كلها.. لكن منقارها وأقدامها الصغيرة برتقالية، وحول رقبتها الطويلة شريط نحيف أخضر، وقد تكون سوداء، شديدة السواد، لكن منقارها

فقط هو الأحمر الناصع.. وقد تكون خليطًا من هذه الألوان كلها، كأنها كانت تلعب وغمست رأسها وجناحيها في الألوان..

يبللها الندى وهي تخترق السماء الضبابية إلى روسيا، ثم تنحدر في جماعات وأسراب عبر البحر الأسود، قاطعة في طيرانها طريقًا دائرية، حدها الشمالي هو الحد الجنوبي للمحيط المتجمد الشمالي.. وحدها الجنوبي خط عرض 50 شمالي خط الاستواء..

حتى تصل إلى ساحل البحر الأبيض الذي يحتضن بلادنا في أقصى الشمال.. فتنتشر في جماعات تمرح في دفء بحيراتنا ادكو والبرلس والمنزلة.. وتتسرب منها إلى برك الفيوم، ودهشور والسنانية.. وتلعب في جزر النيل وتأكل حب العزيز، في طريقها إلى السودان..

الطلائع تصل إلى شواطئنا في نوفمبر.. وبعدها تتوالى الأسراب..

تلك الشهور من السنة بالنسبة لسكان هذه السواحل هي شهور انقلاب الريح وظهور النوات في السماء والماء..

وسكان هذه السواحل صيادون.. والسمك في تلك الشهور يختبيء ويقل..

هي شهور نمو الزريعة الصغيرة.. يأخذها الصياد إجازة إجبارية من الطبيعة..

وبعضهم يدخر للإجازة ما يقتات به ويستريح.. وبعضهم يترك السمك ويبحث عن صيدٍ جديد..

فيجدون في هذه الطيور المهاجرة صيدهم الوفير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اللنش الذي يحملنا داخل البحيرة من بورسعيد قد أفرغ بعض ركابه في المطرية.. وحمل منها ركابًا جددًا إلى المنزلة.. ولم يكن الوقت قد سمح لنا بالنزول في المنزلة، بلدة حسن طوبار، التي ولدت منها المقاومة الشعبية لشمال الدلتا، ضد جيوش الحملة الفرنسية ونابليون..

وعادت الآلة الميكانيكية البطيئة، تحملنا في طريقها المرسوم بالعلامات داخل بحيرة المنزلة.. وعبرت بنا جزر الغاب تحت سماءٍ تحلق فيها أسراب من هذه الطيور المهاجرة..

حتى اقتربنا من مدخل البحيرة على مشارف دمياط..

وعبرنا قرية اسمها «شطا».. فيها ضريح تحج إليه النساء للتبرك وطلب الحمل والدعاء للأزواج أو عليهم!..

يقال إنه ولي من أولياء الله وله معجزات..

ولكن المعلومات التاريخية الموجودة في الكتب تقول إنه كان قائدًا مسيحيًا وانضم إلى جيوش المسلمين في الفتح العربي لدمياط وحارب معهم.. وقد مات في هذه الحرب على دين الإسلام.. فدفنوه هناك في قبرٍ يليق به..

فأصبح هذا القبر على مر الزمن ضريحًا تتوسل إليه النساء!..

حول هذه القرية وما وراءها تصنع البحيرة العظيمة عددًا من البرك على الأطراف الخلفية لدمياط.. تسكنها الطيور المهاجرة والصيادون..

وقد وصلت بنا الآلة البطيئة حتى نهاية رحلتها.. عند جمرك غيط النصارى..

رصيف آخر شديد الخشونة والفقر، شبيه بشقيقه الذي رحلنا عليه من بورسعيد.. لكنه يختلف عنه بأن الزمن يحمل له تاريخًا حافلًا..

هو نفسه ذلك الميناء القديم الذي كانت السفن التجارية تستريح فيه قادمة ببضائعها من البحر الأبيض عبر النيل.. وبعدها تخترق بحيرة المنزلة إلى أورشليم وما فوقها، بعد أن تستبدل تجارة بتجارة..

لكن.. من ذا الذي يستطيع أن يصدق أن ذلك الرصيف الفقير الذي تنتهي عنده رحلة آلتنا البطيئة.. هو نفسه ميناء تانيس العظيم القديم..

لم يترك الزمن علامة واحدة في المكان تدل على هذا التاريخ.. اللهم إلا ماء البحيرة نفسه، وإن يكن قاعها الآن قد امتلأ بالطمي والرمال.. فلم يعد يستطيع أن يحمل فوقه سوى هذا النوع المتواضع من القوارب المسطحة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت السماء قد اصطبغت بدماء الشمس الغاربة، وبدأ الصيادون يحملون بنادقهم وشباكهم ويرحلون إلى أطراف البرك استعدادًا للصيد.. فاتفقنا ورحلنا معهم لنشاهد أشهر الطرق التي يصيدون بها هذه الطيور.. طريقة العلفة.. وتعتمد هذه الطريقة على جزءٍ من الطمي عند حافة البحيرة أو البركة، تخلط به حبوب الشعير والدنيبة خلطًا جيدًا بالطين.. هذه هي العلفة.. وتنصب بجوارها الشباك على الشط بشكل مقلب.. ويمتد من هذا المقلب «حبل الجذب» حوالي ثلاثمائة متر تحت الريح، إلى «لبدة» أو «قعدة» من القش والحطب، مخبأة وسط العشب على أطراف الماء يقبع بها الصياد ويده قابضة على حبل الجذب، في انتظار مجيء الطيور إلى هذا الفخ الذي نصبه لها..

- ولكن.. كيف تجيء الطيور؟..

- من العلفة التي أعدها الصياد على الشط تحت المقلب.. ينثر على سطح الماء كمية من الشعير في خط طولي يمتد داخل البركة أو البحيرة.. بعيدًا عن

الشباك.. هذا الخط الطولي من حبوب الشعير الأصفر.. يلمع على صفحة الماء فيجذب أسراب الطيور إليه.. هي طيور تنام النهار وتتحرك بالليل وفي الساعة التاسعة من المساء تقريبًا.. تحط الطيور في مجموعات فوق هذا الخط من الحبوب حتى تلتهمه في دقائق دون أن يصدر عنها صوت.. فيقودها إلى العلفة..

هناك تنتظرها الحبوب المخلوطة بالطين.. لكن الطين ليس مشكلة بالنسبة لهذه الطيور.. فالطائر يلتهم الطين المخلوط بالحب.. وتتم داخل منقاره المسطح عملية الفصل بينهما.. فيسيل الطين على جانبي المنقار، بينما تنحدر الحبوب إلى حويصلة الطائر..

وتصدر عن هذه العملية، بقبقة يسمعها الصياد وهو في ملبده على تلك المسافة البعيدة تحت الريح، فيستطيع بخبرته أن يحدد كمية الطير الذي يأكل من العلفة، وكم منها قد دخل منطقة الفخ، وكم منها لم يدخل بعد..

إنه يتوتر حينما يسمع هذا الصوت ينقنق في صمت الليل.. وتشتد قبضته على حبل الجذب وينتبه وتدور في عقله لغة الصيد وحسباته.. وفي الوقت المناسب يجذب الحبل الذي في يده، فترتفع شباك المقلب وتطبق على الطير في لمحة خاطفة.. لا يملك معها الإفلات..

هي طريقة بدائية.. تستخدم في الصيد التجاري فقط، للحصول على طيور حية صالحة للبيع..

وأندية الصيد الدولية، التي تضم صيادين هواة.. تحارب هذه الطريقة وتندد بها لأنها تتعارض مع شرف الصياد..

- وما هو شرف الصياد؟..

- أن يواجه صيده وجهًا لوجه، دون أن يخدعه..

وطريقة العلفة تعتمد على الغدر بالطائر المسكين..

فالصياد يخدعه، إذ يسحبه إلى العلفة بهذا الخط من الحبوب الذي يلقيه على صفحة البحيرة..

ويخدعه مرة ثانية.. إذ يختفي على بعد ثلاثمائة متر من الفخ الذي أعده له..

ويخدعه مرة ثالثة، إذ يجرده من سلاحه الغريزي – وهو الإحساس برائحة الصياد – فيقبع له تحت الريح..

وسلاح الطائر الغريزي هو قدرته على الإحساس برائحة الشهوة!..

ففي هدوء الليل، وخلال مساحة 60 فدانًا من المياه الضحلة والعشب القصير، ينكب الطائر على التقاط الحب.. وعندما تحمل الريح رائحة إنسانٍ ما إلى خياشيمه، فباستطاعته أن يميز كنه هذا الإنسان.. فإن كان طفلًا لم يبلغ الرشد بعد مضى الطائر في طعامه.. وكذلك يفعل عندما تكون الرائحة لامرأة، لكن الريح ما تكاد تحمل إلى أنفه رائحة رجل.. حتى تهب أسرابه فزعة عن سطح الماء، وتنطلق في السماء المظلمة، محترقة الفؤاد من الرعب.. فمن الذكر الإنساني تفوح رائحة النهم والشهوة التي خبرتها مئات الأجيال من هذه الطيور المهاجرة التي لا يعود منها خلال هذه الرحلة السنوية، إلا أقل القليل..

وقد أدرك الصياد باحتكاكه المتواصل رعب الطيور الغريزي من رائحته، فتعود أن يختبيء منها تحت الريح..

وكثيرًا ما استغل الصيادون هذا السلاح الغريزي الذي تملكه الطيور.. في الانتقام من بعضهم البعض، فحينما يكون للواحد منهم عند الآخر ثأرًا، يعمد إلى المرور فوق الريح ليفسد عليه علفته ويفزع طيورها..

وكثيرًا ما يرد الواحد الآخر على هذا الفعل بقتل الرجل الذي عرض رائحته على الطير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك طريقة أخرى اسمها الحجرة.. تمثل تقاليد الصيد وشرفه.. كما يعرفها نادي الصيد.. إذ يقف الصياد والطائر وجهًا لوجه، الصياد ببندقية والطائر بجناحيه..

ولكن..

حتى هذه الطريقة المعترف بها لا تخلو من خداعٍ للطائر المسكين..

فالحجرة عبارة عن مساحة شاسعة من مياه البركة أو البحيرة يحوطها الصيادون ببراميل مفتوحة من أعلاها.. مفروشة بالقش من داخلها.. غاطسة في الماء وبداخل كلٍ منها صياد وبندقيته، وكمية من الخرطوش.. وفي المساحة الخالية من الماء داخل هذه الحجرة يلقي الصيادون على سطح الماء كمية من الشعير توضع بجوارها بضع خيالات من الخشب تمثل بعض الطيور.. تجتذب إليها الطيور الحقيقية التي تنخدع بهذه الخيالات الخشبية وتهبط داخل هذه المنطقة المحاصرة، فتفاجأ بالبارود ينهمر من حولها حتى يسقط السرب عن آخره على صفحة الماء..

وتفوح من السرب الشهيد رائحة الطير الدافئة فتملأ سماء المكان.. وتجذب إليه الأسراب الأخرى..

وبهذه الطريقة الوحشية المعترف بها.. تستمر الحجرة أربعة أيامٍ أو خمسة..

لا يتوقف الصيادون خلالها عن الصيد..

إلا لإعداد طعامهم، من صيدهم المخدوع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(16)

تأتي بعد المنزلة، بحيرة البرلس..

هي ثاني بحيرات الدلتا بين فرعي النيل في دمياط ورشيد، وتمتد مستطيلة الشكل بمحاذاة البحر المالح..

مدببة على قمة الدلتا في مواجهة ذلك البحر، يأكل منها عامًا بعد عام..

انزلق بنا القارب المسطح على حوافي بحيرة المنزلة من شطا والشطوط.. حتى أوفى بنا إلى البحر المالح وراء دمياط..

وكان لابد لنا أن نستعمل مواصلات البر، للوصول إلى البرلس..

من دمياط إلى المحلة الكبرى.. ومن المحلة الكبرى إلى محافظة كفر الشيخ.. ومن كفر الشيخ إلى بلدة بلطيم، حيث توجد بلدة برج البرلس، التي يتركز فيها القطاع الأكبر من صيادي تلك البحيرة..

وقد كانت برج البرلس ثغرًا عظيمًا من ثغور مصر.. ففي إحصاء ابن الكندي لهذه الثغور التي تمثل مداخل أرض مصر من البحر الأبيض وجدها تصل إلى أربعة عشر ثغرًا..

تبدأ بالعريش في الشمال الشرقي، ثم تنيس وشطا ودمياط والبرلس ورشيد والإسكندرية.. إلخ..

ولقد كانت ميناء حربيًا كبيرًا إلى عهد عرابي باشا، وكان حصنان كبيران على جانبي البوغاز..

ثم طغى عليها البحر، وأكل فيما أكل هذين الحصنين العظيمين وكانت أبراجهما ترى داخل البحر أمام هذه البلدة حتى سنة 1923.. ثم اختفى أحدهما داخل الماء وبقي الآخر.. بضع سنوات ثم ابتلعه البحر أيضًا..

تخيلت لو أننا جئنا إلى هذه البحيرة من البحر عن طريق دمياط..

حينما نصل إلى بلدة البرج هذه سنواجه بحاجز صخري.. يحجب البلدة بالرغم من صخوره التي زحزحها الموج من مكانها، وفتح فيها ثغرات ينساب منها الماء إلى الرمل ويأكله..

وسنجد البوغاز الذي كان مدخلًا للميناء وقد امتلأ بالرمال حتى انغلق المدخل، وأصبح ممكنًا للواحد منا أن يعبره ماشيًا على قدميه، فلا يصل الماء فيه إلى ركبته..

وسنجد المراكب الصغيرة تتأرجح أسيانة حزينة بصياديها على صفحة البحيرة، محبوسة في حدودها المائية، وقد اختفت السفن ومراكب الصيد الكبيرة واندحرت أمام انغلاق هذا البوغاز..

هذا البوغاز مشكلة أبدية!.. لا حديث لهؤلاء الصيادين إلا عنها، منذ زمن قديم يصل إلى مئات الأعوام حتى هذه الأيام..

حينما ينزلق بنا القارب داخل هذه البحيرة العظيمة الحجم، يغوص بنا الخيال ويحلق حول هذه الجزر داخل البحيرة المزدحمة بالتلال الأثرية.. بقايا المدن القديمة التي أنشأها فراعين عظماء في الزمن القديم.. مثل سنجار، والكوم الأخضر.. والكوم الأحمر.. وتل الفراعين..

وتلال ابطو أو بوطوس التي كانت مقر أول عاصمة لعواصم مصر منذ فجر التاريخ..

وقد كانت البحيرة في الأصل، تسمى بحيرة بوطوس نسبة لهذه المدينة العظيمة..

وهيرودوت ينقل لنا في تاريخه.. معلومات وصفية هامة عن هذه الجزيرة التي كانت مدينة خلال زيارته لها في ذلك الزمن القديم، يقول:

"في بوطوس عدة معابد، منها معبد أبوللون ومعبد ديانا ومعبد لاتونة حيث تصدر النبوءات.. ومن بين ما رأيت في داخل السور المخصص للآلهة لاتونة، كان أكثر ما أدهشني معبد الآلهة المكون من صخرة واحدة كبيرة، وهناك أيضًا جزيرة خميس التي تضارع جمال المعبد، وهي في بحيرة عميقة واسعة.. ويؤكد المصريون أن هذه الجزيرة عائمة لكنني شخصيًا لم أرها تعوم أو تتحرك.. وبها معبد كبير لأبوللون يحتوي على ثلاثة مذابح.. ويقول المصريون أن السبب في أنها تعوم هو أن الآلهة لاتونة وهي من أقدم آلهة المصريين كانت تقيم في بوطوس حيث الآن كهانتها..

وقد أودعت إيزيس لديها ولدها حورس ابن أوزوريس لتخفيه عن عمه الشرير ست الذي كان يريد أن يبطش به، فأخفته في هذه الجزيرة.. وأمرتها أن تعوم به داخل الماء كي لا يستطيع ست الوصول إليه.. وقد نجا حورس بهذه الطريقة».

والبحيرة والأراضي غير المنزرعة المجاورة لها من الشمال والجنوب.. كانت تكون المقاطعة التي يسميها القدماء البارشي.. ومن هذه المقاطعة المليئة بالمستنقعات، خرج ابسمتيك يطرد عن العرش حكام الأقاليم الأحد عشر الذين نفوه إليها، ومنها أيضًا كافح الملك أميرتي جيوش الفرس..

وقد غطى الزمن الآن كل شيء، فلم يبق سوى هذه التلال الغاطسة في ماء البحيرة..

وفي كل تلٍ منها يوجد خفير خصوصي تابع لمصلحة الآثار، يقوم بحراستها لأنها مناطق أثرية.. لم تحفر بعدا!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في يومياته:

"... وفي ليلة الأحد الخامس من شهر رجب سنة 1223 هجرية، سافر محمد علي باشا إلى بحري، ونزل في المراكب، وأرسل قبل نزوله بأيام بتشهيل الإقامات والكلف على البلاد، من كل صنف خمسة عشر، وأخلوا له ولمن معه بيوت البنادر مثل المنصورة ودمياط ورشيد والمحلة والإسكندرية، وفرض الفروض والمغارم على البلاد على حكم القراريط التي كانوا ابتدعوها في العام الماضي، على كل قيراط سبعة آلاف وسبعمائة نصف فضة، وسماها كلفة الذخيرة.. وأمر بكتابة دفتر بذلك..

فكتب إليه الروزنامجي أن الخراب استولى على كثير من البلاد فلا يمكن تحصيل هذا الترتيب.. فأرسل محمد علي من المنصورة يأمر بتحرير العمار بدفتر مستقل، والخراب بدفتر آخر، فلما فعل الروزنامجي ذلك، أدخل بدفتر الخراب بلادًا بها بعض الرمق.. لتخلص من الدفع.. فلما وصل الدفتر إلى الباشا أمر بتوزيع ذلك الخراب على أولاده وأتباعه، وعدتها مائة وستون بلدة، وأمر الروزنامجي بكتابة تقاسيطها بالأسماء التي عينها له، ووزعت وارتفعت عن أصحابها..

ودخلت براري البرلس في نصيب الأمير بيه طبوز أوغلي.. أو دبوس أوغلي..

وكذلك حصل بإقليم البحيرة لما عمها الخراب وتعطل خراجها وطلبوا الميري من الملتزمين، فتظلموا واعتذروا بعموم الخراب، فرفعها عنهم الباشا واستولى عليها وفرقها على أتباعه.. فطلبوا الفلاحين الشاردة والمتسحبة من البلاد الأخرى وأمروهم بسكناها وزادوا في الطنبور نغمات، وهو أنهم صاروا يتتبعون أولاد البلد أرباب الصنائع، الذين لهم نسبة قديمة بالقرى، وذلك بإغراء أتباعهم وأعوانهم.. فيكون الشخص منهم جالسًا في حانوته وصناعته فما يشعر إلا والأعوان محيطون به يطلبونه إلى مخدومهم.. فإن امتنع أو تلكأ سحبوه بالقوة وأدخلوه الحبس وهو لا يعرف له ذنبًا، فيقول وما ذنبي؟.. فيقال له عليك مال الطين، فيقول وأي شي يكون الطين؟.. فيقولون له طين فلاحتك من مدة سنين لم تدفعه وقدره كذا وكذا، فيقول لا أعرف ذلك ولا أعرف البلد ولا رأيتها في عمري لا أنا ولا أبي ولا جدي، فيقال له ألست فلانًا الشبراوي أو المنياوي مثلًا؟.. فيقول لهم هذه نسبة قديمة سرت إلي من جد

جدي، فلا يقبل ذلك منه ويأخذونه إلى هذه الأراضي ليعمل فيها حتى يسدد ما عليه».

فمن هو دبوس أوغلي هذا.. الذي منحه الباشا براري البرلس وبحيرتها؟..

يبدأ اسم هذا الرجل في الظهور في تاريخ الجبرتي في خبر صغير يقول فيه: «في حوادث شهر صفر سنة 1221 هجرية، عزل الباشا محمد أغا كتخدا بك من كتخدائيته بسبب أمور نقمها عليه، وحبسه وطلب منه ألف كيس، وقلد في الكتخدائية خازنداره وهو المعروف بدبوس أوغلي”..

وخبر آخر بعد ذلك بأيام: «... وفي ليلة الأحد ثامنه، عدى صاري عسكر إلى بر امبابة بوطاقة، وهو دبوس أوغلي الكتخدا المذكور، وذلك في أواخر النهار، وضربوا مدافع كثيرة لتعديته.. وأخذ العسكر في تسهيل أمورهم ولوازمهم، وأنفق الباشا عليهم نفقة»..

ويبدو أن دبوس أوغلي هذا كان قريبًا إلى قلب الباشا محمد علي، إذ أنه في وقت قصير، استطاع أن يصبح خازنداره.. وكتخداه.. وقائد جيشه.. وحاكم المنيا.. ومحافظ الإسكندرية.. وقد بنى لنفسه ستة قصور في أنحاء البرلس لينزل بها ويقيم عندما يمر على سائر جهات المنطقة..

وقد زاره محمد علي في البرلس يوم 3 صفر سنة 1234 هجرية..

وفي هذا يقول الجبرتي:

“... أخبر المخبرون بأن الباشا أقام بدمياط أيامًا قليلة، ثم توجه إلى البرلس، ونزل في نقيرة، ثم ذهب إلى الإسكندرية على ظهر البحر المالح، وقد استعد أهلها لقدومه وزينوا البلد، والذي تولى الاعتناء بذلك هم طائفة الإفرنج، فإنهم نصبوا طريقًا من باب البلد إلى القصر الذي هو مسكن الباشا، وجعلوا بناحيتين يمنى ويسرى أنواع الزينة والتماثيل والتصاوير، والبللور والزجاج والمرايات، وغير ذلك من البدع البديعة الغربية”..

وفي حوادث يوم 2 شعبان سنة 1229 هجرية.. سجل الجبرتي ما نصه:

“حضر ميمش أغا من الديار الحجازية وعلى يده فرمانات، خطابًا لدبوس أوغلي وآخرين، يستدعيهم إلى الحضور بعساكرهم وكان دبوس أوغلي في بلده البرلس، فتوجه إليه الطلب».

والظاهر أن دبوس بك أوغلي قد عاد من الأراضي الحجازية وقد أضاف إلى ألقابه لقب حاج..

إذ أننا نجد وقفية صادرة من «الحاج محمد دبوس أوغلي» جاء فيها ما يلي:

“وقف الواقف المذكور، الأرض الكائنة بناحية بوشي بثغر البرلس والبرج، وبحيرة الأسماك المعروفة بيالق ضاليا، بحجة إيقاف صادرة في 27 صفر سنة 1243 هجرية من محكمة الباب العالي بمصر، وأوقف ذلك وحبسه ورصده على نفسه ثم من بعده على كلٍ من زوجتيه معتوقتيه الست رقية خاتون، والست فاطمة خاتون، وأولاد الواقف ذكورًا وإناثًا، معاتيقه ذكورًا وإناثًا، ثم بعدهم لأولادهم، وأولاد أولادهم، وعقبهم ونسلهم من بعدهم.. إلخ.. إلخ..

1 - قطعة الأرض المعروفة بشورى وما معها من العبادين.. وحدها القبلي ينتهي إلى البحيرة المذكورة وحدها البحري ينتهي للبحر المالح الأجاج.. (المقصود بلدة بلطيم وبرج البرلس والبلاد الأخرى المجاورة لها).

2 - بحيرة الأسماك يالق ضاليا (بحيرة البرلس الحالية).. وحدها القبلي ينتهي بالفقا والمخاصة، وحدها الشرقي إلى حافة الأماسم وبوغاز الأماسم، والبوغاز إياه ينتهي إلى برزخ البحر المالح من داخل البحيرة المذكورة.

وقد ظلت بحيرة البرلس وبراريها والقرى المحيطة بها والمذكورة في تلك الوقفية الصادرة من محكمة الباب العالي، ملكًا لورثة دبوس أوغلي هذا، إلى أن اتفقوا مع الحكومة على التنازل عنها واستبدالها بما يعادل غلتها سنويًا.. وقدرت الغلة في ذلك الوقت بمبلغ 1564 جنيهًا في السنة..

وقد ظل هذا المبلغ يدفع ويدرج في ميزانية الدولة.. إلى أن قررت حكومة ثورة يوليو 1952 حل الأوقاف!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين تسلمت الحكومة بحيرة البرلس بدأت تؤجرها بالالتزام كشأنها مع باقي البحيرات..

وكان آخر ملتزم لهذه البحيرة خواجا يدعى «انجليتو» أقام بها صناعة كبيرة للأسماك والفسيخ.. وعندما قارب عقد التزامه على الانتهاء.. أراد أن يستغل موارد هذه البحيرة إلى أقصى الحدود فبدأ يصنع سدًا في مدخل البوغاز بين البحيرة والبحر، بإلقاء الصخور والحجارة في هذا المدخل ليحبس الأسماك داخل البحيرة فلا تخرج إلى البحر، فيصيدها جميعها خلال الشهور القليلة المتبقية لالتزامه..

فعل ذلك في وقت كان الخواجات فيه يصنعون في بلادنا ما يشاءون..

ورحل الخواجا عن البحيرة محملًا بأمواله الطائلة التي جمعها منها.. تاركًا خلفه آثارًا رديئة ما تزال البحيرة والصيادون يعانون منها إلى الآن، رغم انقضاء ذلك الزمن الطويل على رحيله..

فقد انهالت الرمال على الزلط والصخور التي ألقاها في مدخل البوغاز حتى ارتدم.. وأصبح مغلقًا في وجه الأسماك والمراكب الكبيرة التي ترغب في الخروج إلى البحر، أو الدخول منه..

وقد كان هذا البوغاز في قديم عهده، لا يقل عمقه عن خمسة أمتار أو ستة.. وكانت تسير فيه السفن الشراعية الكبيرة، تحمل البضائع والركاب بين مواني مصر وتركيا والشام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(17)

كنا نتحرك تحت شمس شتوية على الأرض المشبعة بالملح على حافة البحيرة، في منطقة البرج التي تضم أكثر من ستين في المائة من صيادي البرلس، لقربها من البوغاز، وإلى جوارنا تترامى على صفحة البحيرة إلى الأفق قوارب الصيادين.. صغيرة مغايرة لما كنت أتصوره لهذه البحيرة الضخمة من قوارب؟..

وكان بعض الصيادين حولنا يقودون سيرنا إلى مرسى القوارب على البحيرة وهم يتكلمون..

وكان كلامهم شكوى..

نكبتهم الأولى هي هذه الأحجار والرمال التي تسد فتحة بحيرتهم على البحر.. فلا يستطيعون الخروج إليه بمراكبهم الكبيرة التي تدور بالآلات..

كل من كانت عنده مركب كبيرة من هذا النوع باعها.. واشترى بدلًا منها قوارب صغيرة..

هذه المراكب تخرج إلى البحر بحثًا وراء الصيد الكبير.. هي تطور آلي، يشجعه الكل في هذه المرحلة.. ورغم هذا فالبرلس تتخلص منه.. فهذه المراكب الكبيرة تصبح سجينة داخل البحيرة لا تستطيع أن تتخطاها إلى البحر..

ماذا يفعل الصيادون في شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر، حينما يمتليء البحر بأسراب سمكة السردين؟..

إنهم يهاجرون إلى أقصى الشمال.. إلى دمياط وعزبة البرج.. ويشتغلون بالأجرة..

وبعض كبار الصيادين من أصحاب ماكينات الصيد في البرلس لم يبيعوا ماكيناتهم، وإنما تركوها في مياه دمياط وعزبة البرج.. وفي موسم السردين يجمعون الصيادين من مواطنيهم في البرلس.. يذهبون إلى ماكيناتهم هذه فيأخذونها وينزلون بها إلى البحر من هناك.. ويبقون في الغربة طوال الموسم..

حتى الصياد الذي يقضي حياته مغتربًا داخل البحر.. يستطيع أن يستشعر الغربة في مياه أخرى يجمعها مع الماء الذي تعود الصيد فيه مجرى واحدا!..

إنهم يأخذون عائلاتهم معهم طوال هذه الشهور، وفي نهايتها يعودون إلى بلدتهم بالملابس الجديدة.. لكنهم يكونون قد أنفقوا في هذه الغربة معظم النقود التي كسبوها من هناك!..

وليس همهم أن بوغازهم مغلق، لكونه يعوق خروج مراكبهم فقط، إنما هو عائق يقف في وجه بعض الأسماك التي قامت عليها شهرة البحيرة أيضًا..

فالبحيرة مشهورة بأسماك البوري والطوبار، وهذه الأسماك تمتليء بالبيض في سبتمبر، ومن أكتوبر ونوفمبر تبحث لنفسها عن مخرج من البحيرة إلى البحر، لتفرغ فيه بيضها وتعود إلى البحيرة.. لكن البوغاز يكون مغلقًا فلا يستطيع معظمها العبور إلى البحر..

وفي كثير من الأيام القديمة.. كانت هذه الأسماك تضطر لإلقاء نفسها على شواطئ البحيرة.. فيجمعها الصيادون باليد بعد أن تضيق بحملها الذي لا تستطيع الخروج به إلى البحر..

وقد أثر هذا العائق على سلالة هذين الصنفين من الأسماك داخل البحيرة.. فبعد أن كانت البرلس شهيرة بالبوري والطوبار، أصبح ما يصاد منها أقل القليل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(18)

العادة المتبعة من قديم في التعامل المالي مع الصيادين قوامها محصول السمك..

كان بعضهم يملك القارب والشباك لكنه لا يملك الأيدي الكافية للصيد.. فيستأجر الصيادين الذين يملكون..

والمراكب الصغيرة عادة.. يستأجر صاحبها رجلًا آخر يساعده.. ومحصول الصيد يقسم ثلاثة أقسام.. الثلث نصيب القارب وشباك الصيد.. والثلثان الآخران لكلٍ من الصيادين..

وظل هذا التعامل قاعدة يضيف عليها أحيانًا صاحب القارب بقشيشًا من عنده للصياد الذي يصاحبه.. حتى لا يفضل عليه قاربًا آخر..

ثم جاءت مؤسسة التأمينات الاجتماعية وأرادت أن تضمن لعمال الصيد معاشًا للعجز والشيخوخة، وضمانًا لمعاش الأولاد في حالة الوفاة.. فأرسلت لأصحاب قوارب الصيد تطالبهم بالدخول في نظام التأمينات.. وطلبت من كل منهم أن يقدم قائمة بأسماء الصيادين الذين يعملون معه.. واشتراكًا شهريًا عن كل صياد وما إلى ذلك من واجبات تفرضها قوانين العمل على أصحاب الأعمال..

ووجد الصيادون أنفسهم واقعين في حيص بيص..

فلا صاحب القارب يستطيع أن يقدم هذه القائمة المطلوبة بالأسماء.. لأن العمل موسمي، ومن يصيد معه في هذا الموسم يصيد مع غيره في الموسم القادم.. والمسألة حسب التساهيل..!

ولا الصياد نفسه.. الأجير الفقير الذي يستفيد من هذا القانون.. فهم ما يعنيه هذا القانون بالنسبة لمستقبله!..

ولو أن مؤسسة التأمينات كلفت خاطرها وأرسلت مجموعة من موظفيها الفنيين إلى هؤلاء الصيادين يعايشونهم ويتفهمون ظروف عملهم وطبيعة معاملاتهم.. لاستطاعوا الوصول بجوهر قانون التأمينات هذا إلى شكلٍ يوائم حالة هؤلاء الصيادين يفهمونه ويقتنعون به.. وينتظمون على أساسه مع صاحب قارب واحد، ولهدأ روع أصحاب القوارب واستجابوا للقانون.. ودفعوا المطلوب..

لكنهم على حافة البحيرة يجأرون بالشكوى لكل من راح وجاء، وبعد أيام سوف يواجهون داخل البحيرة ببوليس السواحل يعترض قواربهم ويفتش فيها

عن استمارات التأمين الاجتماعي على عمال الصيد.. فإن لم يجدوها أوقفوا القارب ومنعوه من الصيد!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكوى أخرى..

يصيد الصياد ما يصيده في ليلتين يبيتهما داخل البحيرة بقاربه الصغير.. ويجيئه من البر قارب أكبر قليلًا لنقل السمك الذي صاده.. خلال عودة القارب بالسمك إلى البر، يعترضه رجال السواحل ويفتشون السمك ويقلبون فيه، بحثًا عن الأسماك الصغيرة، فوجود السمك الصغير داخل الصيد معناه أن الصياد قد استعمل شباكًا مخالفة لما سمح به القانون.. هذه المخالفة تبيح لبوليس السواحل مصادرة السمك المصاد كله، كبيره وصغيره..

وهذا عقاب عادل، فإن إخراج السمك الصغير خسارة على ثروة البحيرة.. فالسمك الصغير يكبر ويحمل ويبيض ملايين الأسماك الأخرى، فبقاؤه داخل الماء يعطي الفرصة للتكاثر.. والقانون لم يكن أعمى ولا مستبدًا حين ضم إلى أضابيره ذلك النص على استخدام شبك معين يسمح للسمك الصغير بالهرب.. فقد راعى القانون أن من الممكن لهذه الشباك التي سمح بها أن تصيد أيضًا ضمن ما تصيد من السمك الكبير، كمية لا بأس بها من السمك الصغير تتعلق بالخيوط ولا يمكنها الإفلات، ولهذا فقد سمح للمركب التي تصيد مائة كيلو من السمك.. أن يكون بينها عشرة كيلو جرامات من السمك الصغير لم تستطع الإفلات.. أي بمقدار عشرة في المائة.. وما تجاوز هذا يعد مخالفًا، ويتيح للبوليس مصادرة الجميع..

ولكن..

إذا كان القانون قد سمح.. فالذين ينفذون القانون داخل الماء لا يسمحون.. وكثيرًا ما يتعسف رجال السواحل مع الصيادين داخل الماء فيصادرون كل ما صادوه إذا وجدوا من السمك الصغير أية كمية.. حتى ولو لم تتجاوز ما سمح به القانون!..

وفي نقطة البوليس يتكدس السمك المصادر..

المفروض أن يعدم.. بإلقائه في الماء أو إحراقه، لكنهم يبيعونه في المزاد..

والصيادون لهم تقاليد..

فالسمك المخالف الممسوك من أحد الصيادين، لا يتقدم للمزايدة عليه صياد آخر، مراعاة للعرف والتقاليد.. وتكون النتيجة أن يتقدم الصياد نفسه، ويدفع ثمن السمك بالكيلو.. ويأخذه ويمضي.. وهو يسب ويلعن.. لأنه صاد السمك من البحيرة، ثم دفع ثمنه بالكيلو في نقطة البوليس!!..

صحيح أن الصيادين دائمو الشكوى.. بحكم ظروفهم القاسية الصعبة.. ويكاد يكون من المستحيل إرضاؤهم تمامًا.. لكن شكواهم دائمًا تستند إلى واقع يوخزهم وينغص عيشتهم ويرغبون في تغييره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في محافظة كفر الشيخ التي تتبعها بحيرة البرلس، قابلنا السيد سكرتير عام المحافظة.. عبد الفتاح أحمد علي.. قال لنا قبل أن نبدأ الحديث: «احنا منطقة زراعة.. ماحناش منطقة صيد»..

ولعل السيد أحمد علي محق في قوله هذا.. باعتبار محافظة كفر الشيخ إحدى محافظتين قد وقع عليهما الاختيار، لتنفيذ تجربة التجميع الزراعي وتنظيم الدورة الزراعية.. ففي حقولها تجري مئات العمليات للصرف والتطهير واستصلاح الأرض..

لكن هذا لا يعني أبدًا.. أن تصدر المحافظة كتابها السنوي الذي يقارب المائتي صفحة.. حافلًا بالتقارير والدراسات، والمشاريع العمرانية والزراعية والاجتماعية التي تحققت والتي بسبيلها إلى التحقيق.. دون أن يكون في هذا الكتاب صفحة واحدة.. ولا حتى سطر واحد.. عن بحيرة البرلس وما فيها من صيد يعيش عليه على الأقل أربعون في المائة من سكان المحافظة؟!..

هل تتجه النية إلى تجفيف البحيرات الشمالية التي تزين واجهة بلادنا على البحر الأبيض الأجاج، بحيث يتم ذلك في المراحل النهائية لتوسعنا الزراعي؟..

لقد بدأت فعلًا بعض عمليات التجفيف..

وبالرغم من أن الزراعة هي العنصر الأساسي في اقتصادنا القومي، إلا أنه من واجبنا أن نؤكد أنها ليست العنصر الوحيد فليست الأرض وحدها هي مجال الإنتاج..

إن التجارب العلمية التي طبقت بنجاح لزيادة المساحة المحصولية عن طريق التجميع الزراعي للملكيات الصغيرة، وتنظيم الدورة الزراعية وحساب المحاصيل، في محافظة كفر الشيخ مثلًا، قد جعلت هذه المحافظة الحديثة السن تدير ظهرها للبحيرة العجوز، البرلس – التي كانت مورد الإعاشة الرئيسي لسكان هذه المنطقة بضع مئات من السنين – فلا توليها من الاهتمام ما توليه للمشروعات الزراعية..

بل إن المحافظة قد استجابت للأهمية التي تعطيها الدولة لمشروعات التوسع الزراعي، فوقفت في جانب الآلات الحديثة التي تمتص الماء من هذه البحيرة وتجففها جزءًا بعد جزء لتحولها إلى أرضٍ زراعية..

صحيح أن الصورة كانت مشرقة على طول الأرض التي مررنا بها خلال المحافظة، لنصل إلى البحيرة.. فالمؤسسة المصرية لتعمير الأراضي قد بذرت عمالها ينثرون الآلات العظيمة الملونة ويشقون المصارف ويغسلون الملح الأجاج عن الأرض.. ويبسطون فوقها البيوت ووحدات العلاج والمدارس والحقول الخضراء المزهرة.. والطرق المرصوفة تقودها إلى أحلام الحضارة في القرن العشرين..

وحينما زحفت بنا السيارة في الطرق الضيقة الموحلة داخل القرى التي يسكنها الصيادون على حافة البحيرة.. بدأت البيوت تنحني وتتهالك.. وتسقط أبوابها ومداخلها وراء الوحل.. وبدأت الكآبة التي تخيم على حياة الصيادين تلفح وجوهنا..

إنهم قوم ولدوا على الماء.. وكل منهم تعلم أن يحبو وهو طفل، على سطح قارب صغير عائم..

وهم ينامون حين ينامون في هذه القوارب تشدهم إلى الماء شباك الصيد الممتدة وراء السمك..

على ذبالة ضوء من فانوس يلفحه الصقيع.. أو في غرفة ضيقة رطبة، مزدحمة بهذه الشباك نفسها..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن هذه المملكة المائية المنبسطة على الساحل الشمالي للدلتا يعيش على سطحها 54 ألف صياد..

وفي جزر الغاب والمستنقعات الداخلية يعيش تسعة آلاف بدوي من الرعاة..

وعلى الضفاف الرملية والطينية لهذه المملكة المائية.. يعيش ثلاثة آلاف مزارع..

إن هذه الأرقام شديدة التقريب، لكنها تؤكد ارتفاع نسبة الصيادين ارتفاعًا واضحًا بين سكان هذه المناطق..

وغالبية هؤلاء الصيادين ينظرون إلى المستقبل بقلق..

إن الرمال تتراكم في البواغيز، تلك الفتحات التي تأخذ من البحر وتعطيه..

والبحيرات نفسها تنكمش، وقد انخفض حجمها إلى النصف خلال الخمسين سنة الأخيرة.. ومنذ عام 1954 والهيئة المصرية الأمريكية لإصلاح الريف تزاول نشاطها في تجفيف المساحات الكبيرة من بحيرة مريوط وتنشيء عليها المنطقة الزراعية المعروفة بمنطقة أبيس..

وقد جففت مناطق أخرى كثيرة في المنزلة، والبرلس.. لإقامة المشروعات الزراعية الحديثة عليها.. تلك المشروعات التي تعتمد على تمليك الصيادين للأرض والبيت والمواشي، ومعاونتهم على الزراعة..

لكننا ونحن ننزلق على صفحة بحيرة ادكو، في قارب رفيع يدفعه من مؤخرته صياد عجوز بمدراته الطويلة.. قال لنا صياد في الأربعين من عمره: «أنا موش من ادكو.. أنا من منطقة أبيس، كنت صياد وملكت خمس فدادين في التجفيف، وملكت بقرة وبيت.. لكن دي موش مهنتي.. الزراعة شيء والصيد شيء تاني.. داني بأرمي الشبكة يطلع لي فيها السمك في ساعتها.. لكن الزراعة فين وفين!.. أنا تركت الأرض لواحد قريبي فلاح، وأديني معاك أهه في البحيرة باصطاد»..

قلت له اننا زرنا منطقة أبيس، وأن عددًا كبيرًا من الصيادين الذين امتلكوا أرضًا وتحولوا للزراعة.. «مبسوطين».. فقال لي:

"دول تلاقيهم كانوا مبسوطين من الأول.. يعني صيادين وتجار سمك وعندهم مراكب وفلوس.. لما يملكوا الأرض حايزرعوها، ومراكبهم يأجرولها رجالة وتنزل تصيد برضه.. لكن الصياد الفقير إذا بطل صيد مايقدرش يبطل أكل لغاية الزراعة ما تجيب"..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظلت سياسة تجفيف البحيرات موضوع مناقشات طويلة خلال بضع خمسات من السنوات الماضية.. حتى أوضحت بعض التجارب أنها سياسة خاسرة اقتصاديًا لأن فدان البحيرات يعطي من الإنتاج السمكي أكثر مما يعطيه فدان الزراعة.. بخلاف ثروات البحيرات الأخرى من المحار والرمال السوداء.. ومزارع الأرز والمزارع السمكية والطحالب وطيور الماء..

بينما فدان الزراعة لا يعطي مباشرة، بل تسبق العطاء تكاليف استصلاح الأرض وإعدادها للزراعة..

وفي مطلع الستينيات أعلنت بعض الصحف أنه قد تقرر وقف تجفيف البحيرات نهائيًا.. ومنع الصيد في البواغيز والفتحات في مواسم تكاثر السمك.. والاهتمام بالصيد والصيادين..

ونشرت بعض الصحف الأخرى تحقيقات عن المشروعات العظيمة التي تعد للتنفيذ في هذه البحيرات.. وأهمها توسيع رقعة التعاونيات بتنفيذ مشروع الإنتاج والتسويق التعاوني بين الصيادين في هذه المناطق، بما يكفل مد الصياد بأدوات الصيد من خيوط وشباك ورصاص وفلين.. وضمان أجر ثابت له طوال العام، لتستقر معيشته..

ومشروع آخر لإنشاء مزرعة سمكية في بحيرة التمساح، وغيرها من البرك الكبيرة..

ومشروع للانتفاع بعمليات التفريخ الطبيعية التي تتم داخل الماء في البحيرات.. فسمكة البلطي مثلًا تفرز الواحدة منها بضعة ملايين من البيض، وتفقس وتفرخ سمكًا ينمو ويبيض سمكًا آخر في شهرين اثنين..!

ومشروع لتعميم مزارع الأرز السمكية في البرلس والمنزلة بعد أن أثبتت التجارب أن الأسماك تتغذى وتكبر بسرعة في هذه المزارع، وثبت أيضًا أن بروتين الأسماك يغذي فدان الأرز ويجعله أكثر غلة..

ومشروع لتصنيع الأسماك، وخاصة الحنشان والقشريات.. مثل البوري والقاروص، بعد أن أثبتت صلاحيتها للتصدير إلى معظم دول أوروبا.. وتوجد حاليًا اتفاقيات معقودة مع بعض الشركات الهولندية والألمانية تبيح لها منذ بضع سنوات أن تصيد الحنشان من بحيرة ادكو والبرلس والبحيرات المجاورة.. والطن الواحد من هذه الحنشان يصل ثمنه في أوروبا إلى 350 جنيهًا استرلينيًا.. يتم تصنيعه هناك ويعود بعضه إلينا بعد التصنيع سمكًا مدخنًا يباع في بعض المحلات هنا بمائة قرش للكيلو الواحد!..

وبضع مشروعات أخرى للاستفادة من هذه البحيرات وشواطئها الجافة في إنشاء الكبائن والعشش للسياحة الداخلية..

عدد عظيم هائل من المشروعات تحدثت عنه الصحف في تلك الأيام منذ سنوات، حينما اشتد الحماس للاستفادة من بحيرات الشمال وتطويرها بعد وقف تجفيفها..

ولكن يبدو، أن كل هذه المشروعات قد ظلت حبرًا على ورق.. فعلى طول الساحل الشمالي من بحيرة مريوط إلى بحيرة المنزلة، لم نجد أثرًا واحدًا ينبئ أن هذه المشروعات قد أخذت طريقها للتنفيذ.. ولم نجد أحدًا يحدثنا عنها.. اللهم إلا بضع جميعات تعاونية للإنتاج والتسويق، ما زالت تكافح جهل الصياد وعدم ثقته، وتقاوم الخيوط المتينة من الديون التي تربطه إلى التاجر القديم، المستغل..

بينما كان الصيادون يصرخون حولنا في كل مكان داخل البحيرات.. «التجفيف.. التجفيف.. التجفيف بيضر الزريعة وبيقطع رزقنا.. بقى بدل ما يفتحولنا البواغيز عشان تغذي البحيرات، يقوموا يجففوها!»..

وكنا نقول لهم أن قرارًا قد اتخذ بوقف التجفيف، فيقولون: «لأ يا بيه.. التجفيف ماشي أربعة وعشرين قيراط»..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المؤسسة المصرية العامة للثروة المائية، أردنا أن نتبين الحقيقة..

قال لنا السيد اللواء عبد العزيز مصطفى، رئيس مجلس إدارة المؤسسة، أن إنتاجنا من السمك يبلغ 120 ألف طن في العام.. 70 ألف طن منها نصيده من البحيرات.. والخمسين ألفًا الباقية نصيدها من البحرين الأبيض والأحمر..

حتى السمك الذي نصيده من البحرين الأبيض والأحمر، أصله من البحيرات:

الجمبري كله من البحيرات..

سمك موسى كله من البحيرات..

الحنشان كلها من البحيرات..

والبوري 50% منه تعيش في البحيرات..

والبحيرات المصرية قال عنها باحثان، أحدهما سويسري، والآخر ألماني، إنها أخصب البحيرات في العالم.. لأنها بحيرات صحراوية دافئة تتصل مباشرة بالنيل والبحر، وهذا هو السر في عظمة أسماكها..

وتقرير هايدجيز العالمي عن البحيرات، لعام 1962 قال أن الطاقة الإنتاجية السمكية لبحيرات المنزلة والبرلس وادكو، من أعلى الطاقات بالنسبة لجميع البحيرات في العالم..

هذه البحيرات العظيمة التي وهبتها لنا الطبيعة في وضعنا الجغرافي، والتي تحسدنا عليها دول العالم المشتغلة بالصيد.. نسعى نحن إلى تجفيفها وتحويلها إلى أرضٍ زراعية!!..

لقد قال بعض الباحثين أثناء مناقشة هذه المسألة، أن تجفيف هذه البحيرات جريمة اقتصادية في حق بدلنا..

قلت له:

- قرأت أن قرارًا قد اتخذ بوقف التجفيف..

قال:

- أنا أيضًا قرأت هذا الكلام.. لكن التجفيف مستمر!..

وهناك نية لتجفيف البرك أيضًا في جميع المحافظات، وهذا شيء خطير.. لقد كنت في اليابان منذ وقتٍ قريب.. هناك لا توجد حفرة فيها قليل من الماء، إلا وأسرعوا بتحويلها إلى مزرعة للسمك.. ورغم هذا فعندهم حضارة صناعية متقدمة..

ونحن قد أنشأنا مزرعة سمكية في بحيرة مريوط منذ سنتين..

هذه الأيام جففوا نصفها..!

أريد أن أسألك، ماذا سنزرع في هذه الأرض التي نجففها وننفق على إصلاحها؟!..

وقد أعطتنا بحيرة مريوط التي يجففونها ثلاثين طنًا من السمك في يومٍ واحد..

فأي نوعٍ من المحاصيل سوف تنتجه هذه الأرض ليعوض هذا المحصول السمكي؟!..

إن فكرة التجفيف كانت قائمة على أساس أن السبعين ألف طن من السمك التي تعطيها البحيرات، يجب تعويضها من البحار.. ولكي نصيد هذه الكمية من البحار يجب أن يكون لدينا أسطول من مراكب الصيد.. أسطول حديث مجهز بالآلات ليصيد على مختلف الأعماق..

هذا الأسطول سوف يكلفنا كذا مليون جنيه مصاريف إنشائية..

كذا مليون جنيه مصاريف إنشائية لأسطول الصيد، وكذا مليون لتجفيف البحيرات واستصلاح أرضها للزراعة.. بينما الطبيعة قد منحتنا مصدرًا خصبًا للبروتين، يعطينا إنتاجه بسماحة، دون أية تكاليف.. فبعض الصيادين في القرى يصيدون السمك من هذه البحيرات بأيديهم!..

قلت له:

- طيب.. وبعدين؟..

قال لي:

- ولا قبلين.. نحن في المؤسسة نقاوم التجفيف.. وسأظل أقاوم التجفيف وأنا رئيس لمجلس إدارة هذه المؤسسة، وسأظل أقاومه أيضًا وأنا في أية وظيفة أخرى..

إن هذه البحيرات مصدر هام من مصادر الثروة القومية.. وعلينا أن نضعها في حسابنا ونحن نناقش الخطط للتنمية ومضاعفة الدخل القومي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يستطيع الواحد منا أن يجلس في بيته ويستمع للراديو ويقرأ الصحف، ثم يذهب إلى عمله وهو مطمئن إلى أنه يعرف بلاده جيدًا..

لكنه ما يكاد يركب قطارًا يخترق هذه البلاد حتى يصاب بالدهشة..

لقد كان يخدع نفسه..

إن الحقول المموجة الخضرة.. والصحاري الصفراء والنيل العظيم الذي يضم في مجراه مئات الجزر.. والمراعي.. ومستنقعات الغاب والجاموس.. والجدران الخارجية الطويلة الصماء للمصانع.. وقلوب الجبال الداخلية التي تنبت النحاس والرصاص والفوسفات والحديد والذهب.. والبحيرات.. والبحار المحيطة المليئة بالسمك تفتح لنا الطريق إلى العالم.. وشمسنا الوهاجة المزدهرة.. والسحب والأفق الأزرق الموشى بالدانتيلا البيضاء..

هذه الأشياء وحدها لا تستطيع أن تملأ ذلك الانفساح الذي تتيحه للشعور كلمة بلادنا..

فإن الرجال السمر تحت الشمس في البحيرات والحقول.. والرجال البيض داخل الثلاجات في مصانع تجميد السمك والجمبري ومعامل الألبان.. والحمر اللامعين أمام أفران صهر الحديد والزجاج.. والأيدي الخشنة التي تحرك الآلات وتتحسس قلب الجبل لتستخرج منه الخامات.. يمكنها أن تضيف شيئًا إلى الشعور حين تذكر كلمة بلادنا.. لكن الشعور يظل ناقصًا حتى نواجه هذا كله بأنفسنا.. ونلمس بقلوبنا أبعاده الحقيقية..

إن قضاء الليل في قارب ضيق تغطيه سماء عميقة شديدة البعد، في انتظار أن تسقط في شباكنا بعض السمكات التعيسة.. وأن يكون ذلك هو عملنا.. لشيء شديد القسوة والعظمة.. ومختلف تمامًا عما يمكن أن ينطبع في شعورنا ونحن نقرأ عن مهنة الصيد في إحدى المجلات..

وقد كان هذا إحساسنا ونحن نعود من رحلتنا في البحيرات.

الغذاء مع آلهة الصيد

رحلت في قارب رفيع من خشب الجميز المصري العتيد عبر بحيرات الدلتا السبع، وأكلت السمك المشوي على نار فوق الماء، مع الصيادين البسطاء ونحن نناقش مشكلة تجفيف البحيرات ونعاين آثارها على الطبيعة.

ثم شربت الشاي الأخضر مع فلاحي الريف في دلتا النيل التي تغمرها تلك البحيرات السبع، ونحن نناقش معًا تجربة التجميع الزراعي ونعاين آثارها على الطبيعة أيضًا.

وعدت من تلك الرحلة وقد لمست قلب مصر الشمالي وطريقته في الحياة بإدراكي.

ورحلت صاعدًا في الجنوب، عبر ريف الصعيد الخشن، وعبر الصحاري ومناجم الجبال المصرية العامرة بالتلك والفوسفات والمنجنيز ومئات المعادن

الأخرى في الصحراء الشرقية.

وعدت من تلك الرحلة وقد لمست قلب مصر الجنوبي وطريقته في الحياة بإدراكي.

وقمت بآلاف الرحلات، عبر السنين، إلى دواوين المصالح الحكومية، ومكاتب الموظفين في مرافق الخدمة العامة داخل مصر الوسطى، وانحفرت داخل نفسي وجوه الناس في الشوارع والدكاكين والمواصلات والبيوت، وعدت من تلك الرحلات وأنا أقول لنفسي: الآن أنت تعرف مصر، ولا يمكنك أن تخشى على نفسك من السفر للخارج، فلن تعود مأخوذًا متفرنجًا مثل بعض الأصدقاء الذين نسخر منهم حين يعود أحدهم متعصبًا للطريقة الأجنبية في الحياة، أكثر من خواجا.

ورغم ذلك كله، فقد صدمتني الطريقة الأجنبية في الحياة، صدمات نفاذة ورفيقة قلقلت أعماقي شبه المستقرة، وأعادت إلى روحي قدرتها على الدهشة والشغف.

كان ذلك وعام 1972 في أوله..

وعدت من تلك الرحلة السريعة في باريس واليونان وأنا أقول لنفسي: لا يكفي أن تعرف مصر لتكون مصريًا، بل عليك أن تعرف العالم الخارجي وتلمس قلبه الداخلي بإدراكك، لتكون مصريًا نافعًا حقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الرحلة الأولى
باريس الخيال.. باريس الحقيقة

خيال فاقع

قالوا لي سوف تتجمد من البرد في باريس هذه الأيام، والذين قالوا لي أصحاب سفر سابق، أصحاب خبرة، فدثرت جسمي النحيل نوعًا، بكمية هائلة من القمصان الصوفية والبلوفرات جعلتني شديد الامتلاء منتفخًا، وغطيت الجميع بمعطف مطر استعرته من صديقي عبد الستار الطويلة الذي أكد لي أن هذا المعطف الذي أتشرف باستعارته، يعرف من بلاد العالم أكثر مما يعرف هو شخصيًا لكثرة ما استعاره الزملاء وسافروا به.

كان ذلك في فبراير 1972..

وكانت القاهرة تمر بموجة باردة أقنعتني وأنا في الطريق إلى المطار للسفر، داخل هذه الملابس كلها، أنني أذهب إلى برد أوروبا وأمطارها محصنًا، وفي الطائرة أدهشني أن أجد عددًا كبيرًا من المسافرين الأجانب يكاد الواحد منهم أن يطير داخل الطائرة كالريشة، لقلة ملابسه وما يحمله معه من حقائب.

فأدركت أن للمسافر المبتدئ ملامح واضحة تدل عليه، وخجلت من حقيبتي المنتفختين في مؤخرة الطائرة، وخجلت من تلك الملابس المنتفخة حول جسدي النحيل نوعًا، فانطويت في مقعدي، أحدق من نافذة الطائرة في تلك الأمواج الكثيفة من السحب التي نطير فوقها، تخفي تحتها البحار والأنهار والجبال والمدن، وأنا أستحضر في ذهني شريط الصور الشائعة والمتخيلة عن المدينة التي أقصدها.

باريس المرتقبة، اللاهية العارية تحت الأضواء البراقة والملونة، المعبأة برائحة البارفان والتبغ في الملاهي المزدحمة بنوع من البشر مشغول باللذائذ، لا عمل له سوى الحب في مناخ ضبابي يسيل فيه المطر دون انقطاع.

مناخ من العطر والخمر والحب..

خيال فاقع لمدينة غير حقيقية..

ثم غادرت الطائرة على أرض مطار بورجيه في إحدى ضواحي باريس الصناعية، وأنا أحمل على يدي معظم ملابسي التي كنت أرتديها، بما فيها معطف المطر الشهير، وكانت الشمس الساطعة تملأ سماء المطار وأرضه بدفئها الذي جعلني أتصبب عرقًا، فلا رأيت ضبابًا، ولا رأيت مطرًا، في لحظة مواجهتي الأولى لأوروبا، وكان ذلك مثار دهشتي حتى قال لي طبيب مصري قابلني بعد ذلك، أن الشمس تشرق اليوم لأول مرة بعد أسبوع كامل من الضباب والمطر أمضاه في باريس والشمس غائبة عنها، فحزنت، لأن باريس لم تستقبلني على طبيعتها المعتادة، وحرمتني مما حدثني به الأصدقاء.

وكنت قد تعرفت في الطائرة بشابٍ مصري، اسمه أمير، قريب لعائلة الزرقاني المشتغلين بالمسرح والسينما، ظننته قاصدًا باريس فأردت أن أتنس به كعادة المبتدئين في السفر، ليعوض لغتي الفرنسية المحدودة في مواجهة إجراءات الخروج من المطارات الطويلة والمعقدة، لكنني اكتشفت أن أمير عائدًا من القاهرة بعد زيارة لأهله، إلى كوبنهاجن حيث يقيم مع زوجته، وقد تركته في صالة الترانزيت ليأخذ الطائرة المتجهة إلى الدانمارك لأكتشف أنه لا توجد أبدًا إجراءات خروج طويلة ولا معقدة، ولا زحام أو ضجة، فخلف طابور المسافرين تقدمت بين حواجز زجاجية وخشبية لامعة ومصقولة، إلى ضابط الجوازات الشاب الذي ألقى نظرة سريعة على أوراقي، ثم أعادها مع ابتسامة، لأجد حقائبي في ساحة لامعة ومصقولة أيضًا وخالية من الحمالين ومفتشي الجمارك.

وكما جمع الذين خرجوا قبلي حقائبهم على إحدى عربات اليد الصغيرة والأنيقة، جمعت حقائبي، وترددت برهة في أن أتبعهم فأمامي عدد كبير من الأبواب الزجاجية، كلما تقدمت من إحداها ينفتح أمامي فأتردد في الخروج، وأنا لا أعرف إلى أين يؤدي بي، وبدأت أدرك للوهلة الأولى أني قد دخلت مجتمعًا يجيد القراءة والكتابة، وكانت تؤكد ذلك كثرة اللافتات.

"احمل حقائبك بنفسك.. هنا ضابط الجوازات.. هنا مكتب الشئون الصحية.. من هنا تذهب إلى الترانزيت.. من هنا تذهب إلى السوق الحرة.. من هنا يمكنك أن تستبدل العملة.. من هنا يمكنك أن تهبط على سلالم أنيقة تؤدي بك إلى التواليت أو الحمام.. أو الدش.. من هناك يمكنك أن تخرج إلى أتوبيس المطار"..

هذا هو الاتجاه الذي أريده، لكن الاتجاه ينقسم إلى ممرين، وعلى كل ممرٍ لافتة إحداها تقول «اعبر من هنا للتفتيش ودفع الضريبة إذا كنت تحمل معك ممنوعات وأنت تدخل فرنسا».. والأخرى تقول «اعبر من هنا إذا كنت لا تحمل شيئًا ممنوعًا».. ولم أكن أحمل معي شيئًا ممنوعًا فعبرت، ولم يوقفني أحد ليسألني إن كنت صادقًا او محتالًا، ولم ينبش في حقائبي أحد، ووجدت نفسي خارج أبواب المطار أمام عددٍ كبير من الأتوبيسات لا أعرف أيهها الذي يحملني إلى ميدان الأنفاليد حيث مقبرة نابليون الكبير، وحيث المحطة الرئيسية في قلب باريس للمسافرين بالطائرة والقادمين إليها، وحيث ينتظرني شخص عزيز على النفس والقلب سبقني في السفر إلى أوروبا مراتٍ عديدة، سيمكنني أن أرى باريس من خلاله.

ها هي باريس أمامي خارج المطار.. لكن أين «الأنفاليد» الآن منها؟.. وأي هذه السيارات الكبيرة والأنيقة يحملني إليه وكل علاماتها ولافتاتها واحدة

متشابهة؟.. وقفت حائرًا لحظة قصيرة، انتبهت بعدها على صوت مصري يسألني:

- الأخ أنا شفته قبل كده؟..

فرحة صاخبة قفزت إلى صدري وأنا ألتفت مندهشًا، فرأيته يضحك، وعرفته على الفور.. د. زكي حبيب.. طبيب يدير إحدى المستشفيات بمصر، وكنت قد التقيت به في بيت زميلي الفنان جورج بهجوري، رسام مجلتي روزاليوسف وصباح الخير المعروف.. لكن أين جورج الآن في باريس المزدحمة الشاسعة هذه؟.. حيث وهب روحه وحياته لفن الرسم بعد أن هجرنا لفترة من الزمان.

أشار لي د. زكي حبيب إلى الأتوبيس العام الذي يحملني إلى «الأنفاليد».. وحين سألته عما أفعل بتلك العربة التي تحمل حقائبي، عرفت أنني سوف أتركها على عتبة المطار كما هي، وهناك عمال متخصصون لإعادتها حيث أخذتها، وبدأ يفتح عيني على نظام في الحياة يتبعه الفرنسيون بوجهٍ خاص، وأوروبا بوجهٍ عام، هو نظام «اخدم نفسك».

ولعله كان مفيدًا لي جدًا أن يحملني الأتوبيس من المطار إلى قلب باريس في ذلك اليوم المشرق، عبر ضاحية بورجيه الصناعية، كتمهيد طبيعي يقتحم خيالي ليقدم لي باريس من خلال مصانعها العديدة، وحقولها التي عبرنا بها، بينما كان د. حبيب يحدثني، أخبرني أن جورج ينتسب الآن لأحد المراسم بكلية الفنون الجميلة، حيث أن لكل أستاذ هناك مرسمًا يحمل اسمه، ومجموعة من الموديلات، ومجموعة من الطلبة يدرسون معه، حيث تجلس الموديل عارية بين الطلبة ساعات طويلة وهم مشغولون بلوحاتهم، وفي النهاية يكتشف الأستاذ أن الطلبة قد رسموا أشياء عديدة أخرى غير الموديل العارية، وأن جورج هو الذي رسمها..!

لقد ذهب جورج البهجوري إلى المرسم في أول يوم من أيام الدراسة، ليجد المرسم مزدحمًا بالعمال الذين يقومون بتنظيفه وإعادة طلائه استعدادًا لبدء الدراسة، ولكنه بعد قليل اكتشف أن هؤلاء العمال ليسوا سوى الطلبة أنفسهم.

فـ»اخدم نفسك» هو النظام السائد، نظام سوف نعود للحديث عنه حين ندخل باريس، حين نذهب وننتزع جورج من مرسمه في الحي اللاتيني، ونتجول معًا في مقاهيها وحواريها وميادينها العديدة، ونرى المدينة على حقيقتها، فلم تكن المدينة كما تخيلتها أبدًا.

رأيت مزيجًا ماديًا يكاد يكون معنويًا لوضوحه، وعاديته من الخير والحب والحرية، وتلك كانت المدينة التي رأيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

رغيف باريس

نتحدث عن الخبز..

الخبز هو العمل..

هو تلك الطاقة التي يشعر الإنسان، عن اقتناعٍ كامل ورضا، أن عليه بذلها في مكانها الصحيح المحدد، لتحقق تكاملًا مع طاقةٍ أخرى مثلها، تصنعان معًا قدرة حضارية للأرض التي ينتميان لها، قدرة حضارية كلما زاد تقدمها وازدهارها، كلما زادت قدرتها على إعطاء ذلك الإنسان مزيدًا من الخبز بأنواعه المتعددة.

لقد رأيت أعظم ما وصلت إليه حضارة السلع الاستهلاكية في أوروبا، من مواد غذائية وأدوات منزلية ومكتبية، وآلاف الكماليات التي أصبحت ضرورية هي الأخرى ممثلة في رغيف باريس «الفينو» الطويل بشكل غير عادي، لأنه رفيع أيضًا بشكل غير عادي، يحمله الباريسيون في أيديهم ببساطة، ويضمونه لصدورهم في ألفة، وهم يعودون إلى بيوتهم في المساء.

أي إحساسٍ بالثقة والطمأنينة يبعثه مرأى ذلك الإنسان الباريسي ورغيفه المصقول الشهي، وهما يعودان معًا من العمل في المساء، الثقة في أن هذا الرجل قد عمل ما عليه بأمانةٍ وإخلاص طول النهار، لم يمهل ولم يهمل ولم يؤجل شيئًا إلى الغد، لم يشتم أحدًا ولم يكذب على أحد، والطمأنينة إلى أنه سيفعل ذلك في اليوم التالي، واليوم الذي يليه، يملأ نهاره بالعمل المثمر فقط، ويملأ العمل المثمر بالمودة والبهجة، فيزيده إثمارًا.

فقد أدرك الإنسان الأوروبي أن الوقت من ذهب، فعلق هذا الإدراك في شعارٍ واضح يتألق في المكاتب والمصانع والبيوت وفي عقول الناس، ولا يخلو الأمر أحيانًا من زيادة في التأكيد، فتجد هذا الشعار معلقًا في لافتة أنيقة على رؤوس الشوارع الكبرى المزدحمة بالعابرين، مكتوبة بخلاف ما نكتبها نحن هنا «الوقت من ذهب» فهناك يكتبونها «الوقت هو الذهب فعلًا».

ورغم أننا قد اكتشفنا مسألة الوقت هذه وقيمته الذهبية، حينما كانت أوروبا غارقة في ظلام الجهالة، إلا أننا – ويا للعجب – لم ندرك بعد أن البذاءة والبجاحة وطول اللسان ليست شطارة وليست فهلوة، إنما هي خيبة، لأنها تؤدي إلى الشجار، والشجار مضيعة للطاقة والوقت، ولم ندرك بعد أن الكذب والمراوغة والتماس المبررات والأعذار، ليست ذكاء ولا دهاء، وإنما هي خيبة، لأنها تؤدي إلى الغموض والضلال وهما مضيعة للوقت.

وكل ما يضيع الوقت ويهدره في المجتمع الأوروبي مرفوض بالإصرار والاتفاق العام.

لقد ذهبت مع رجلين إلى أحد أقسام البوليس في إحدى ضواحي باريس القريبة من غابة بولونيا، أحدهما فرنسي يبيع للآخر الذي ليس فرنسيًا، سيارته الخاصة.

وقد ذهبا إلى القسم لتسجيل عقد البيع، كان الضابط النوبتجي أو الصف ضابط، واضعًا ساقًا على ساق، وواضعًا الإثنين فوق مكتبه وقد أسند على فخذيه دفتر الأحوال، يسجل فيه بلاغًا أو إشارةٍ أو شيئًا ما كان يملى عليه وقتها في مكالمة طويلة بالتليفون، كان منهمكًا جدًا في التدوين ومناقشة الطرف الآخر الذي يبدو رغم مناقشته الحرة له، أنه رئيسه إلى حدٍ ما، عندما دخلنا، رمقنا بنظرةٍ سريعة، واستمر رافعًا ساقيه، واستمر في المناقشة والتدوين، حتى انتهى من مهمته فوضع السماعة، وأنزل ساقيه ليسير عليهما إلينا حاملًا دفتره يسألنا عما نريد.

حكى له الفرنسي الحكاية، فتأمله برهة، ويبدو أنه كان في طبيعته مشاغبًا إلى حدٍ ما، وخيل لي من الطريقة التي يتأمل بها زميلنا الفرنسي أنه ينوي تعطيل الأمور، فبعد أن قلب الأوراق بين يديه مرتين أو ثلاثًا، أعادها إليه بطريقة حاسمة قائلًا: "لا موش هنا.. لازم تروح مديرية الأمن في باريس نفسها، تعمل الحكاية دي هناك، وبعدين تروح الغرفة التجارية عند تقاطع سان ميشيل مع كورنيش السين، عشان تسجل البيع.. انت يا أخي مابعتش عربيتك قبل كده.. لازم تكون عارف الإجراءات؟!».

وأعطانا ظهره ومضى.. ورأيت الفرنسي يتهجم وتبدو عليه علامات التفكير، كأنما يتأمل كلام الصف ضابط بإمعان، ثم قال له في هدوءٍ منفعل نوعًا، أنه ذهب إلى مديرية الأمن، وإلى الغرفة التجارية، وأنهم في كلٍ من المكانين أخبروه أن عليه إجراء البيع في القسم الذي يتبعه فعلًا.. فاستدار الصف ضابط منتبهًا لما يقول ثم أجابه بهدوء بعد أن استمع إليه: «هم هناك لابد غلطانين أنا عارف شغلي كويس».

وبدا مصرًا مقتنعًا بما يقول، فتصورت الدوخة المعتادة بين مكاتب الموظفين الذين يطوح كل منهم بمسئوليته على الآخر، وتصورت المشاوير الطويلة المجهدة في المواصلات، والوقت الضائع هدرًا نتيجة الكذب في الأقوال للمماطلة والتأجيل والهروب من العمل.. لكن الصف ضابط لم يكن يكذب، ولم يكن يماطل، إنما كان مقتنعًا بما يقول، لكنه لم يكن متعصبًا لاقتناعه هذا بدليل أنه استمع لما قاله له الآخر وتأمله بهدوء، وساوره الشك في اقتناعه لحظة.

ولنكن إنسانيين فنقول، إنه ربما ساوره الغرور فأراد تأكيد هذا الاقتناع، على العموم لقد قال لنا، أنه سيدخل لاستشارة المأمور الذي يرأس العمل في

القسم، ليؤكد صحة قوله.

وكان المأمور مشغولًا، يخرج من مكتبه بقية طابور في انتظار الدور، فتصورت الانتظار والتعطيل، نوعًا آخر من المماطلة والتأجيل، لكن الصف ضابط حمل الورقة واقتحم الطابور واختفى في غرفة المأمور، وبعد ثلاث دقائق كان أمامنا في فرحٍ معتذرًا.

قال في بساطة وصفاء: «انت كان معاك حق، المأمور قال إن المسألة بتبتدي عندنا فعلًا، ويظهر دي تعليمات جديدة أنا مكنتش عرفتها».

وعلى الفور بدأ في إنجاز الأوراق، ثم ودعنا بأطيب تمنياته ونحن ننصرف.

إن احترام الوقت هو الشعار السائد بين الجميع، واحترام الوقت فعلًا من احترام الإنسان الآخر واحترام التزاماته ومسئولياته وآرائه وطريقته في الحياة، لقد رأيت في مقاهي أوروبا عددًا من الناس يختلفون على أمرٍ ما، وتمتد بينهم المناقشة لكنها لا تصل أبدًا إلى الخناق والتماسك وتبادل السباب، إنما يصل كل منهما إلى أقصى ما يمكنه من منطق الإقناع، وحين يفشل ينتهي الحوار وكل منهما عند رأيه، ثم ينصرفان معًا كأن لم يحدث شيء، والذي يخطئ يعتذر بشجاعة عن خطئه، ولا يضيع الوقت في البحث عن خطأ الآخرين لتبرير خطئه، فيطمئن الذي أمامه إلى أن الخطأ لن يتكرر ويسود الوئام.

لقد رأيت الناس في باريس يتحركون تحت المطر وفي الجو الصحو، في الشوارع وفي المكاتب والمحلات، حركة أمامية لا تلكؤ فيها ولا انحراف، فلا مجال على رصيف الشارع مثلًا للتلكؤ أمام الفترينات، ومن يتوقف فجأة ليتأمل شيئًا ما، يفاجأ بأن طابورًا من العابرين خلفه قد توقفوا لعجزهم عن العبور.

ويخيل إليك أن المدينة تسوقهم في حركةٍ دائبة لا توقف فيها ولا إبطاء، فمن يتوقف يسقط، ويعبره الآخرون، لكنك تكتشف أن المدينة لا تكون مدينة بغير نظام، ولا نظام بغير تقدير لعنصر الوقت، ولهذا فالمدينة نفسها تبدأ قبلهم العمل بالشعار المرفوع، إنها تعمل كل ما تستطيع ليتوفر للإنسان المقيم داخلها كل دقيقة من وقته الثمين.

على محطات المترو تحت الأرض يقف الآلاف كل يومٍ في زحامٍ يخيل لك معه أنهم لن يصلوا إلى بيوتهم إلا في اليوم التالي، لكنك تفاجأ أن المترو يمر كل دقيقتين فيتوقف أمام الزحام، فلا يتدافع أحد أو يتزاحم أحد، لأن واجهة المترو كلها أبواب، وكل باب قادر على استيعاب مجموعة من هذا الزحام، نجد أن الزحام كله قد اختفى بعد مترو واحد أو اثنين، وفي كل محطة مترو خريطة

كبيرة للمدينة، وخريطة أخرى لخطوط المترو وتقاطعها ومن أين يمكنك استبدال الخط لتغير الطريق إلى ما تريد، مصحوبة بآلاف العلامات التي تساعدك على اكتشاف طريقك بأقل وقت وأقل مجهود.

وفي الشوارع العامة تجد الشارع مليء باللافتات، هذا شارع كذا، ثم سهم على نفس اللافتة يخبرك أن التقاطع القادم سيكون شارع كذا، وإذا كان بالشارع بناء مشهور يتعامل مع الجمهور، فلا مانع من أن يقول لك على نفس اللافتة أنك ستجده على بعد عدد من الخطوات شمالًا أو يمينًا، وهكذا.

على أعمدة النور في الطرقات، يكتبون أرقام البيوت التي تواجهها، في فوانيس صغيرة مضيئة، يمكنك أن تراها على البعد في الليل، ليسهل عليك أن تجد بسهولة المبنى الذي تبحث عنه.

إن المدينة تعاملك أساسًا على أنك إنسان، وأن وقتك الخاص، هو في النهاية وقتها الخاص أيضًا، وما تضيعه منه هدرًا، تضيعه منها ومن حضارتها في نفس الوقت، فلا تملك أنت غير أن تعطي لعملك وقته كاملًا، تعطيه برضاءٍ كامل وبإخلاص، من الساعة الثامنة صباحًا، إلى الساعة الخامسة بعد الظهر، فلا قهوة في المكاتب، ولا شاي، ولا صديق عابر بمكان عملك يفكر في الصعود ليمضي بعض الوقت الفارغ لديك، إنما هي ساعة محددة بين ساعات العمل الثماني يمكنك أن تخطف رجلك فيها إلى الشارع المليء بالبارات والمقاهي والكافيتيريات، وكلها تحمل طابعًا واحدًا، الأكلة السريعة والمشروب السريع، هناك يأخذ الإنسان قهوته وأكلته، ويدخن سيجارته مع الصديق ثم يرجع للعمل.

ولهذا يكون مبهجًا مشهد ذلك الإنسان الباريسي وهو يعود مع رغيفه المصقول الشهير في المساء، باعثًا على الثقة والطمأنينة.

فكأنما ذلك الرغيف هو مزماره الذي ظل يعزف عليه أنشودة العمل طوال النهار.

إن العمل في باريس يبدأ في الثامنة صباحًا.

العمل العام طبعًا، فهناك مصانع ومشروعات لا يتوقف العمل فيها على الإطلاق، ويتبادل فيها العمال الورديات.

في ذلك العمل يصحو الإنسان الباريسي في السادسة أو السادسة والنصف، وبرودة الليل ما تزال بقاياها في السماء والهواء، إن عليه أن يتزود بإفطاره قبل مغادرة بيته، وعليه أيضًا أن يتزود بأخبار صحيفته.

ويندر أن تجد هناك إنسانًا لا ينتمي بالقراءة لصحيفةٍ ما.

إن الإفطار والصحيفة، من واجباته أيضًا تجاه المدينة، الإفطار ليذهب إلى عمله وهو قادر عليه، والصحيفة ليواجه الحياة في ذلك اليوم وهو أكثر معلومات وأقل جهلًا، بقدر الإمكان.

بديهيات منطقية، يتوقف أمامها الغريب مثلي لصلابة شيوعها وانتشارها، فلم أسمع أبدًا طوال إقامتي هناك، أن موظفًا داخل مكتبه يبدأ العمل، بإرسال الساعي ليشتري له ساندويتشًا من البقال..!

لا يوجد ساعي ولا توجد ساندويتشات من الساعة الثامنة صباحًا إلى الساعة الثانية عشرة حين يتوقف العمل لمدة ساعة، يتناولون فيها القهوة والساندويتشات.

إنك تندهش وتتساءل، هل هو ذلك الشعور بالواجب عند الإنسان هناك، هو الذي صنع حضارة المدينة القائمة على النظام والنظافة والدقة، أم أن تلك الحضارة القائمة على النظام والنظافة والدقة، هي التي صنعت ذلك الإنسان؟.

تندهش وتتساءل، برغم أنك تعرف أن الإنسان دائمًا أصل الأفعال.

إن الإنسان هناك يتبادل مع مدينته بوضوح وأصالة شعورًا بالاحترام والثقة.

وليس أدل على احترام المدينة لسكانها، من ذلك التقدير الواضح بالأفعال، لقيمة الوقت في حياة هؤلاء السكان.

وأن السوق دائمًا خير مثال.

فالسوق هو الحياة، هو الدكاكين والمحلات والفنادق والمطاعم والبارات ومكاتب الموظفين ووسائل الانتقال والمواصلات، هنا يمكن للمدينة أن تعبر للإنسان الذي يسكنها، عن تقديرها لقيمة وقته، فالأبواب قليلة لتوفر عناء الفتح والغلق والإقلاق، والسلالم كهربائية تصعد بالإنسان وهو واقف، لتوفر مجهود الصعود لما يفيد، والبضائع مجهزة ومغلفة أصلًا في أحجام تناسب جميع الاحتياجات، وعليها ثمنها بالتحديد فلا مجال للسؤال والفصال، وهي موضوعة في مكانٍ واضح ومكشوف لتتناولها بنفسك وتذهب لتدفع ثمنها بنفسك عند خزانة الدكان.

أليس ذلك أيضًا مظهر تقدير من المدينة لذلك الإنسان وثقة به؟.

إن آلاف الأنواع من البضائع والأدوات، مرتبة بأكوام على جوانب الممرات في المحلات، لتختار منها ما تريد، دون رقيب، تتجول وتجمع وتنتقي ما تشاء، في سهولةٍ ويسر، يغلفك ذلك الشعور بأن الآخرين يثقون بك، والمحل يثق بك،

والمدينة بأجمعها تعطيك ثقتها، فتبحث عن خزانة الدكان بشعورٍ تلقائي، لتدفع ثمن ما أخذت.

"لكل شيء ثمن" هو شعار السوق، ويتبلور هذا الشعار بوضوح في تلك الآلات الأتوماتيكية التي تعمل بالنقود، والتي تملأ أرصفة الشوارع ومحطات المترو والدكاكين والبارات، آلات عاقلة مدربة بدون عواطف تتلقى الفرنك في ثقبها الجانبي لتخرج لك من ثقبها الأمامي علبة سجائر، ساندويتش سوسيس، كوب عصير، ولكل شيء قدر محدد من الفرنكات لن يمكنك أن تخدعها فيه، آلة ماكرة، سوف تأخذ نقودك الناقصة ولن تخرج لك شيئًا إذا ما حاولت خداعها.

قد تزوغ عين الإنسان بين آلاف المعروضات، لكنه سوف يحسب ما بجيبه وهو يختار، بعقلٍ بارد ودون عاطفة، مثل الآلة التي تبيع.

سيقول لنفسه وهو واقف في دكان البقال يشتري عشاء البيت مثلًا، الله، أما حتة الروستو دي لذيذة بشكل، أكيد حاتتبسط مراتي آن لو شافتها، وتعمل لنا منها عشوة ظريفة، لكن يا خسارة، مكتوب عليها اتناشر فرنك، والنهاردة ماعنديش غير ستة فرنكات، معلهش، النهاردة أكتفي بشرايح السمك الرخيصة دي، بكرة أعمل حسابي أكسب اتناشر فرنك وأشتري الروستو..!

هكذا بتعقل مرح، يجتاز الشعور بالعجز، ولا يترك خلفه أي شعور بالحرمان.

إنه لا يملك البضاعة المعروضة في السوق إلا بقدر ما يملك من النقود، ولا يملك من النقود إلا بقدر ما يعمل.

وبما إنه يمتلك الطاقة على العمل، ويمتلك الوقت الذي يتسع لمئات الأعمال، فلا مجال للشعور بالعجز أو الحرمان، إنما يتأكد لديه الشعور بامتلاك السوق.

والذين لا يملكون الطاقة على العمل من المرضى والعجزة وكبار السن، فإن المدينة تساعدهم بمعاش، أما الذين يملكون الطاقة ولا يعملون، فإن المدينة تسحقهم وتضيعهم.

والكلوشار.. أو صعلوك باريس، هو أشهر هؤلاء المضيعون.

صعلوك باريس

سوف أترك صديقنا جورج يقدم لنا الكلوشار..

يقول جورج:

- عندما حملت صفيحة الزبالة من حجرتي الصغيرة في الدور الرابع لأنزل بها درجات السلم، لم يتطرق إلى ذهني في ذلك الصباح المبكر أية مفاجأة،

ولكن عندما وصلت لنهاية السلم، وفتحت ذلك الباب الخشبي العتيق لأقذف بالصفيحة إلى صندوق القمامة الكبير القابع في بئر السلم، كانت المفاجأة.

جثة رجل سمين تملأ المكان الصغير الذي يكاد بصعوبة يكفي لصندوق القمامة.

ارتبكت من المفاجأة، وتراجعت دون أن أدري خطوة إلى الوراء بقدر ما تسع بقية المساحة الصغيرة المحصورة بين السلم والباب الخارجي وبئر السلم، حتى أني ركنت صفيحة الزبالة وكدت أنسى لماذا حضرت هنا، فالعادة أني، وكما يفعل أهل باريس، أضع بقايا المهملات في ذلك الصندوق المستدير الكبير كل صباح، ثم تمر سيارة البلدية وتجمعها، فتتنفس المدينة الكبيرة دون رائحة العفن والعطن.

نسيت كل هذا وأمامي ذلك الجسد الضخم الغارق في أنفاسه أو كما يقول الأدباء (يغط في نومه).. وكأني أعتذر فأرد الباب برفق، أو كأني أقول له متأسف، وكما يقول أهل الفرنجة هنا (باردون).. حتى لا أوقظه.

وتذكرت مرة أخرى موضوع الزبالة، فالتفت إلى الوراء لأجد أنه قد أخرج صندوق القمامة الكبير ووضعه بجانب الباب الخارجي الكبير، وكأنه يسهل المهمة لرجال البلدية بدلًا من أن يدخلوا ويفتحوا ذلك الباب الصغير في بئر السلم المثلث، و... وحتى أيضًا، وربما أو الأغلب أنه خشى أن يعثروا عليه بدلًا من الصندوق، فيكون ربما مصيره مثل بقايا المجتمع أو مهملات الحياة؟!.

كانت هذه المرة الوحيدة التي التقيت فيها بهذه الشخصية، حتى أن فضولي كان يلح أن أراه وجهًا لوجه، فقد كانت المقابلة دون أن أرى ملامح وجهه، ربما لأنه كان يتدثر أو يتغطى بشوال قديم أو ربما أيضًا من الظلام، كل ما أذكره هو تلك الكتلة البشرية المقرفصة في ذلك المثلث الصغير في آخر السلالم.

إلى أن بدأت أراه يوميًا وهو على ناصية تلك الحارة التي نسكن فيها من حي سان ميشيل، وكأنه يتابعني بنظراته إلى أن أدخل ذلك الباب رقم أربعة وأربعين، وتطلعت إليه بنظرة خاطفة فقرأت بسرعة في وجهه شبه ابتسامة تقول اننا سكان عمارة واحدة!.

هذا هو «الكلوشار» أو «الصعلوك».. وهو سكير دائمًا، مغني أحيانًا، كسول بطبعه فهو لا يعمل على الإطلاق، ولكنه الوجه الحقيقي لباريس، وهو فيلسوف في أغلب الأحيان أو واحد من ظرفاء باريس أحيانًا أخرى، وهو يقابلك في الطريق فيسألك في كبرياء، من فضلك ابحث في جيوبك يمكن تلاقيلي خمسة فرانكات «خمسين قرش» بالصدفة..!

انتهت حكاية صديقنا جورج..

وبعض العبارات السياحية الطنانة تقول: إنه إذا كانت بريجيت باردو هي وجه باريس الواضح، فإن الكلوشار هو الوجه الآخر الخفي، وقد يكون هذا صحيحًا من زاويةٍ ما، فهؤلاء الصعاليك قد اكتسبوا طابعًا خاصًا مميزًا جعلهم من أشهر الشحاذين في أوروبا، إنه لا يستدر شفقتك على الإطلاق، إنما هو يستفزك، يدخل في محطات المترو بتذكرة مثله مثل باقي الركاب، ويأخذ جانبًا ويغني بصوتٍ عال، فهو لا يمتلك آلة موسيقية، أو يركب المترو ويصرخ معلنًا رأيه في الحكومة القائمة أو يتدخل في مناقشة اجتماعية مطروحة في الصحف في ذلك الحين، ويصبح غناؤه وصراخه اقتحامًا للصمت الأنيق السائد في المجتمع هناك، ثم يختار بكبرياء واحدًا من الناس ويطلب منه عددًا لائقًا من الفرنكات وغالبًا ما يحصل على ما يريد!.

وقد يلقاك جالسًا في بقعة الشمس في الحديقة العامة، فيبدأك بالحديث قائلًا أنه قد تمكن من شراء بعض الخبز والجبن، وزجاجة من النبيذ، ويدعوك لمشاركته الطعام والشراب.

وفي الليل ينزوي خلف أبواب البيوت في المثلثات الضيقة التي توضع بها صناديق الفضلات وحين يعبر به أحد سكان الشقق في الصباح، يبتسم له ويحييه، باعتبارهما سكان عمارة واحدة!.

ليس فيلسوفًا، إنما هو حالم، لم يستطع أن يطوع مزاجه الشخصي ليتسق مع المزاج العام، فتنازل عن المال والراحة ووفرة الطعام، واكتفى بالقناعة، تنازل عن الطموح ليحفظ لمزاجه الخاص حريته في التنازل عن كل المسئوليات وأهمها مسئولية الانضباط كنغمة متسقة داخل أنشودة العمل اليومية في المدينة التي يسكنها، النهوض المبكر، والركوب للعمل، والعمل نفسه في ميكانيكيته الدقيقة والرتيبة، ثم العودة آخر النهار بأحلام الترقي وقلق الطموح الناتج من أداء الواجب واكتساب رضى الرؤساء.

إنه يتنازل عن ذلك كله ليكون حرًا – تلك هي حدود فلسفته – لكنه لا يكون حرًا، إنما يصبح عبدًا لهذا المزاج الشخصي الذي يمثل نشوزًا في المجتمع العام، يأسره داخل مظهر مبتذل، وحياة وضيعة مبتذلة، وتصبح تلك الفلسفة تحت الفحص الدقيق، عجزًا بينًا، ويصبح هذا الشحاذ الظريف مثالًا لعدم الانضباط، مثالًا لما هو مرفوض من المجتمع من عناصر الفوضى والتمرد والقذارة والضعف الخلقي الذي يعجز عن حمل الالتزامات والمسئوليات، فلا يمكن أن تستقيم الحياة على مدارج التقدم في مجتمع أو مدينة ما، دون إحساس واضح بالمسئولية والانضباط داخل كل فرد من السكان.

دون أن تصبح فكرة العمل مبدأ أخلاقيًا من المبادئ التي يعتنقها هؤلاء السكان، وعلى هذا الضوء تصبح كل الأعمال شريفة وعظيمة، من أول بناء السفن والصواريخ، إلى إزالة الفضلات من الطرقات.

ويصبح لكل عمل من الأعمال وقته المناسب ومسئوليته المناسبة، وجزاءه المناسب أيضًا.

إن في باريس عددًا هائلًا من الغرباء، بعضهم يأتي للسياحة والفرجة في عاصمة النور الشهيرة، وبعضهم يأتي للدراسة وطلب العلم، والبعض يأتي للسياحة أو طلب العلم فتبهره الحياة في باريس وينسى السياحة وينسى الدراسة ويترك نفسه على سجيتها في الحي اللاتيني ومونمارتر وأرصفة السكركير وسلالمها الألف المرتفعة والشهيرة، يودع ميزانية السائح أو الطالب المحسوبة بالفرنك وعدد الأيام، ويكتفي بالقناعة ومجرد التواجد في مناخ باريس، مجرد الاستمتاع بالتواجد في هذا المناخ والاكتفاء بحياة الكفاف على ساندويتشات الهوت دوجز الأمريكانية التي ملأت فترينات أوروبا في السنوات الأخيرة، وزجاجات النبيذ الرخيصة التي يقل ثمنها عن عشرة قروش، ولا مانع طبعًا من عمل عابر بين الحين والحين يكفل هذه الضرورات، فالعمل الدائم يتطلب منك إصرارًا واضحًا عليه، وسعيًا حثيثًا له وعشرات المسوغات الأدبية والمعنوية التي يجب عليك أن تقدمها للمدينة حتى يمكنك أن تحصل منها على تصريح بالإقامة للعمل والاستمرار.

ولقد أمتعني زمار تونسي يعزف على الأرغول في مقهى شبه شرقي في حارة جانبية من حواري الميدان الصغير الذي يضم الأوديون في الحي اللاتيني، ورأيت في سان جيرمان وسان ميشيل عشرات من محلات الحلوى الشرقية أصحابها تونسيون، يبدو عليهم وعلى محلاتهم أن لهم تاريخًا طويلًا في الإصرار والدأب مع المدينة، حتى أعطتهم فرصة العمل الدائم، ثم أعطتهم بوفرة وسخاء ثمار هذا العمل فاقتنوا السيارات وبنوا الفيلات وأقاموا رصيدًا هائلًا في البنوك.

ورأيت في شارع الأوبرا عربيًا يمتلك محلًا من ثلاثة طوابق لتفصيل القمصان الرجالي والتفنن في الموديلات.

إن المدينة تعطيك إعجابها كحالم وكمالك لموهبة التجلي والخيال، لكنها أبدًا لا تعطيك ثقتها، إلا إذا وثقت من قدرتك على تحويل هذا الخيال إلى طاقة عمل وإنتاج.

حينئذ تعطيك المدينة ثقتها وخيراتها بوفرة وسخاء.

ويمكننا الآن، ومن هذه النقطة، أن نترك الحديث عن الخبز، ونبدأ الحديث في الحب، ذلك الضلع الأساسي في مثلث الخبز والحب والحرية، المزيج الذي رأيناه يشكل المدينة في الحقيقة، بصورة مغايرة، لما كنا نتخيلها عليه.

عن الحب عمومًا

يخيل لي أحيانًا أن البني آدم في مصر يتعامل في الحياة اليومية مع أخيه البني آدم، وكأن بينهما تارًا مبينًا وضغينة، فتبدو معظم هذه الأفعال اليومية التي تصدر عنه، وكأن لا هدف لها ولا غاية إلا إزعاج البشر الآخرين والانتقام منهم.

خذ عندك مثلًا يومًا ممطرًا تتحول فيه الشوارع العامة إلى برك ومستنقعات في وسطها، وترع وقنوات في جانبيها من ناحية الأرصفة، في يوم مثل هذا يحلو لبعض سائقي الأتوبيس كلما اقترب من محطته أن يختار أعمق هذه القنوات والترع ليقف فيها، ويستند ببرود شديد إلى عجلة القيادة متعجلًا بتلذذ الركاب النازلين في تلك المحطة، العاجزين عن مغادرة السيارة أمام هذا المأزق الذي وضعهم فيه.

في يوم مثل هذا يحلو لبعض سائقي عربات الأجرة والعربات الخاصة أن ينطلقوا بالسرعة المعتادة، قاذفين بأقصى قوة مفاجئة، من تحت عجلاتهم المندفعة، شظايا هائلة من الماء والوحل، على ملابس إخوانهم من البشر السائرين على الأرصفة!.

بل خذ عندك مثلًا تلك السيدة الإقليمية غادرت مقعدها في الأتوبيس العام منذ أيام ووقفت إلى جوار السائق ترجوه أن ينزلها عند حديقة الحيوانات، فهي غريبة عن القاهرة ولا تعرف الحديقة، فأنزلها بنذالة وخسة عند محطة قصر العيني الجديد، دون أن ينطق بحرف، أو يقول لها كلمة، وبعد نزولها نظر إلى الراكب المجاور له قائلًا: «مسكينة، حاتعدي كوبري الجامعة كله على رجليها دلوقت، أصل ملناش محطة عند جنينة الحيوانات!.

وحقيقة الأمر أن له محطة عند حديقة الحيوانات، لكنها ذات مرة ألغيت، ثم أعيدت، لكنه ما يزال يتشبث بالإلغاء!.

إن المواصلات العامة، ليست هي المثل الوحيد على القسوة والغلظة والضغينة التي يتعامل بها البني آدم في بلدنا مع أخيه البني آدم، فالأمثلة في كل المجالات كثيرة.

ولقد رأيت في باريس كل السيارات دون استثناء تهدئ من سرعتها تمامًا قبل الخطوط البيضاء التي تسمح بعبور المشاة، سواء كانت إشارة المرور مفتوحة لها أو مغلقة، فما دام هناك عند هذه الخطوط شخص يرغب في

العبور، فليعبر أولًا، تتوقف السيارة ويبتسم صاحبها للواقف ويشير له بيده ليعبر وكأنه يقول له.. تفضل.. اعبر أنت.. فأنت لا تملك سوى قدميك، فلأوفر لك الوقت، ولأنتظرك أنا حتى تعبر، ثم أعوض وقتي بهذه السيارة التي أملكها، إنه لا يقول هذا بصوتٍ عالٍ طبعًا، لكنه في دخيلة نفسه يقال، إنه شعور عام بالتعاطف والمودة، يتزايد وينتشر ويعم حتى لتوشك أن تحسبه حبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

وهو في الحقيقة حبًا.

إن الشعارات الطنانة تقول إن الإنسان يحب وطنه ويحب مدينته، فأين يكون هذا الحب إن لم يظهر منعكسًا في تعاملنا مع الإنسان الذي يسكن معنا في هذا الوطن أو في هذه المدينة.

وبهذا المنطق يكون الحب سمة من سمات الأشياء والأفعال في باريس، إنه يلمس بعصاه السحرية كل الأشياء وكل الأفعال فتثمر أفضل النتائج وتعطي أجمل الأشكال، وأنا هنا أتكلم عن الحب بمعناه الشامل المطلق، إن سائق الأتوبيس في باريس يحب الأتوبيس الذي يعمل عليه فيرعاه ويحافظ عليه ويحنو على آلاته، ويحب ركابه فيجنبهم ما يسيئهم ويفعل ما يقدم لهم الراحة.

والسائق هنا ليس إلا مثلًا، فقد رأيت جميع الناس هناك يسيرون في الطرقات وعلى وجوههم ابتسامة تتسع كلما لقى أحد منهم الآخر، وكلما أتاحت له الظروف موقعًا يقدم منه لهذا الآخر تسهيلًا أو خدمة، إن المودة تشع منهم دون انقطاع، فتجعل الحياة أسهل وأكثر بهجة، فإن كنت غريبًا عن المدينة ودست بقدميك على حشائش الحديقة العامة، فسرعان ما يترك أحد المتنزهين ما كان يشغله ويقترب منك ليرجوك أن تنزل عن الحشائش ولا تفسدها..!

هي حديقة عامة أي نعم، ولا يملكها هو بصفة خاصة، لكنه يحبها، ولأنه يحبها فهو حريص دائمًا على أن تبدو له وللآخرين في أحسن وأجمل أشكالها.

هذا الحب العام الشامل على ما أعتقد، حب الشيء لذاته، القائم على حب الجمال والفضائل هو ما لا نعرفه نحن هنا، ما لم نتعلمه منذ نعومة الأظفار، ما لم يغرس فينا غرس الخلايا في الجسم وهو ينمو سنة بعد سنة، ولهذا فالحب عندنا مرتبط ارتباطًا مباشرًا ووثيقًا بما نمتلكه، وما نسيطر عليه، وما يمكننا أن نستفيد فائدة عاجلة منه، وينعكس هذا بوضوح تام في علاقاتنا العاطفية بالمرأة هنا، ويبدو لنا هذا بوضوح أكثر، عندما يصل بنا هذا الحديث إلى الحب الخاص في باريس بين الرجل والمرأة، بل إنه حتى في نطاق الحب العام البدائي والدارج، ذلك الحب الذي يكون بين الأب وابنه، والأم وابنها والابن وأهله واخوته، حتى في نطاق الحب البدائي الأصل، تكتشف أن مفاهيمنا مائعة ومغلوطة، فيؤتي ما نسميه حبًا، ثمار الكراهية والإيذاء.

لقد رأيت كثيرًا من الأمهات الشابات في بلادي ما زلن يحملن طبق الطعام ويتجولن به في أنحاء البيت خلف أطفالهن، من مكانٍ إلى مكان لإطعامهم عنوة في سنواتهم الأولى، وكلما زاد العرض، زاد عناد الطفل وتملصه ورفضه، فلا تتراجع الأم حتى ينتقل الطبق إلى معدة الطفل، وينتقل العناد

إلى طباعه وخلقه، ورأيت في باريس أمًّا تربط طفلها في مقعد الطعام في موعده، وتترك الطعام أمامه، يأكل بعضه ويعبث في بعضه، ويلوث كما يشاء مقعده، وملابسه، حتى تنتهي من أشغالها فتعود إليه تحمله وتغسله، دون أن تهتم بما أكل وبما ترك، فإن لم يأكل هذه المرة سيأكل في المرة القادمة، إنما المهم عندها أن يأخذ حاجاته بنفسه، وأن يتربى عنده الشعور بأنه إذا لم يملأ معدته بنفسه، فلن يملأها له أحد.

ورأيت في ميدان الجيزة إمرأة متوسطة العمر في معطف من معاطف الطبقة المتوسطة، تحمل سبتًا مليئًا باللحم والخضروات والصابون ومشتريات السوق، وتحمل أيضًا حقيبة يدها، وتحمل فوق ذلك كله على كتفها بغلًا – ولا مؤاخذة – طفلًا في الخامسة من عمره، فشخ ساقيه حول كتفيها وتشبث بأظفاره في شعر رأسها، لأنها تخشى عليه من عبور الميدان طبعًا.

ورأيت على سلالم المترو المرتفعة في محطة لكسمبورج أمًّا باريسية وطفلين في الثالثة والرابعة، يستنجدان بها لتأخذ بيديها وهما يصعدان فترفض، وتسبقهما مبتسمة وهي تشجعهما على الصعود وحدهما.

فأيهما بالله أكثر حبًا لأولادها، تلك التي تربيهم على العجز والكسل والاتكالية، أم تلك التي تغرس فيهم منذ نعومة الأظفار عادات الصلابة والقوة والاعتماد على النفس؟!.

من تلك الأشياء الصغيرة البديهية يتكون الإنسان هناك، وتتربى مناهجه ومثله، ويبقى بعد ذلك أن ينطلق من الحب العام للمدينة بما تحتويه من أشياء وبشر، إلى الحب الخاص بين الرجل والمرأة.

ومظاهر هذا الحب الخاص شائعة في الشوارع والحدائق والمقاهي والبارات وعلى الجسور وضفاف الأنهار، شيوعًا يدهشك كغريب فتقف أمام صور العناق والقبلات الشائعة بين الرجل والمرأة في تلك الأماكن العامة، ثم تخجل من نفسك ومن اندهاشك حين تكتشف أن هذا الذي أدهشك لم يدهش أحدًا غيرك، وأن الاعتراض الذي أوقفك ليس في الفعل الذي يحدث، ليس في العناق الحار، ولا في القبلة السافرة الواضحة، إنما الاعتراض في داخلك أنت، أنت الغريب القادم من بلاد تعرف الحب بشكلٍ مختلف.

ولك أن تتصور محطة مترو مثلًا، من تلك المحطات الفاخرة المختفية تحت الأرض، تنزل إليها بسلالم عديدة، لتجد في مواجهتك دكاكين تبيع السلع الصغيرة وأصناف الحلوى الأنيقة المختلفة التغليف، والسجائر أحيانًا، إذ أن السجائر أساسًا تباع في المقاهي والبارات، لك أن تتصور هذا وإلى جواره ثلاثة تليفونات عمومية من تلك التي يلقي الناس في ثقوبها بالفرنكات، ويتكلمون ما شاء لهم الكلام، طالما ليس خلفهم طابور ينتظر دوره، فإذا كان

هناك طابور فلابد ستجد في الطابور فتى وفتاة، أحاطت وسطه بذراعيها، ولابد وأن الفتى يضمها إليه، ويقبلها بين الحين والحين، حتى يجيء عليهما الدور.

وفي عربات المترو وعربات الأتوبيس سوف يتعانق الفتى والفتاة وسط الزحام، وفي الشوارع سوف يسيران معًا وكل منهما يحتضن الآخر، وعلى الجسور والكباري الجميلة المزينة بالتماثيل فوق نهر السين، سوف يتوقفان أمام أي منظر طبيعي يوحي بالجمال، ويتبادلان العناق والقبلات، وقد تكون القبلة سريعة أو عميقة، وقد تكون الفتاة ترتدي الماكسي، أو ترتدي الشورت الذي يكشف عن الفخذين، لكن هذا كله لا يهم، وهذا كله لا يجرح الحياء العام، فالقبلة هناك ليست كما نفهمها هنا، مفتاحًا يفتح باب الجسد للولوج إلى عالم الجنس والتناسليات، بل هي مفتاح للشعور، تعبير رقيق ومرهف عن الشعور الذي يشعر به الإنسان تجاه الآخر، يتبادلها الصديقان أحيانًا في الطرقات، ويتبادلها الزوجان والعاشقان عند اللقاء والفراق سواء كان ذلك في البيت أم في الطريق العام، ويتبادلها الناس عمومًا كلما اهتز شعورهم أمام إحساسٍ ما يوحي بالحب والجمال، ليست مفتاحًا لعالم الجسد، بل هي مفتاح للشعور.

وقد تذكرت هناك عددًا كبيرًا من الأزواج هنا، يشعرون بالخجل والحياء فلا يستطيع أحدهم أن يقبل الآخر أمام الأولاد.. "عيب مايصحش قدام الأولاد".. كلمة مخيفة تجعل الأولاد ينشأون وهم يتصورون العيب فيما لا عيب فيه.. ينشأون على الخجل والحياء من مشاعرهم الطبيعية التي وهبهم الله، ولعل ذلك نابع أصلًا من نظرتنا هنا للمرأة، ونظرتهم لها هناك، إن المرأة هنا عيب، كلها وبأجمعها عيب وشر، فهي هنا ضرورة للطبخ والغسل والاستمتاع وإنجاب الأولاد، ليست شريكة إنما هي تابعة، لا رأي لها ولا حرية، إنما الرأي والحرية للرجال، وآلاف الحكم والأمثال الشعبية القديمة التي ورثناها تحذرنا من المرأة ومن جسدها الذي هو عورة، جسدها الذي هو فضيحة يجب أن تغطى، وإذا كشف فعلى الدنيا الفناء.

أما هناك فإن المرأة نعمة، تحفة من الجمال والرحمة وهبها الخالق للإنسان، هي شريكة وليست تابعة، ولها الرأي ولها الحرية مثلما للرجال تمامًا، فلا فرق ولا تمييز، بل أن جسدها ليس عورة أو فضيحة، إنما هو تحفة من التحف الرائعة الخلابة، تدعو للنظر وتدعو للتأمل والإعجاب والتعليق، وقد جسدوا هذا الجسد في آلاف التماثيل الرخامية على مر الأجيال، زرعوها في الحدائق الكثيرة المتناثرة في أنحاء فرنسا، جسدوا هذا الجسم الأنثوي بل والجسم الرجولي أيضًا، عاريًا بكل أجزائه وأعضائه، جسده فنانون عظام ألهمهم الجسم البشري آلاف الأفكار العظيمة والخيالات العظيمة والأعمال العظيمة.

لقد تخلص الجسم الإنساني هناك من فكرة الشرف القديمة التي كان مكبلًا بها في القرون الوسطى والأزمنة القديمة، وأصبح الشرف في العقل والتفكير وليس في الجسد وأعضائه، وأصبح الجسم العاري متعة جمالية تمس النفس وليس متعة حسية تمس الغرائز، وللنفس وقتها وللغرائز وقتها هي أيضًا، ولا يمكن أن يخلط الإنسان المتحضر بين الإثنين.

إننا نربي أولادنا على الخطأ بإصرار تام، والخطأ يبدأ من التمييز بين الولد والبنت، يبدأ من اللحظة التي ينتظر الأب فيها ولادة الولد بلهفة، وولادة البنت بضيق، وهذا يلاحظ بوضوح في المستويات الاجتماعية والاقتصادية الهابطة، فالحاجة لمعاونة الابن شديدة، وكلما ارتفع المستوى وتحضر الناس، يقل هذا التمييز حتى ينعدم تمامًا، والخطأ يستمر من تدريبنا للبنت على طاعة الولد والخضوع له، من تحذرينا وتخويفها من الانفراد به بدلًا من تدريبها على الفهم والاستقلال والشعور بطبيعة العلاقة بينهما وصحتها.

والخطأ يستمر من ضآلة عدد البنات في الأماكن العامة، والحياة العامة، وإخفائهن في البيوت وليس مهمًا أنهن يملأن الآن المكاتب والمدارس والدواوين، فخارج نطاق العمل الذي ينظر إليه باعتباره مورد للمعيشة، وليس جزءًا من الشخصية الإنسانية للمرأة، سوف نجد كل المقاهي والمطاعم والكافيتيريات مليئة بالرجال الذين يسهرون وحدهم، وأماكن النزهة والفسحة مليئة بالشبان الذكور الذين يتنزهون ويتفسحون وحدهم.

وهذا الفصل بين الجنسين يؤدي إلى تزايد الشعور بالخوف من الرجل عند البنات، وبالحرمان من المرأة عند الشبان، وهكذا تقع الخطيئة فورًا، قبل أن يقع الحب، بمجرد أن ينفرد الإثنان في مكان، بينما لابد أن يقع الحب هناك قبل كل شيء، فإن لم يقع الحب، فلن يحدث شيء، وسوف تسهر الفتاة ما شاء لها السهر، وتخرج وتتنزه مع أصدقائها وصديقاتها كما تشاء، ثم تعود إلى بيتها سعيدة ومبتهجة، دون أن يعتدي عليها أحد، أو تفقد من شرفها شيئًا..!

لقد رأيت هناك صبيانًا صغارًا في الرابعة عشر أو الخامسة عشر، يتفسحون في حدائق لكسمبورج والتويلري مع صديقاتهن أو شقيقاتهن من نفس السن، ورأيت كيف يشعر الصبي بعظمة النعمة التي تسير بجواره ممثلة في هذه العروس الصغيرة، وكيف يشعر أن من أبسط واجباته تجاه هذه النعمة، أن يوفر لها أكبر قدر من الرعاية والعناية حتى لا يخدش مزاجها شيء.

ورأيت بمصر صبيانًا في نفس السن يخرجون مع أخواتهن البنات، لأن الخروج مع الصديقات مستنكر وممنوع، فلم أشعر إلا بأن الصبي سجان أو على الأقل حارس للفتاة، شعرت أنه مثقل بالشعور بالذنب، وأنه مضغوط بواجب حماية

هذه الخطيئة المتنقلة التي تسير إلى جواره، حتى لا يخطفها أو يعتدي عليها أحد!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

شرق وغرب

لو عرضت دانييل للاختيار في بحر النساء الواسع، لما وقع عليها اختيار أحد بسهولة، فهي من الناحية الشكلية سمينة الوجه، وأنفها محدب نوعًا، وجسدها يحمل طابع الجمال العادي لبنات الشمال الوافدات بالدرجة السياحية في القطارات والطائرات من النرويج والدانمرك، إلى فرنسا وانجلترا للعمل المؤقت والسياحة واكتساب مزيد من الخبرات بالانتساب لإحدى الجامعات، أو الانطلاق في تيار الحياة الجارف.

هي نموذج متكامل لهؤلاء البنات اللواتي أتاح لهن مجتمع الشمال المتحرر هذا، رصيدًا من التجارب المتشابهة والمتكررة لدرجة أن ما تحتويه من لذة قد أخذ يتضاءل بفعل السأم، إلا أن هذه التجارب المتشابهة المتكررة قد أكسبت شكل دانييل العام نوعًا من جاذبية النضج، وأضفت على شخصيتها سمات الاعتداد والثقة.

والفتى الحلبي اسمه هاشم، لو عرض للاختيار في بحر الرجال الواسع، لوقع عليه الاختيار بالإجماع، فهو من الناحية الشكلية ضخم الجثة، يبلغ طوله المترين تقريبًا، مفتول العضلات، مجدول الخصر، شعره الكثيف وذقنه الطويلة، تؤكد ملامح وجهه الآشورية.

جاء من سوريا إلى باريس، لا يستطيع جسده الشامخ هذا أن يخفي خجله الشرقي، فأسكن هذا الخجل في غلافٍ سميك من الهدوء الذي يمكن أن يخفي تحته عاصفة، قدم إلى باريس مثقلًا بلوحاته التي بسط على قماشها ألوان موهبته الشرقية في فن الرسم ليلتحق بأكاديمية الفنون الجميلة، ويهيم في أبهاء متحف اللوفر وقاعاته المهيبة، وقد أمضى في باريس ثلاث سنوات، متقدمًا في دراسته الفنية سنة بعد سنة، متنقلًا كفراشةٍ تمتص الرحيق من أزهار المتاحف العريقة في باريس، وقد أقام معرضين لصوره في إحدى القاعات التي تمتلئ بها شوارع حي الفنانين والطلبة، وباع ثلاث لوحاتٍ كانت تعطيه الأمل في معيشةٍ باريسية متقدمة.

كان سعيدًا كفراشةٍ حرة، يتطلع إلى إكمال السنتين الباقيتين من دراسته ويصنع لنفسه من خلالهما في عالم الرسم اسمًا معروفًا إلى حدٍ ما، يعود به إلى بلاده، ولم يكن قد استطاع أن يتخلص نهائيًا من الخجل، فقد بقى له حياؤه الشرقي الذي لم يكن منسجمًا أبدًا مع هيكله العملاقي.

وقد كان من الممكن جدًا أن يعبر هاشم أحد شوارع باريس بالفتاة دانييل دون أن تلفت نظره، أو حتى يلقاها ويحدثها في إحدى المقاهي أو البارات دون أن يحمل معه وهو يغادرها، ما يجذبه إلى معاودة لقائها أو معاودة

الحديث معها، دانييل هذه نفسها، غادرت الأخ هاشم في باريس وهو يقاوم فكرة الانتحار، يأسًا من غرامه المشبوب لها.

لقد رأته واقفًا بقامته وملامحه الآشورية شامخًا مشدوهًا أمام إحدى لوحات اللوفر، وكانت واقفة مع زميلتين وزميل أمام لوحة مجاورة فصاحت مدهوشة تناديه: أنت أيها الشاب تعال من فضلك.. وقد استدار هاشم حوله فلم يجد في المكان غيره، بينما كانت تصيح به مؤكدة: نعم.. أنت ولا أحد غيرك.. أريد أن نتحدث معًا.

ما كاد يتقدم منها حتى لاحقته بأسئلة متوالية.. ما اسمك؟.. وكيف يمكن الاتصال بك؟.. وما هي أوقات فراغك المناسبة؟.. كم عمرك؟.. من أين أنت؟.. لماذا أتيت؟.. وأين تقيم؟.. وانتهت الأسئلة التي أجاب عليها جميعًا، بأن أمرته أن ينتظرها في مرسمه، في اليوم المناسب، وفي الساعة المناسبة التي حددها لها، لتقوم بزيارته مع أصحابها ويشاهدون ما يرسمه.

وفي اليوم المناسب والساعة المناسبة هيأ هاشم مرسمه واجتهد في ترتيبه، واستعار نقودًا من صديق، اشترى بها نبيذًا وخبزًا وقطعًا مشوية من اللحم وقطعًا مزخرفة من الحلوى، بل إنه اشترى زهورًا لضيوفه أيضًا.

لكن دانييل جاءت وحدها.

قالت له مباشرة أن زملاءها قد سافروا إلى لندن، وأنها بقيت من أجل موعدها معه.

ولم تشاهد دانييل لوحات هاشم بدقة، إلا في اليوم التالي حين انتبهت من جواره مبكرة في الصباح فغادرت الفراش إلى المطبخ فأعدت قهوتها، وجلست على طرف الفراش ترشف القهوة بينما هي تتأمل الفتى الحلبي ولوحاته.

ويقول هاشم إنه كان من الممكن أن يعبر بدانييل في شارع، أو يلقاها ويحدثها في مقهى أو بار، دون أن تلفت نظره، أو تترك في نفسه ما يدفعه لمتابعتها، لكن هذا اللقاء الذي فرضته وحددت هي مكانه ونوعيته، جعلها تنفذ إلى أعماقه وتستقر فيها، لقد اقتحمته وهزمته واستولت عليه.. على حد تعبيره هو.. أما هي فتقول: بالعكس.. أنا أسيرته.. لقد زرته في مرسمه فأسرني.. ويخيل لك وأنت تسمع هذا الكلام أنهما عاشقان يذوب كل منهما في الآخر بفعل السعادة.. لكن جارهما يؤكد لي أنهما أتعس عاشقين في باريس.

وفي أنصاف الليالي كثيرًا ما يستيقظ على صراخهما فيقتحم عليهما الغرفة ليفض المعركة الرهيبة التي تنشب بينهما بسبب الغيرة، غيرتها عليه، أو غيرته

عليها، فيسألهما لماذا لا تتزوجان؟.. فيقول هاشم أنها ترفض.. تقول أنها لا تطمئن لي.. بينما تصيح دانييل.. بالعكس.. إنه هو الذي لا يريد.. إنه لا يطمئن لي.

وتندهش.. هناك اثنان متحدان في الهدف، كما يبدو من كلامهما، متحدان في الرغبة، وكل منهما يلقي بتبعة عدم التنفيذ على الآخر.

وقد أمضيا معًا على هذه الحال أربع سنوات، أربع سنوات وهاشم يسمي دانييل بين أصحابه، حبيبتي الشمالية، وهي تسميه بين أصحابها، معبودي الآشوري، ويختلسان من بحر العراك قطرات من السعادة بين الحين والحين، ولا يستطيع أحدهما أن يهجر الآخر كما لا يستطيع أحدهما أن يعطي للآخر نفسه كلها، بسبب عدم الطمأنينة.

وتبحث عن السر، فلا تجد سوى القلق.

إنهما روميو وجولييت العصر الحديث، لا يفصل بينهما هذه المرة، عداوة أهل أو تقاليد قاسية، إنما يفصل بينهما حائط من الغربة التي هي طابع هذا العصر، قائم في دخيلة كلٍ منهما.

إنهما وجهان في صورةٍ شائعة في شوارع باريس المزدحمة بالغرباء عمومًا.

عن الهلس عمومًا

يكاد يكون من طبيعة الأشياء أن تجد في كل مدينة حيًا محاطًا بالشبهة، سيء السمعة، لا يكاد يذكر اسمه حتى تقفز إلى الذهن عشرات من الصور والمواقف النابعة من صميم الغرائز البدائية، التي يسعى الإنسان في مسيرته الحضارية إلي قهرها، أو على الأقل تهذيبها.

في مثل تلك الأحياء يستطيع الشواذ وضعيفو الإرادة والمنحرفون بالمرض أو بضغط الحاجة أن يجدوا راحتهم وملجأهم الأمين في منفاهم المؤقت بين أشباههم والعاطفين عليهم.

كانت تلك الأحياء في الماضي، أشبه بمعزل خاص تجمع المدينة حثالتها وغرائزها الخبيثة وتلقي بها فيها، فتزدحم بالساقطات ومدمني المخدرات والمقامرين والبلطجية واللصوص، فالدعارة كانت مباحة بحكم القانون، وبيوت اللهو – غير البريء طبعًا – خاضعة للإشراف الصحي والنظام والنظافة، وكانت بقية المدينة التي عزلت آثامها في هذا الحي والتي تعاني من الكبت والتحفظ والحياء العام، تتسلل سرًا إلى هذا المعزول، تمارس غرائزها فيه، فاكتسبت تلك الأحياء نوعًا من السفالة في طابعها العام، وتميز سكانها بإسقاط برقع الحياء تمامًا، أمام هذا النفاق الاجتماعي الذي يكونون هم أول من يكشفه ويطلع عليه.

من ذلك الواقع الاجتماعي القديم في مظهره ومنهج تفكيره، اكتسبت تلك الأحياء شهرتها التي تدوي في المدن الأخرى، فأصبح هم كل سائح من مدينة إلى مدينة، أن يهرع إلى ذلك الحي المعزول للممارسة، وربما للاطلاع على الغرائز الخاصة للمدينة التي يزورها.

ومن واجبنا أن نكتشف الآن لأننا لم نستطع أن نكتشف من قبل بسبب التغيير البطيء، أن هذه الأحياء التي تحمل على جدران مبانيها وفي أعماق فراغاتها تاريخًا مدويًا من الشهرة في عالم الهلس والفساد، قد بدأت الآن في تلك السنوات الأخيرة من القرن العشرين، تفقد طابعها القديم الذي عفا عليه الزمن، أصبحت أشبه بدكان مكوجي طرابيش مثلًا في شارع قصر النيل..!

لقد منع القانون الدعارة في معظم مدن العالم تقريبًا، لكن التحفظ زال بزوال المجتمعات القديمة المتعصبة أو تغييرها بتعاقب الأجيال والحروب، ومفهوم الحياء العام في المدينة الحديثة قد تغير وأحيط بآلاف الأبحاث والمناقشات الفكرية واختلف باختلاف الذوق العام وتغييره، والأخلاق العامة وتغيرها، ولم يعد مستنكرًا بوضوح أن يكون للأوروبي عشيقة يسميها المجتمع الحديث صديقة، أو يكون للأوروبية عشيق يسميه المجتمع الحديث صديق.

وأصبح من حق الفتاة أن يكون لها حبيب في فترةٍ ما، وأن يكون لها حبيب آخر في فترةٍ أخرى، لأن لها مثل ما للرجل من حق التجربة والخطأ والصواب، وهكذا لم يعد الكبت الجنسي في الغرب مشكلة إلا بالنسبة لعدد ضئيل جدًا من النساء والرجال الذين يعجزون عن إقامة علاقات وصداقات في مجتمع أخريات القرن العشرين الذي أذاب عشرات السدود والحواجز التي كانت قائمة في المجتمعات القديمة بين الجنسين.

وانتشرت في العالم كله شبكات الكول جيرلز والكول بويز، حيث يمكن لمن يملك النقود أن يطلب بالتليفون ما يشاء أو من يشاء، فتى أو فتاة، ليمضي معه السهرة أو يقضي معها الليل.

بل حتى الجريمة قد تطورت بتطور المدنية، فأصبح للصوص والقتلة مؤسسات منظمة لها مكاتب وإدارات ومجالس إدارات، ولها فروع في مختلف المراكز والبلدان، ولم يعد أعضاؤها في حاجةٍ إلى التمركز في أحياء الهلس والبغاء.

وأصبحت تلك الأحياء الشهيرة كالمرأة المهجورة، ذهبت محاسنها وذهب إغراؤها، وأصبحت تعيش كالغانية العجوز على سمعتها القديمة والسابقة.

فمن أشهر تلك الأحياء مثلًا، حي بيجال في باريس، الذي تغنى به وغنى له في يومٍ ما، موريس شيفاليه، أغنية ترددت في العالم كتهويمة إغراء تدعو لهذا

الحي الحافل بأشهى فنون الغناء والاستعراض الموسيقي.

ولم يبن بيجال – طبعًا – شهرته القديمة على فنون الاستعراض والغناء فقط، بل بناها على مئات الملاهي الصغيرة المنتشرة في شوارعه الجانبية حيث تقف أجمل الفتيات وتحت الأضواء الملونة الخاصة بالاستربتيز ليتخلصن من ثيابهن قطعة قطعة على أنغام موسيقى لافحة وليستعرضن أجسامهن العارية أمام عيون الجمهور، وبناها على تلك الأبواب المنتشرة في شوارعه بالمئات لفنادق الدرجة الثانية التي تؤجر غرفها بالساعة، حيث كانت وما زالت تقف النساء اللواتي جئن من كل بقاع العالم، من الهند والصين وآسيا وإفريقيا والشواطئ العربية القريبة وأوروبا، إلى باريس مدينة اللهو التي طبعها بيجال بطابعه في ذلك الزمان القديم، ليبعن المتعة لسكان باريس وزوار باريس.

وفي الغرف المظلمة في الأزقة الجانبية وفي البيوت المتداعية من هذا الحي، في عمق أعماقه الداخلية التي لا يصل إليها إلا سائح محترف وعميل متصل، كان يهرع آلاف السواح يقودهم دليل سري من هؤلاء المنتشرين في فنادق الدرجة الأولى في عاصمة النور تلك، ليتفرجوا على ما يفرض الذوق والحياء العام أن يمارس سرًا في الغرف المغلقة.

هذا كله في بيجال، لا يزال موجودًا، لا تزال ملاهي الاستعراض والغناء، ولا تزال ملاهي الاستربتيز مصرح بها قانونًا لأسباب سياحية، ولا تزال تدار سرًا مئات الغرف الخافتة الضوء للعروض الجنسية الحية، حيث يمكن للسائح أو السائحة أن يعاين على الطبيعة بطل العرض قبل أن يحجز موعده معه، ولا تزال فتيات من كل بقاع العالم أيضًا يقفن على أبواب الفنادق التي تؤجر غرفها بالساعة، وإن كان هذا ممنوع قانونًا، لكن أين في العالم كله ذلك القانون الذي لا يمكن التحايل عليه واختراقه؟!.

هذا كله في بيجال لا يزال موجودًا ولكن.. أين ذلك الجمهور القديم؟!.. أين الزبائن؟!.

لقد تطور فن المتعة في أخريات القرن العشرين تطورًا مذهلًا ألغى تلك التسمية القديمة وأتاح للبغاء ألف وسيلة حديثة ووسيلة، تغنيه عن الحاجة إلى حيٍ خاص، انتشر واختبأ في الغرف الخاصة على نطاق المدينة كلها.. أي مدينة.

وقد حاولت مثل هذه الأحياء أن تواكب السرعة التي يتحرر بها الناس من تحفظاتهم القديمة، فانتشرت في تلك الأحياء محلات بيع الصور والأفلام، وأصبح من الممكن أن تزور حي بيجال دون أن تدخل ملاهيه الجانبية، إذ يمكنك أن تشتري ألبومًا من الصور الملونة يضم تسجيلًا ساكنًا لما يحدث في

الخفاء، أو تشتري شريطًا سينمائيًا يعرض أمامك على مدى نصف ساعة كل ما ترغب في مشاهدته حيًا متحركًا.

بل وانتشرت أيضًا تلك الأعضاء الصناعية وتعددت أشكالها وتفننت الصناعة الحديثة في إنتاجها، بل وأمكنها أن تنتج منها أعضاء تتحرك مثل الأعضاء الحية بواسطة الترانزستور والتقدم في علوم الإلكترونيات.

لم يبق لبيجال إذًا غير أن يبيع صورًا لما يحدث تتسم بالشذوذ والغرابة، لتجذب زبائن أخريات القرن العشرين.

بل إنه حتى هذه الصور المحترفة المزدحمة بأعجب وأغرب المشاهد الجنسية، أصبحت تتضاءل الآن وتنسحب تواضعًا بعد ما أعلن البوليس الفرنسي، أنه قد ضبط في بيت ماركوفتش حارس الممثل آلان ديلون الخاص، والذي كان يهوى التصوير، بعد العثور على جثته في مخزن الزبالة بجنوب باريس ما يملأ صندوقين من الصور الفوتوغرافية، التي يعترف البوليس صراحة بأنها أقذر مجموعة يمكن للبوليس أن يضبطها في العالم كله، وأن أخطر ما فيها أن الذين يظهرون كأبطال للأوضاع، هم من أرقى نساء الطبقة الأرستقراطية ورجالها في باريس وفرنسا عمومًا، وأنها حافلة بأغرب الأوضاع وأكثرها شذوذًا.

لقد تعلم العالم أن يستمتع بشذوذه بعيدًا عن الأحياء المحاطة بالشبهة والأسوار، وأصبح الهواة أكثر ضراوة في البحث عن اللذائذ واكتشافها من المحترفين الذين يبيعون اللذة، بعد أن فقدت هذه اللذة المباعة إغراءها.

ولم يبق أمام هذه الأحياء إلا أن يقف أصحابها أمام محلاتها يهشون الذباب، كما رأيتهم يفعلون في حي بيجال في باريس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

عن اللعب

أذكر مرة وأنا في الثالثة عشرة من العمر، عوقبت عقابًا سخيفًا بالتأنيب والتوبيخ، لأن أبي ضبطني ألعب «البيكو» على رصيف مترب في الطريق من المدرسة إلى بيتنا، لأن «البيكو» ثقب في الأرض ندحرج إليه على التراب كرة ثقيلة صغيرة من الحديد، حتى نسقطها فيه ونكسب الدور، ومن العار على من كان تلميذًا شحطًا مثلي – كما قرر أبي وقتها – أن يلعب في التراب مثل الأطفال.

والغريب أني عرفت بعد ذلك أن لعبة البيكو هذه قد جاءت إلى مصر مع عساكر الحملة الفرنسية – ولا أعتقد أنهم وقتها كانوا يجندون الأطفال في مثل هذه الحملات – وأن هؤلاء العسكر الكبار، كانوا يتسلون بهذه اللعبة في أوقات فراغهم على تراب مئات القرى والمدن المصرية التي عسكروا فيها، فنقلها عنهم أطفال المصريين، بينما وقف أمامها الكبار مندهشين ومستغربين مسخرة هؤلاء العسكر الكبار الذين يلعبون في التراب، دهشة واستغراب مثل دهشتي واستغرابي منذ أسابيع قليلة وأنا أعبر ممرًا بين قاعتين في متحف اللوفر العظيم، فيصرفني عن النظر إلى محتويات المتحف، مشهد التقطته عيناي من نافذة الممر المطلة على قطعة أرض خلاء خلف المتحف تمهد لبناء جديد، فعلى هذه الأرض المتربة رأيت من نافذة الطابق الثاني حيث أقف مجموعة تزيد على العشرة، من الرجال الناضجين المحترمين في المظهر والملبس، يتصايحون بمرح، وهم يدحرجون كرة الحديد إياها إلى «البيكو» ويتجادلون باهتمامٍ شديد حول من يكسب الدور.

كانوا مجموعة من الموظفين بمصنعٍ ما، أو شركةٍ ما، في ساعة الراحة.

وقد رأيت مجموعات أخرى كثيرة في مختلف أحياء باريس في ساعة الراحة أيضًا أو بعد ساعات العمل، يدحرجون كرة الحديد إلى «البيكو» بمرح، ويتجادلون حول الفائز باهتمامٍ وجدية، دون أن يستنكر ما يفعلونه أو يندهش منه أحد، بل إن بعض العابرين الذين لديهم فائض من الوقت بين عملين أو مشوارين، يتوقفون لمتابعة اللعب بحماسٍ يعادل حماس المشتركين فيه، لأنهم جميعًا يدركون بوعيٍ مدرب، حق الإنسان الطبيعي، مهما نما جسمه، وكبر عقله، في قدرٍ من اللهو واللعب، وقلت لنفسي أن مثل هؤلاء الرجال الموظفين في بلادنا يلعبون ألعابًا تليق بأعمارهم، مثل الطاولة والكوتشينة التي تملأ مقاهي المراكز والمدن.

ثم تذكرت أنني لم أجد في مقاهي باريس طاولة أو كوتشينة، وأن الألعاب الموجودة بالمقاهي الباريسية ألعاب حديثة، صناديق آلية تدار بالكهرباء في ركنٍ من المقهى، ليلعب الزبون الراغب في التسلية مع الصندوق وحده،

مباراة في كرة القدم، أو مباراة في إطلاق المدافع لإصابة طائرات معادية أو ليطلق صواريخ للوصول إلى نماذج مصغرة للنجوم والكواكب، أو ليدبر معركة بحرية بين نماذج البوارج الحربية التي تحتويها واجهة الصندوق الزجاجية.

ألعاب تعتمد في تكوينها على تسلية العقل وإمتاع الذهن، مع تحريك عضلات البدن.

ولاعبو «البيكو» يحققون ولا شك متعة أكبر وفائدة نفسية أكثر، لأن اللعب تحت السماء المفتوحة أكثر صحة للنفس وللبدن من اللعب في الأماكن المغلقة، وهكذا تأكد لي أن أبي لم يكن على حق حين وبخني على هذه اللعبة في سن الثالثة عشرة، فقد جعلني أشعر بالحرج لأنني أنمو، ولأن النمو يتعارض مع مثل هذا النوع من اللعب، فكبلني بأغلالٍ من الوقار المصطنع، أشعر الآن أن ملايين من الموظفين مثلي مكبلون بها، وقار غير طبيعي جعلنا نفضل الطاولة والكوتشينة التي تسم البدن في مقاهي المراكز والمدن.

وبالرغم من الصعاب الجسيمة والآلام التي واجهت الفرنسيين أجيالًا وراء أجيال، لتحرير بلادهم من الغزاة الطامعين قديمًا وحديثًا، ومن الأمراء الإقطاعيين، ومن الملوك الكسالى الغارقين في المجون والبذخ، إلا أنهم ظلوا يتوارثون فيضًا متدفقًا من المرح والحيوية يضعهم في مقدمة الشعوب التي توصلت إلى معرفة فن الحياة، فأمكنهم على تعاقب الأجيال أن يجمعوا بين عظمة العالم القديم بتقاليده ومثله، وبين ما تقدمه الحياة الحديثة من مسراتٍ ومتع.

إنهم لا ينسون الماضي أبدًا، فمقاطعة جاسكوني الجنوبية، وهي من أفقر المقاطعات الفرنسية على الإطلاق، يحدثك عنها الفرنسي بزهو وهو يؤكد لك أن سيرانودي برجراك، ذلك المفاخر ذو الأنف الطويل، بطل قصة آدمون روستان، ينتمي إلى هذه المقاطعة بالنسب، وأن الفارس دارتنيان وأتباعه الشجعان الذين وصفهم الكاتب الشهير دوماس قد نشأوا فيها، ومقاطعة نورماندي تذكر الفرنسيين بأيام جان دارك الأخيرة، ومقاطعة بريتاني تذكرهم بمولد الملك آرثر والساحر مولان وقصص لانسلوت ومغامراته التي يتغنى بها الشعراء الشعبيون في قرى تلك البلاد.

إن باريس حافلة بذكريات الماضي التي تقف آثاره جنبًا إلى جنب مع مختلف الإنشاءات الحديثة، فلم أجد أحرص من الفرنسيين على رعاية كل مبنى أو حجر أو حائط ينتمي إلى الماضي بذكرى أو بحادث أو بأية صلة، إنهم يعيدون الآن بناء حي الهال العتيق القديم، الذي يضم سوق باريس الشهيرة، في نفس المكان وبنفس الطراز، وعلى نفس النسق.

ولا يمنعهم أبدًا هذا الحرص الثقافي على ذكرياتهم الحافلة بالكفاح والبطولة، من التطلع إلى المستقبل بمرح، فتستطيع باريس أن تحتفظ في العصر الحديث بشهرتها الدائمة كمصدر للفكر وللفن، وكمصدر للموضة أيضًا، ينقل عنه كل بلد.

وما من مدينة تزدحم بهذا العدد الهائل من معارض الرسم كما تزدحم باريس، إنها بحق مدينة الفن والفنانين، ولم يعد من الضروري أن يكون المعرض محاطًا بكل طقوس الفخامة والعظمة القديمة التي تفرض على الفن نوعًا من العزلة الأرستقراطية، أبدًا، يكفي أن تجد دكانًا أو مساحة خالية فقط في ركنٍ من دكان، لكي يدهن الفنان جدرانه بالطلاء الرصاصي أو الأبيض، ثم يعلق لوحاته على الجدران، وهكذا تمتلئ شوارع باريس بهذا النوع من الدكاكين التي تعرض اللوحات، بالإضافة إلى المتاحف العظيمة الشهيرة التي تحتوي على كنوز الفن التشكيلي القديم والحديث.

المتاحف العظيمة لا تجد فيها موضعًا لقدم من الصباح إلى المساء، يؤمها الزوار للفرجة والاستمتاع لغسيل القلب والروح بمباهج الفن المعلق على الجدران تحوطه هالة من الخلود على الزمن والتاريخ.

أما الدكاكين فيؤمها جمهور العابرين في الشارع للشراء والاقتناء.

ولا تزال معارض الأرصفة والشوارع، وأشهرها كورنيش نهر السين، هي علامة باريس المميزة، يقيمها طلاب الفن من بلاد العالم المختلفة، ورسامو مونمارتر، كما لا تزال بيوت باريس القديمة منذ لوحات موريس أوتريللو الشهيرة، هي الموضوع الرئيسي لهذه اللوحات، هي المنظر القريب والمألوف للرسام الذي يجلس على حافة السين أمام حامل الألوان واللوحة الصغيرة، ولا يوجد فرنسي عابر لا يتوقف أمام هذه اللوحات ليلقي نظرة سريعة، أما الذين يتوقفون أكثر ويلتفون، فهم سواح، وأغلبهم من الأمريكان، وفي أغلب الأحيان يجلسون على الرصيف بجوار الرسام وهو يرسم، وكثيرًا ما تجد إلى جوار هؤلاء الرسامين الذين يحتلون رصيف السين، عددًا من هواة الصيد، يدلون بسناراتهم في النهر، ويجلس الاثنان متجاورين، الصياد والرسام، وكلاهما ينتظر، حتى يصطاد، زبونًا أو سمكة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

عن الحرية

قادني جورج عبر دروب الحي اللاتيني وأزقته الضيقة المرصوفة بالأسفلت المربع القديم، ساعة عصر، والدنيا تمطر مطرًا ربيعيًا ينعش الروح، لنشرب فنجانًا من القهوة الساخنة في مقهى قديم.

وخيل لي كلما تعمقنا في السير داخل الدروب، أننا نضرب في حي الموسكي والغورية وخان الخليلي، فحولنا إلى اليمين واليسار نفس البيوت القديمة، وأمامنا نفس الشوارع الصاعدة الملتوية الضيقة المليئة بالناس السائرين والواقفين والبائعين، مع اختلاف بسيط كان يؤكد لنا أننا في أوروبا ولسنا في الموسكي أو تحت الربع، هو أن الشوارع الضيقة لا أثر فيها للذباب أو للتراب، والبيوت القديمة ليست متداعية أو منهارة، إنما مرممة ومدهونة ومغسولة بفعل المطر أو بفعل الناس، والزحام الشديد في الشوارع الضيقة زحام ديناميكي حي، دائب الحركة فلا يجعلك تشعر أنه زحام، فلا يوجد شخص ثقيل واقف يسد عليك الطريق وهو منهمك في حديثٍ فارغ كأنما ليس في الكون غيره، إنما كل منهمكٍ في حديث، تكون عينه على من يحدثه، وعينه الأخرى على العابرين ليفسح لهم الطريق.

ولا يوجد شخص يتنطع مثل الفيل أمام الدكاكين والبائعين، إنما الناس تتحرك داخل الدكاكين وأمامها في سرعة الفراش، أو على الأقل سرعة العصافير، وهكذا لا تتوقف الحركة أبدًا، بالازدحام مهما كثر عدد الناس من بائعين ومشترين.

ودخلنا مقهى ما كدنا نقف على بابه حتى خيل لنا أننا ندخل مقهى الفيشاوي القديم في حي الحسين، اسمها مقهى باليت وعمرها مائة سنة وسنة، وقد ظلت محتفظة بطابعها الأصيل القديم، بنفس الرسوم القديمة الورقية على الجدران، ونفس الشوارب الباريسية القديمة فوق شفاه الجرسونات وصانعي المشاريب، الشيء الوحيد الجديد في المقهى هو شباب الهيبز الباريسي، طويلي الشعر، طويلي الأذرع والسيقان، كانوا يملأون البار الممتد بمواجهة المدخل، بأجسامهم الممشوقة المدثرة بمختلف أنواع الملبوسات وأكثرها شذوذًا وغرابة وبساطة، ويملأون بأصواتهم التي تناقش أعوص المشكلات السياسية جنبًا إلى جنب مع أبسط الأمور اليومية وأكثرها تفاهة.

كانوا واقفين إلى جوار الجدران وجالسين على المقاعد العالية أمام البار، وممدين على الأرض على البلاط بجوار الموائد وعلى سلالم الممر المؤدي إلى التواليت.

يلبسون ويجلسون ويتكلمون، أحرارًا على هواهم ورغبتهم، فلا عين تتوقف مشمئزة عند جلد الخروف الذي يدثر به أحدهم نفسه، ولا عين تستنكر ذلك الصدر العاري أو البطن العارية لهذا الرجل، أو ذاك، أنت حر تمامًا ما دمت تتصرف في حدود نفسك ولا تضايق الآخرين بحريتك، حتى المناقشات المتنوعة إن علا خلالها الصوت لحظة أو ارتفع، تلفت صاحبه حوله كأنه يعتذر، ثم يعود بصوته إلى الخفوت.

وقد حاولت دخول التواليت وكان أحدهم وإحداهن جالسين على بلاط السلم مستندان بظهريهما إلى الباب الذي يفتح إلى الخارج، بسبب ضيق المساحة المخصصة للتواليت في الداخل، ولاحظا أني غريب عن المكان، فتجاهلا وقوفي أمامها لحظة، وتجاهلا رغبتي.

لحظة قصيرة فقط، ابتسما بعدها وهما ينهضان بسرعة ليفسحا لي الطريق إلى باب الدخول، فدخلت.

وحين أردت الخروج فوجئت بهما قد عاودا الجلوس وأغلقا الباب بظهريهما، متجاهلان دقاتي عليه، لإعلان رغبتي في الخروج.

وسمعت ضحكات رقيقة على مأزقي من المجموعة في الخارج، فعاودت الطرق مرة ثانية، فعادت الضحكات الرقيقة.

وتذكرت أمثال هذه المقالب السخيفة التي نتبادلها نحن التلاميذ الأشقياء القدامى فيما بيننا هنا، لكنني لم أعد تلميذًا، وكذلك هم، وقبل أن أعاود دق الباب للمرة الثالثة بغضب، فوجئت به ينفتح والإثنان ينحنيان لي كحرس الشرف بابتسامة مداعبة، ويفسحان لي طريق الخروج، يمدون أيديهم لي مسلمين، لنتعارف، من أنا ومن هم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

وهكذا تكون المداعبة..

لا تأخذ من الوقت أكثر مما يسمح به الذوق الرفيع لفهم المداعبة، وإلا تحولت إلى سخف وسماجة وأصابت من نقصده بالضرر.

إن شعار عين على نفسي وعين ثانية على الآخرين، شعار سائد ومقدس، يكاد يحلق في سماء باريس وهوائها، فكل إنسان هناك يقدس مزاج الآخرين وحريتهم.

وقد شعرت أننا على مستوى حياتنا نخلط كثيرًا في بعض المفاهيم العامة، وأكثر هذه المفاهيم عرضة للخلط على المستوى الشعبي، مفهوم الحرية الشخصية هنا في مصر.

تكون جالسًا في صالة المسرح مثلًا، حيث يمنع القانون التدخين احترامًا لصحة الجمهور، فتفاجأ بقشر اللب يتساقط فوق رأسك وكتفيك من أحد البناوير مثلًا، وتفاجأ بأن صوت القزقزة يكاد يثقب أذنيك، فتستدير وترفع رأسك ناظرًا باحتجاج حيث يتساقط القشر، فيستغرب صاحب القشر نظرتك، كأنك بهذه النظرة تتهجم على حريته، فما دام القانون قد منع التدخين ولم يمنع اللب، فهو حر ولا مجال لاعتراضك إذًا..!

تكون جالسًا في صالة السينما ساكنًا، مستمتعًا بفيلمٍ ما من الموجة الجديدة مثلًا، أو تجربة سينمائية متفردة، فتفاجأ بأصوات الاحتجاج المتعالية تسخر من الفيلم، وتسخر من استمتاعك به، وتزعج أسماعك أصوات المقاعد التي ينهض أصحابها ويخبطونها بعنف احتجاجًا على الفيلم الذي لم يستجب لمزاجهم وذوقهم، ولا تستطيع أنت أن تحتج على طريقتهم في الاحتجاج، دون أن تدخل معهم في مشادة تضايقك إن لم تجرحك، فكل منهم حر في التعبير عن رفضه بطريقته، وتلك أبسط الأمثلة على المفاهيم الخاطئة، فلا توجد أبدًا حرية بدون التزام، فالإنسان ليس وحده في المجتمع، والحرية غير الملتزمة فوضى شاملة، ويحضرني الآن ما قاله أحد الإنجليز لرجلٍ فوضوي ادعى لنفسه الحق في أن يلكم أنف الإنجليزي المذكور، وهما يناقشان معًا معنى الحرية، إذ قال له الإنجليزي بهدوء: آسف يا صديقي الفوضوي، إن حريتك تنتهي حيث يبدأ أنفي.

عن السينما

كنا نتكلم عن القزقزة وقشر اللب المتساقط على المتفرجين من بناوير المسرح والسينما، وخبط الكراسي للقيام بضجة مجافية للآداب والذوق خلال العرض، احتجاجًا على فيلم يناقش موضوعًا لا يهمنا، أو اعتراضًا على أسلوب لمخرج يتطلب منا إعمال الفكر كي نفهمه ونستمتع بما يحتويه، الشيء الذي

لم أجد له مثيلًا على الإطلاق في أي دار من دور العرض السينمائي التي دخلتها في باريس أو في لندن، فالذي لا يعجبه الفيلم ينهض وينسحب في هدوء، وقد شاهدت في إحدى دور العرض فيلمًا حافلًا بالمشاهد الدرامية المعقدة والحوار الفكري العميق الطويل الممل، فلم أسمع طوال العرض همسة أو صيحة، ولم تنطلق صفارة أو يعلو صياح أو تهريج كلما ظهرت على الشاشة بعض المشاهد العارية.

ربما لأن الذوق العام والمزاج العام، لا يختلفان كثيرًا في تلك البلاد عن الذوق الخاص والمزاج الخاص، لتقارب مناهج التربية في المدارس والبيوت، وانتشار أدوات الثقافة والحضارة بين قطاعات عريضة من الجماهير، وارتفاع مستوى التعليم.

لكن الذي لا شك فيه، أنه توجد في كل بلاد العالم قطاعات خاصة تضم المثقفين والذين أتيحت لهم فرص عليا من التربية والتعليم، يتطلب مزاجها من الفن عمومًا مستويات عليا، توازي قدرتها على التذوق والفهم، بخلاف القطاعات الكبرى من عامة الناس التي لا تتطلب من الفن أكثر من الترويح والترفيه، ولا يستطيع أحد أن يغفل حق الخاصة من المثقفين في تذوق أعلى أنواع الفن، ولا أن يغفل حق العامة في أبسط الأنواع وأقربها إلى مزاجهم وأفهامهم.

وعند عمل ميزانية السينما الفرنسية عام 1971 قسموا الإنتاج إلى قطاعات، تضم أولًا الإنتاج التجاري الضخم، غذاء الجماهير العامة التي تطلب التسلية والترفيه فقط في أبسط أشكالها المعتادة، أفلام تعتمد على الحدوتة المؤلفة المركبة على عقدة تحل في النهاية، داخل إطار من المبالغة المليودرامية التي تعتمد على الإثارة بالعنف والإثارة بالجنس أو المبالغة في فخامة الملابس والديكور، وذلك النوع يحتل من خطة الإنتاج مساحة سبعين في المائة تقريبًا.

إنها أفلام تنتج لاستهلاك الجماهير اليومي فقط، فلا تتقدم بها الدولة إلى مسابقات السينما، ولا تذهب بها إلى المهرجانات ولا تباهي بها بين الأفلام.

وثانيًا.. أفلام صعبة تعتمد على مجموعة من المخرجين أحبت فن السينما لذاته، وأعمالها تجريب بحت لاكتشاف أعمق الطاقات التي يحتوي عليها هذا الفن السابع للتعبير والتأثير.

وهؤلاء ينتجون أفلامهم معتمدين على الكاميرا الحرة والتصوير في الأماكن الطبيعية بممثلين طبيعيين قدر الإمكان، ومنهم مخرجون معروفون في معاهد السينما العالمية، مثل أنييس فاردا وجاك ريفيت وبيير كاست، وأفلامهم غير تجارية، لا تجد من يوزعها، وتعرض فقط في السينماتيك للدارسين والهواة.

ثم ثالثًا وأخيرًا.. أفلام الموجة الجديدة التي انبثقت براعمها الفجائية عام 1952 على أيدي مخرجيها الذين أصبحوا معروفين الآن، فرانسوا تريفو وكلود شابرول وجان لوك جودار وآلان رينيه ولويس مال وغيرهم، وقد قابل الجمهور الخاص الأوروبي أفلام الموجة الجديدة بحماسٍ شديد وتسبب في نجاحها، وتؤكد الإحصائيات أن صناعة السينما الفرنسية نالت مكاسب كبيرة من أفلام هذا الاتجاه، الذي كان يعتمد حينما بدأ على إنتاج الأفلام برأسمال صغير، خصوصًا وأن أغلب مخرجي هذا الاتجاه، كانوا نقادًا سينمائيين في مجلة كراسات السينما، وحينما بدأوا كانوا يهدفون إلى البحث عن كل جديد للخروج على أساليب الإنتاج القديمة.

وقد أمكن لهذا الاتجاه بعد مرور أكثر من عشر سنوات منذ ظهوره إلى الآن، أن يتسع نطاق جماهيره من الخاصة إلى العامة، في عدد كبير من البلاد.

إن صناعة السينما الفرنسية تضم أكثر من مائة مخرج سينمائي، لم يلمع منهم ويصبح معروفًا على المستوى الدولي أكثر من عشرة مخرجين، لإنتاجهم أفلامًا على مستوى ثقافي يشبع الأذواق الخاصة التي تتطلب مستويات عليا من الفن.

أما باقي المائة فبعضهم عرف عالميًا بأفلامه التجارية الناجحة، والباقون يكتفون بإدارة طاحونة الإنتاج التجاري المحلي للمزاج العام.

تلك مشكلة الإنتاج، وتبقى في النهاية مشكلة العرض، كيف يمكن تلافي ذلك الصدام الذي يحدث حينما يدخل المزارع أو الموظف البسيط دارًا للسينما للمتعة والانبساط، ويدفع مبلغًا من المال لا شك أنه يحسبه وهو يدفعه بالمليم، ثم يفاجأ بأن الشاشة تعرض أمامه صورًا تحتاج منه إلى مجهود ذهني فوق طاقته ليفهمها ويتابعها، فإن لم يستطع أصيب بالعجز والغيظ وأوشك أن يفقد ثقته في نفسه، فبدلًا من أن يفعل، يفقد ثقته في الفيلم ومخرجه، فيسبهما ويقوم.

كيف يمكن تلافي ذلك؟..

لقد شاهدت في باريس واجهات أكثر من أربع دور للعرض السينمائي في شارع الشانزليزيه، واجهات متساوية في المظهر الذي يوحي بالنظافة والفخامة والدقة، الشيء الوحيد الذي تختلف فيه هذه الدور، هو ثمن تذاكرها، والأفلام التي تعرضها.

لقد خصصت الدولة دورًا للعرض السينمائي تقدم الإنتاج الذي يتطلبه المزاج العام للجماهير العامة، وحددت لها أسعارًا للدخول تتراوح بين خمسة فرنكات

أو سبعة فرنكات، لا يعرض فيها أبدًا فيلم يعلو على مستوى ذوق الجمهور، أو يخرج عن حدود قدرته على الفهم.

أما الإنتاج التجريبي أو أفلام المستوى الفني العالمي، فتعرض في الدور الأخرى، التي يتراوح أجر دخولها بين عشرة وعشرين فرنكًا.

وكما أن الإنتاج السينمائي للمزاج العام يحتل من خطة السينما الفرنسية سبعين في المائة تقريبًا، كذلك تحتل دور العرض التي تقدم هذا النوع، نفس النسبة من دور العرض عمومًا، والثلاثون في المائة الأخرى من دور العرض تعرض الأفلام ذات المستوى الفني الخاص، سواء كانت من إنتاج فرنسا أو إنتاج الدول الأخرى.

لقد كانت هذه المعلومات بالنسبة لي إجابة شافية، لتلك الحيرة التي كانت تنتابني كلما أمسك النقاد عندنا بسيوفهم لقطع رقبة الأفلام التجارية الموجهة لعامة الجمهور، فهذه الأفلام في فرنسا تخرج من الأستديوهات إلى دور العرض المخصصة لها في هدوء، دون أن يتعرض لها أحد بالنقد أو بالتجريح، إلا في حالة واحدة فقط، هي أن تخرج هذه الأفلام عن حدود التسلية والسذاجة المتوقعة منها، لتقدم للجماهير مفاهيمًا خاطئة، أو أفكارًا مغلوطة تضر بالناس، ففي هذه الحالة، لن تفتقد الأفلام ناقدًا مخلصًا يوجه لها اللوم والتقريع.

خاتمة

قد تقصر إقامتك في باريس أو قد تطول، لكنك تشعر وأنت تغادرها أنك تفعل ذلك قسرًا، فليست باريس بالمدينة التي يمكن للإنسان أن يرحل عنها بسهولة.

لقد حملني التاكسي بحقائبي في الطريق الطويل من فندقي المتوسط الحال بالحي اللاتيني إلى حي الأنفاليد وأنا ما أزال شاردًا ذاهلًا غير مصدق أن الأيام الباريسية التي خيل لي أنها لن تنتهي قد انتهت، وأنني الآن راحل، إلى اليونان، ثم إلى القاهرة، مخلفًا باريس ورائي، إلى حين يعلم الله متى، مرة ثانية، أعود.

ولعل عزائي أنني قد حملت معي في النفس صورًا مذهبة لتلك المدينة لا تنمحي، من متحف اللوفر الذي كان قصرًا بناه فرنسوا الأول ليستعمله من بعده كل ملوك فرنسا وأباطرتها حتى نابليون الثالث، ثم أصبح في عهد الجمهورية قصرًا تضم جدرانه أغنى مجموعات الرسم والنحت في العالم، فمن نفس الشرفة التي شاهد منها شارل التاسع وزوجته الملكة كاترين

ميديشي مذبحة سان بارثولوميو الرهيبة التي دبراها، وقفت أنا أتفرج على أطفال العصر الحديث يلعبون البلي والطوق في الحدائق.

وصورًا من حديقة لكسمبورج أجمل حدائق باريس التي يتجمع طلاب السوربون فيها حول نافورة ميديشي التي أمرت ببنائها على الطراز الفرنسي ماري ميديشي أرملة هنري الرابع وأم الملك لويس الثالث عشر، حينما اشتد بها الحنين إلى وطنها إيطاليا.

وصورًا من القصور الخرافية الشكل والمحتويات التي أوصى بها أصحابها للدولة لتكون متاحف وذكريات تاريخية تعطي صورًا حية للدولة القديمة، وكيف كان هؤلاء الأفراد يعيشون فيها حياتهم الخرافية.

ما أكثر الصور التي يمكن للإنسان أن يعود بها، فهل يمكن أن تنسى زيارتي القصيرة لنوتردام باريس، تلك الكنيسة الشهيرة التي يسمونها كنيسة التاريخ الفرنسي، التي بدأ بناؤها عام 1663 لتشرف بأبراجها المربعة ومسلتها المدببة على جزيرة باريس القديمة التي كانت تحيط بها المستنقعات من كل جانب، والتي سطعت نوافذها الملونة الزجاج كثيرًا بأضواء حفلات التتويج أو الزواج الملكي ومراسم الدفن المهيبة.

تلك التي ينحدر من جوارها الآن على نهر السين، صف من الأكشاك الخشبية، أشبه بسور الأزبكية قديمًا، حيث يمكنك بسهولة أن تعثر على مخطوطات نادرة أو صورًا تاريخية ثمينة وسط أكداس الكتب والمطبوعات المستعملة والرخيصة.

كما لن تذهب من أنفي أبدًا، تلك الرائحة الشهية والخصبة المنبعثة من ممرات سوق الهال، سوق باريس الشهيرة التي ظلت أكثر من ثمانية قرون مصدرًا رئيسيًا لتموين العاصمة، لا ينقطع فيها طوال الليل ضجيج الحركة أو زئير المئات من عربات اللوري الجميلة الألوان، تصل إلى السوق تباعًا من أول المساء حتى الفجر حاملة من الريف والضواحي خيرات الأرض الطيبة والمصانع، فإذا طلع الصباح كانت الفواكه والخضروات والأسماك واللحوم طازجة أنيقة، مرتبة ومصفوفة بعناية ونظافة في عرضٍ شهيٍ ورائع، كما لن تذهب أبدًا من الأذن، أصوات نقاش البائعات السمينات نوعًا، وجدلهن الصاخب الظريف في مساومة الزبائن.

وهل يمكن أن ينسى عطر الزهور أو مشهدها المنسق الألوان، حيث تتجمع بها البائعات في الميدان الصغير أمام كنيسة لامادلين بطرازها الإغريقي وأعمدتها الفخمة، ترطب الرائحة روح الإنسان وهو يجاهد الزحام في تلك المنطقة لعبور الطريق حول ميدان الأوبرا، أكثر أجزاء باريس ازدحامًا، كما أن التقاليع الصغيرة التي تضمها حقائبي، ستذكرني دومًا بتلك الزيارة لسوق

البراغيث، جنة الباحثين عن الصفقات الغريبة، حيث يمكنك أن تشتري كل شيء من ابرة الخياطة أو كعب للحذاء، إلى نياشين النبلاء القديمة، وغيرها من المعروضات العجيبة.

وستظل متلألئَة في الذاكرة، صورة مقاهي باريس وباراتها الأنيقة المضيئة التي تزحم الأرصفة بتجاورها، تدعوك بلطفٍ ساحبةً إياك من تحت المطر لتقدم لك طعامها الدافئ أو قهوتها السريعة المركزة.

وسيظل أيضًا متلألئًا في الذاكرة كما هو دائمًا في الليل، ميدان الكونكورد بأضوائه الكشافة المسلطة على المسلة المصرية المستعارة من أرض الفراعنة وعلى النافورات الرومانية العديدة.

مئات الصور أحملها معي في روحي، لا تنسى، من الجسر الملكي، ومن برج إيفل، ومن ربوة مونمارتر الشهيرة، ومن مقابر بيير لاشيز التي تضم رفات عظماء فرنسا ومشاهيرها.

ولكن ستظل دائمًا متوهجة ومضيئة فوق كل هذه الصور، صورة البنت الفرنسية، بوجهها الأنيق السمح، الذي يتفجر بالوضوح والصراحة.

ولعل الإنسان المدقق يستطيع بعد زيارته لفرنسا، أن يؤكد أن الكنز الحقيقي الذي تملكه تلك البلاد، يتمثل في هؤلاء البنات اللواتي يصبحن على ممر الأيام زوجات وأمهات وجدات لرجال وأبناء فرنسا.

لسن كنزًا في الجمال والبساطة والأسبقية على كل البنات في أصول الأناقة والشياكة، كما هو شائع عنهن في كل الدنيا.

أبدًا..

إنما هن كنز، لأنهن لا يعرفن الكذب، إن الفرنسي، صغيرًا كان أو كبيرًا، يتكبد مشقة هائلة، كي يفي بكلمة أعطاها لك، أو موعدًا حدده معك، كما أنه يتكبد أية مشقة هائلة ليكون صادقًا ومجيدًا في أي عملٍ يعمله.

والرجال كما نعلم جميعًا يتعلمون في الطفولة من أمهاتهم، اللواتي كن في يومٍ من الأيام بنات، نشأن على الصراحة واحتقار الكذب.

ذلك هو الكنز الحقيقي..

فحينما تكون المرأة أمينة صادقة، لابد وأن يكون الرجال أمناء وصادقين أيضًا.

الرحلة الثانية
اليونان

متعة الجلوس في الماضي

يهزمنا الخوف من الحب

ما بالنا نقشعر ونرتعد فرقًا، ويقف الشعر في رؤوسنا مع الهلع، كلما شاهدنا حبًا أو تصورنا موقفًا قائمًا على الحب، أو حتى سمعنا كلمة حب، كأن الحب في نظرنا شيء قبيح وضيع وملوث، مع أن أفكارنا هي القبيحة الوضيعة الملوثة، والحب في الدنيا ناصع وطاهر ونقي، بل وأخطر من هذا، هو قوة محركة، وطاقة هائلة تغذي النشاط الإنساني.

وقد اعترفت الدنيا كلها بالاحترام والتقدير للحب، بل إنها تستخدمه كعنصر من عناصر استثمارها للنشاط لسكانها.

إلا نحن..

فما زلنا أعداء للحب..

وما زلنا بسبب هذا العداء، مضيعين لطاقتنا البشرية الخلاقة، مستهلكين لها في الانشغال المريض والشاذ بهذا الحب الذي نعاديه علنًا، ونتلمس السبل المظلمة إليه في السر.

وسأحكي لكم واقعتين..

الواقعة الأولى يونانية..

هي صورة أقرب منها لأن تكون واقعة، ففي اليونان ضيعت آلة البوزوكي الساحرة النغم، عشرات الساعات التي كان يجب أن أنامها على مر الليالي التي أمضيتها في أثينا عاصمة اليونان، أو الجزر التي تنبثق كاللآلئ بين أمواج بحر إيجه، أو في منازل القرى الجبلية على تلال الإغريق القديمة حيث لم أكن أستطيع المبيت في قريةٍ واحدة أكثر من ليلة.

في تلك الليالي أطاحت آلة البوزوكي بالنوم من عيني، فهي آلة تقليدية قوية الصوت شديدة الكفاءة في التعبير عن الجيشان الصاخب، الذي يضج في قلوب سكان اليونان وصدورهم، معبرًا عن حبهم الشديد للطبيعة والجمال والحياة والجبال والنساء والبحر وأجسام الرجال الجميلة والقوية، معبرًا عن حبهم الشديد للحب نفسه، ولهذا فهي آلة منتشرة تعزف أنغامها الراقصة الجذلانة في المطاعم والبارات وعلى نواصي الشوارع، ويجوب بها العشاق تلك الحواري الجبلية التي تسكنها حبيباتهم في أنصاف الليالي وما بعدها حتى الفجر، معبرين بالغناء والعزف والرقص عن هذا الحب الذي يملأ جوانحهم، فيستهينون بالنوم حتى يصبح الصباح، وتطل الحبيبات بوجوههن الموردة وملابسهن المزركشة، من تلك النوافذ المفتوحة على جدران بيضاء في صباح

الجبل المشرق، كزهور يافعة تتفتح بابتسامتها لهؤلاء الرجال الأقوياء الصوت والجسم والشعور، فتملؤهم بالبهجة ويهدأ أوارهم بعد أن أمضوا الليل يغنون للحب وللحبيبات، ثم يمضي كل منهم بعد ذلك إلى عمله، مزود بطاقة ألف رجل، تغذيها ابتسامة الحبيبة المشوقة.

وفي المطاعم الصغيرة والكبيرة على السواء، تخرج الأسرة اليونانية لتناول عشائها، فتخرجها آلة البوزوكي بأنغامها، عن وقار الأسرة الشائع والمفروض، فإذا بالأب يدخل حلبة الرقص ويتمايل بالحب وحده، ثم يأخذه الطرب فيمد ذراعه ويجذب إلى الحلقة زوجته أو حبيبته، من مائدته أو مائدتها، ثم تتسع الحلقة فتجذب الحبيبة أو الزوجة للرقص والدها ووالدتها ووالد حبيبها ووالدته، واخوتها واخوته، وتظل الدائرة تتسع وتتسع والبوزوكي تطلق أنغامها الديناميكية المؤثرة فتزيد من اتساع الحلقة، حتى تضم إليها المائدة المجاورة والمائدة التي بعدها، وهكذا حتى يصبح رواد المطعم كله راقصين في حلقةٍ واحدة متشابكة الأيدي والأذرع والعواطف، متسقة الخطو والإيقاع، دائرةٍ كبيرة تضم عواطف كبيرة، تتسع وتتسع حتى يمكن لك أن تتخيل أنها فعلًا تضم سكان اليونان جميعهم.

وكنت قد قررت مغادرة العاصمة أثينا في اليوم التالي، في رحلةٍ بحرية طويلة بين جزر اليونان الشامخة، بمدنها الجبلية فوق أمواج بحر إيجه الصاخب في قلبه، والناعم الساكن عند أطرافه محبة لهذه الجزر التي تولد منه، عندما سألني صديق: هل شاهدت دورا؟.. ولم أكن قد شاهدت دورا بعد بالرغم من أني قد سمعت هذا السؤال أكثر من مرة من يونانيين وسواح أجانب، خلال الأيام التي أمضيتها في أثينا.

كنت أقول للجميع، أني شاهدت أكروبات أثينا وتأملته طوال نهارٍ كامل بين أعمدته وأنقاضه وليلة كاملة.. ليلة كاملة تركت نفسي فيها تنساب مع الدروب والحواري المندلقة من أعتابه كالشرايين في حي البلاكا القديم القائم على أحد سفوحه.

وقلت لهم أني صعدت إلى الكافيتوس وشاهدت أثينا من أعلى ربوة فيها، ورأيت البحر يحيطها ويجلوها.

فكانوا يؤكدون ضرورة أن أشاهد دورا.. هل يمكن أن تجيء إلى اليونان وتذهب دون أن تشاهد دورا؟.

وهكذا تمكنت – بعد أن تدخل مشكورًا مساعد مدير هيئة الاستعلامات اليونانية – من الحصول على مقعد في مسرح دورا استراتوس، المقام وسط غابة طبيعية على تل فيلوبابو بأطراف أثينا حيث يوجد عرض يومي كل صيف.

ولم أجد صعوبة في الوصول إلى تل فيلوبابو وكل طريق أو شارع دخلت فيه، على ناصيته لافتة وسهم يشير إلى الاتجاه المؤدي إلى تل فيلوبابو حيث يوجد مسرح دورا.

تل صخري تصعده بين الأشجار المضاءة، وقد أعطيت ظهرك للعمارات والمباني، وبدأت تواجه الغابة.. الغابة الكثيفة الأشجار المزينة باللافتات والأضواء، احتفاء بدورا وفرقتها الشهيرة للرقص الشعبي، الغابة المفتوحة بطمأنينة لرواد المسرح ولغيرهم من المتنزهين.

الغابة المزينة والمجلوة كأنما المدينة تقيم فيها زفافها العظيم الرائع إلى عيون المشاهدين، وأظل أصعد وعبق الزهور ورائحة الطبيعة تملأ روحي فتنطلق في سماءً مفتوحة، وتذهب إلى البحر العظيم الأبيض فتعبره إلى بلادي.. وأتذكر مصر.. وأتمنى لو نستطيع الاحتفاء بأماكن الطبيعة الخلابة فيها هذا الاحتفاء الذي يقترب من التقديس، فنقيم تحت سمائها الصيفية مثل هذه المسارح.

دروب وطرقات صخرية صاعدة بين الأشجار تنتهي بي إلى البوابة المرصوفة التي تؤدي إلى مسرح دورا الذي يتسع لخمسة آلاف من المتفرجين.

خمسة آلاف، جاءوا كلهم كسياح من أنحاء العالم، ومواطنين من أنحاء اليونان، وجلسوا في هذا المسرح العظيم المفتوح على الطبيعة، فلم يكن هناك مقعد خال، يلقون من مقاعدهم في تلك الغابة الطبيعية فوق هذا التل المرتفع، نظرات البهجة والاستمتاع على أضواء المدينة المتناثرة أسفلهم على البعد ويتسلون بتعاطي المثلجات، إلى أن يبدأ العرض، وحين يبدأ العرض يسود الصمت تمامًا، فكأنما هذه الخمسة آلاف نفس، نفس واحدة تلوذ بالصمت حين تظهر دورا صاحبة الفرقة، فتقدم لهذا الجمهور نبذة عن رقصات فرقتها باللغات الثلاث، اليونانية والإنجليزية والفرنسية.

رقصات وأغان من الفولكلور اليوناني مأخوذة عن رسوم الفازات والأواني التي خلفها الإغريق القدماء حاملة لتقاليدهم وعاداتهم في جزر اليونان العديدة، حيث لكل جزيرة طابعها الخاص وتقاليدها.

وكان البرنامج ذلك اليوم حافلًا برقصات غنائية من زانتي في الجزر اليونانية ودرايموس والإسكندرية، ومن مقدونيا ومن كاتوباناجيا وبونتوس وكريت، وتقول دورا استراتوس أن هذه الرقصات الإغريقية هي رابطتنا الحية مع القديم، حركات الرقص وتعبيرات الجسد، والبرودريه الملون والمذهب على الأزياء المتباينة من قريةٍ إلى قرية في مختلف أنحاء اليونان، هي تعبير حي على استمرار التقاليد الإغريقية من عام 2500 قبل الميلاد إلى أيامنا هذه.

تقول هذا بفخر أمام خمسة آلاف متفرج أكثر من نصفهم تقريبًا عالمي، سياح أجانب، وهي تشير بكفيها النحيلتين حولها تجاه الغابة التي تحتضن المسرح، وتجاه المدينة المضاءة عند أقدام المسرح من بعد، وتجاه السماء التي تظلل هذا كله، وكأنما تلك الطبيعة الجميلة التي بذلوا جهدهم المخلص للانتفاع بجمالها، تؤكد كلامها وتؤيد فخرها وزهوها.

ثم يتدفق الراقصون والراقصات إلى المسرح أو ينسابون إليه فيملأون مشاعر المتفرجين بتعبيرهم الراقص عن البهجة والحب والإحساس بالذات والحرية والمشاعر النبيلة، وكلها على الإجمال رقصات حب، وأغاني حب، حب للطبيعة وللمرأة وللحياة عمومًا، بل وأيضًا حب للحرب، دفاعًا عن هذه الحياة الجميلة التي يحيونها ويحبونها، وهي نفس الرقصات التي رأيت الشعب يرقصها ويغنيها جماعات في المطاعم الصغيرة والكبيرة.

وأبتهج بالرقص، بل لعله في كثير من الأحيان قد أضاء في ذاكرتي على بعض الوقائع التاريخية، فأضاف لي إيضاحًا أو قدم تفسيرًا، لكنني طوال الوقت كنت متأكدًا أن التأثير الأكبر في هذا العرض كله، كان للطبيعة المكشوفة حولي، ولهذه السماء المفتوحة.

ولعلي قد تذكرت بفخر فرقة رضا والفرقة القومية للفنون الشعبية في مصر في مجال تأملي لكفاءة الراقصين اليونانيين وقوة أدائهم، لكن هذا الفخر سرعان ما ذاب في الأسى وأنا أتذكر هؤلاء الراقصين المصريين يتصببون عرقًا بين جدران مسارحنا المغلقة في حر القاهرة، أو يملأون صدورهم بالتراب الذي تثيره أقدامهم الراقصة من أرض المسرح الخشبية.

وكان الأسى شديدًا، لأني أعلم أن بلادي غنية بالحدائق وبالأماكن المفتوحة والطبيعية التي تصلح أن تكون مسرحًا صيفيًا دائمًا ومميزًا لهذه الفرق الراقصة، بل للأداء الدرامي أيضًا، في حر القاهرة وفقرها في الأجهزة المكيفة (بكسر الياء).

ولعل هذا يقودنا إلى الواقعة الثانية.. وهي واقعة مصرية..

فحين عدت إلى القاهرة قرأت إعلانًا عن «مسرح الجنينة» وفرحت حين عرفت أن فرقة مسرحية مصرية تقودها الفنانة نعيمة وصفي – هي في رحمة الله الآن – قد اختارت حديقة الأورمان لتقدم عليها مسرحية غنائية كتبها الشاعر سيد حجاب، بعنوان «ولد وجنية» عن فكرة عروس البحر "أوندين" لـ جيرودو.

وأن فتحي فؤاد مدرس مادة الديكور في معهد الفنون المسرحية، كان يمضي الليالي الطويلة حتى الصباح ساهرًا، يعمل حول بركة الحديقة والكوبري

المعلق فوقها وعلى الأشجار، لينشيء ديكورات مسرحية بين عناصر الطبيعة لتبدو كأنها جزء منها.

وأن حماسًا منقطع النظير قد ملأ قلوب هذا الفريق المسرحي، يقودهم المخرج الشاب شاكر عبد اللطيف، قد جعلهم يسهرون خمسة وعشرين ليلة، لتجهيز هذه الحديقة الرائعة التي كانت تمضي لياليها طوال السنوات السابقة في ظلام، حتى تصبح مسرحًا مضاء بالبهجة والمتعة والموسيقى والأحاسيس المرهفة النبيلة، التي يقدمها الفن المسرحي للناس.

فرحت لأني ما كدت أعود حتى رأيت ما تمنيته على تل فيلوبابو يتحقق في حديقة الأورمان، وذهبت إلى العرض فزادت فرحتي، وتمنيت لهذه الفكرة، فكرة المسرح المفتوح، الإزدهار والتكرار، وعزمت بيني وبين نفسي أن أكتب في ذلك.

وبعدها بيومين، طلبت السيدة نعيمة وصفي، لأنقل لها إعجابي بالعرض، وباختيار المكان، ففوجئت بها تبكي، وفوجئت بها تقول لي أنها ومدرس الديكور كانا يجلسان كل منهما في مواجهة الآخر ويبكيان، وفوجئت بها تقول من خلال البكاء، أن محافظة الجيزة قد حطمت المسرح، وطهرت الحديقة منه تمامًا وانطلقت تحكي بانفعال.

قالت أن أربعة عساكر فوق لوري، هبطوا إلى الحديقة يحملون الشوم، وطلبوا هدم المسرح فورًا وإزالته بأمر السيد المحافظ.

قالت: «نلم الحاجة براحتنا».. قالوا: «أبدًا سيادة المحافظ قال فورًا».

قلت لها لماذا؟..

قالت: «خايف على الآداب.. الجنينة الناس تنتشر فيها بالليل وتحصل حاجات موش كويسة»..

“قلت له احنا منورين”..

“قال انه شاف ولد وبنت قاعدين على كنبة تحت شجرة”..

“قلت له ده بيمثل، ودي أخته قاعدة معاه على بال ما ييجي دوره”..

“قال ان العرض جميل، وهو شخصيًا معجب بيه، لكن الجنينة دي متنفس للناس واشغالها للمسرح ممنوع”..

“قلت له وزير الزراعة وافق”..

“قال بتروحي لوزير الزراعة من ورايا”..

“قلت ما هي الجنينة من اختصاصه”..

“قال أنا مسئول عن الأمن والآداب في المحافظة والمسرح لازم ينشال فورا”..

“وقطعوا النور حتى عن إدارة الجنينة نفسها، وقعدنا نشيل عزالنا في الضلمة، حتى الحمار اللي كان بيمثل معانا، بقى زعلان، واتهيألي انه بيعيط”.

وعادت نعيمة وصفي تغالب البكاء وهي تقول إن الدكتور حاتم قد أمر فورًا بأن يستمر العرض، على مسرح آخر هو مسرح علي الكسار، في عماد الدين.

قلت لها: هذا حل شهم يحفظ للفرقة كرامتها.

قالت لي: لقد كلفنا تجهيز هذا الجزء من الحديقة للعرض المسرحي ثمانية آلاف جنيه ضاعت كلها مع الأعشاب.

فقلت لنفسي: أيها الخوف من الحب، إلى متى ستظل تهزمنا، وتمرغ عقولنا في التراب؟!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الغداء مع آلهة الصيد

ولكي أريح القارئ من تعب الاسترسال في الخيال، أبادر فأنبه إلى أن هذا الغداء المذكور في العنوان، لم يكن مع "ديانا" آلهة الصيد الشهيرة في الزمن القديم، ولم يكن وعلًا مغروسًا في عصاةٍ طويلة تدور به فوق ألسنة النار المتأججة في حفرة الشوي على الطريقة الإغريقية القديمة.

إنما كان غداء عصريًا يضم شريحة لحمٍ مقلية في الدقيق، مناسبة في حجمها الأنيق لتلك المعدة العصرية التي يملكها الإنسان في زماننا الحديث، وكان المكان صالة طعام أنيقة في فندق عصري، نطل من شرفتها المرتفعة فوق إحدى هضاب "نافبليون" على البحر العظيم القديم، حيث يتألق ميناء تلك المدينة اليونانية باليخوت، وبالقوارب، وبالسفن الكبيرة والصغيرة، للنقل أو للسياحة أو للصيد.

وحيث نطل أيضًا على قلعة صغيرة في جزيرةٍ صخرية صغيرة، تركها الاحتلال العثماني في ذلك البحر علامة من علامات سلطانه الذي امتد ثم انكمش عبر الزمان.

أما آلهة الصيد التي شاركتها ذلك الغداء، فكانت مجموعة من سكان العالم المعاصرين، رجال ونساء، من باريس ولندن وفنلندا وأمريكا وأندونيسيا، وبعضهم كان أيضًا من اليابان، ألقى بهم – وبي معهم – ذلك الأتوبيس السياحي ساعة ظهيرة، في تلك البلدة القديمة نافبليون، لنتغدى في فندقها السياحي، ونستريح من عناء الصيد.

كنا جميعًا آلهة صيدٍ حديثة، تصطخب في نفوسنا رغبة الصيد وغريزته عارمة جبارة، دفعتنا لمغادرة أوطاننا المختلفة والبعيدة، فنتجمع في صباحٍ شديد التبكير أمام أكاديمية أثينا تحت سماء اليونان، لنركب ذلك الأتوبيس السياحي المكيف الهواء، فيغادر بنا أثينا عاصمة اليونان، إلى الحقول والتلال والجبال، فنصعد ونتسلق ونجري بين الصخور والأنقاض، وراء الصيد.

وكان صيدنا حضاريًا، يمثل لهفة الإنسان وفضوله لاستيعاب كل المعارف والحكم والمعلومات، يمثل لهفته وفضوله ليكون حيًا ويكون معاصرًا في كل زمانٍ ومكان.

كنا سواحًا نطلب الشعور باتصال التاريخ البشري ودوامه، وكان صيدنا صورًا وتماثيل وأعمدة وأحجارًا وبقايا قصور وهياكل ومعابد منحوتة ومدموغة بعلامات البشر القدماء وأختامهم.

كنا نصيد متعة التذكر والمعرفة ونسعى بجهدٍ لتسلق الصخور إلى تلك اللحظة المبهورة التي نقف فيها لاهثي الأنفاس أمام بضعة أحجارٍ قديمة ممحوةٍ

الكتابات، يكسوها العشب، بينما صوت مرافقتنا اليونانية الشاَبة يقول لنا مثلَا: هنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض، استطاع المواطن البسيط الشاب هيراقل منذ بضعة آلاف من السنين، أن يصارع ثعبانين كبيرين أرسلتهما الآلهة هيرا الغيورة، نكاية في كبير الآلهة زيوس، فيتغلب على الثعبانين ويقتلهما، ويبرز باسمه بين الأبطال، ويضع خطوط مستقبله كواحدٍ من الآلهة.

يكون كلام الترجمانة اليونانية الشابة رخيمًا، بينما نحدق نحن في الأحجار الشبيهة بغيرها من الأحجار فلا نجد أثرًا للثعابين، ولا نجد أثرًا للبطل هرقل أو الغيورة هيرا، لكن كلام الترجمانة مضافًا لهذه الأحجار القديمة، يقنعنا بأن هذا فعلًا هو المكان الذي حدثت فيه تلك الحكاية التي قرأناها في الكتب عن هذه الشعوب القديمة، ويصيبنا الشعور بالانبهار رغم أنوفنا، لأننا قد عاصرنا تلك الحكاية مرة حين قرأناها، وها نحن نعاصرها مرة ثانية بمشاهدة المكان الذي وقعت فيه حوادثها، وهكذا نحصل خلال انبهارنا على هذا الشعور المميز بأننا عشنا جميع الوقائع، في جميع الأزمنة، ويكون هذا خير صيدٍ نخرج به من تعبنا في السياحة.

في ذلك الصباح المبكر خرج بنا ذلك الأتوبيس السياحي المكيف الهواء، من الطابور الذي يقف فيه عشرات من زملائه الأتوبيسات الواقفة أمام الأكاديمية تحمل مئات من السياح لتنطلق بهم عبر بلاد اليونان، في رحلاتٍ سياحية تنظمها مكاتب السياحة.

رحلات لنصف يوم أو ليومٍ كامل، أو ليومين أو لثلاثة، في شمال اليونان أو غربها أو جنوبها الشرقي أو الشمالي، ولكل رحلةٍ رقم، ولها اسم، ولها رسم نقدي مقرر يشتمل على الانتقالات والإقامة في الفنادق وتذاكر المتاحف والمناطق الأثرية، وكذلك الشرح المثقف الواعي الذي تقوم به الترجمانات باللغات الثلاث، الفرنسية والإنجليزية واليونانية، من مقعدها المجهز بميكروفون إلى جوار السائق.

وكنت قد اخترت الرحلة التي تحمل رقم خمسة، رحلة اليوم الواحد إلى «أرجوليس» بلاد نهر البيلوبونيز القديمة، حيث لجأ بنات داناؤوس اللاتي أقبلن من مصر، مستجيرات بعمهن الملك، كما تقول التراجيديا التي كتبها في القرن الخامس قبل الميلاد الشاعر الأثيني أسخيلوس.

لقد جف نهر البيلوبونيز القديم الآن، وأصبح مكانه طريقًا عصريًا مسفلتًا للنقل والسياحة، فما خطب المستجيرات بنات داناؤوس الملك المصري؟.

وبأي قرابة دينية كن يستجرن في "أرجوس" من بلاد الإغريق؟.

هل بتلك الأم القديمة «يو» التي خرجت على شكل بقرة من وادي أرجوس حتى أتت مصر فولدت أباموس جد الفراعنة والاسبرطيين معًا؟.

لقد كان يحكم مصر في ذلك الحين ملكان هما إيجبتوس وأناؤوس، وأراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه الخمسة من بنات شريكه، فأبين هذا الزواج وهاجرن إلى عمهن ملك أرجوس، أحد ملوك أسبرطة القديمة، كما تقول تراجيديا المستجيرات لأسخيلوس.

ولقد ذهب المؤرخ هيرودوت المعاصر للشاعر الأثيني، إلى أن ملكي أسبرطة قد انحدروا من أصول مصرية، وأن اختيار ملكين في وقتٍ واحد في أسبرطة، كان اتباعًا لنظام المصريين في الحكم.

كما أن بعض المؤرخين قد ذكروا أن فلاسفة اليونان في القرن السادس والسابع قبل الميلاد، كانوا تلامذة وحواريين للعلماء المصريين في جامعة عين شمس التليدة.

فهل أستطيع بتلك الرحلة الخامسة إلى وادي أرجوس، أن أعثر على ما يثبت لي صحة تلك الروايات القديمة؟.

لقد خرج بنا الأتوبيس السياحي متحمسًا شديد النشاط من أثينا، وعبر بنا الضاحية دافني حيث لا تزال تقام أعياد ديونسيز القديمة، أعياد النبيذ الشهيرة، حيث تنتشر البراميل في الشوارع مهداة من مصانع النبيذ الكبيرة، يعب منها الجميع مجانًا، وصعد بنا في الطريق الخلوي النظيف الدائري، بحذاء خليج سالونيك، ثم توقف بنا لحظة معلقين في الفضاء فوق قناة كورنثة العجيبة، المشقوقة بعمقٍ عمودي في الجبل الشاهق، وبعدها تركنا لحظة نلتقط أنفاسنا ونشرب القهوة السريعة في الكافيتيريا الحديثة المقامة على الطريق السياحي، قبل أن يدخل بنا وسط الصخور صاعدًا الجبل لنتفرج على مدينة كورنثة القديمة نفسها.

تجولنا ساعة بين البقايا، والتقط بعضنا صورًا تذكارية لرفاقه وهم يجوسون في الكهوف الصخرية التي قالت الترجمانة أنها كانت دكاكين أسواق كورنثة القديمة، ثم دخلنا المتحف فأدهشني ذلك الجناح الكبير المجهز في تلك البقعة الجبلية، لمجموعةٍ متواضعة من الفازات الأثرية والأواني، معظمها مكسور أعيد تكوينه ولصقه، نتف من البخار كانت منثورة في تراب الأرض، جمعها الأحفاد بأناةٍ وصبر، ومضوا بأناةٍ وصبرٍ أيضًا، يقرأون ما سجله الأجداد على هذه الأواني من عظاتٍ ووصايا.

وعاد الأتوبيس يحملنا من جديد عبر الجبال المزدهرة المخضرة بأشجار الأخشاب الطويلة، ومزارع الدخان، وشجيرات كروم أرجوس الشهيرة،

وكانت شمس اليونان قد بدأت تلوح لنا رفيقة حنونة من خلف زجاج النوافذ المحكم، ونحن جلوس خلفه في الهواء المكيف، ننعم بالرؤية ونحن نصعد في الجبال ونعبر الأخاديد العميقة ومهاوي الوديان والأغوار السحيقة، دون أن نبذل الجهد.

وكأنما يتعمد ذلك الأتوبيس السياحي أن يطوف بنا في قلب الحياة اليونانية الحديثة من خلال قراها التي نعبرها، لنعلم أيضًا كيف يعيش اليونانيون في الحاضر، وكيف يستثمرون جبالهم وقراهم، بينما نبحث خلف آثار الماضي.

ونبهنا صوت الترجمانة إلى أننا نقترب الآن من «ميسينا» المدينة الغنية بالذهب، عاصمة المملكة الكبيرة القديمة، التي اكتشفها الأثري الألماني الشهير شليمان، كان تاجرًا في جبال اليونان واستهوته فكرة الكشف عن أسبرطة القديمة، فباع تجارته وتفرغ للحفريات.

لقد كشف شليمان في تلك المنطقة عما أسماه قبر أجاممنون، وقادتنا الترجمانة إلى ممرٍ طويل بين جدارين طويلين من الحجر السميك، في نهايته باب طويل مرتفع فوقه مثلث حجري وقالت: هذا المثلث كان المدخل الوهمي، أما الباب الكبير للقبر فكان مدفونًا بين تلٍ صناعي على طريقة الفراعنة القدامى في إخفاء مقابرهم.

وكانت وراء الباب باحة دائرية واسعة عالية السقف، سقفها دائري له طابع القباب، وقالت هذه ليست غرفة الدفن، وكانت غرفة الدفن صغيرة وضيقة ومظلمة، فأشعلنا شموعًا، وأشعلنا ثقابًا، ومن يحمل منا ولاعاتٍ أشعلها.

ودخلنا بانحناءٍ شديد تفرضه الصخور إلى تلك الغرفة المظلمة، وكأنما نتوقع أن نجد بداخلها أجاممنون العظيم، ذلك الملك القديم الذي عاد منتصرًا بعد حرب طروادة التي استمرت أعوامًا طويلة، مشتاقًا لبيته ولزوجته، فقتلته تلك الزوجة كليمنسترا في الحمام، بمساعدة عشيقها، ولم يكن قد نظف جسده من عرق الحرب وترابها بعد.

هل وقفت هنا، حيث أقف أنا الآن، حاملات القرابين أو حاملات أوعية مياه الوضوء أو مياه التطهير، أمام جسد أجاممنون الملك، مع إليكترا ابنته، قبل أن يتقدمن بأوعيتهن ويسكبن الماء فوق القبر حيث يرقد الملك المنتصر ضحية لشهوة زوجته كليمنسترا وخيانتها، بينما إليكترا الابنة المفجوعة تتعزى بسكب الدموع حتى يصل شقيقها أورست من "أرجوس" فتوغر صدره للانتقام؟.

هل وقف هنا أورست حين جاء، يرتجف برعدة الفجيعة والخوف، بينما إليكترا تتلو في أذنيه قصيدة انتقامها، فلا تتركه حتى يقسم على قبر الأب بأن يقتل الأم الخائنة وعشيقها الخائن؟.

وقد تسربت حولي من داخل القبر الكبير الفارغ المظلم آلهة الصيد السياحي الحديثة، في ملابسها الملونة بتفصيلاتها الحديثة، فحجبت عن عيني أعشاب الأحجار، بتلك السيقان السياحية العارية، شوشت لهجاتهم اللغوية المختلفة على أفكاري الغارقة في الأسطورة القديمة، ثم جاء صوت مرافقتنا اليونانية الشابة الواقفة بجوار عربة المرطبات والحلوى المنصوبة في مدخل تلك المنطقة السياحية، يدعونا إلى الأتوبيس، ليعبر بنا تلًا يؤدي بنا إلى القصر الملكي في «ميسينا» حيث وقعت تلك الفاجعة التي خلدها أسخيلوس.

فلبينا الدعوة لنشاهد ما بقي مما حكاه الشاعر.

"ميسينا" معناها المليئة بالذهب، وعلى أسوارها التي أعيد ترميمها قال مواطن إغريقي قديم أن الرب بنى طروادة لتكون مقرًا لأنصاف الآلهة، وهنا "ميسينا" مرعى للأغنام، كان يقول ذلك في مجال الفخر بمراعيها الذهبية وغاباتها الأنيقة القائمة على التلال.

لم تكن مجرد قلعة ملكية، لكنها كانت عاصمة الملكية خلال فترة الإقطاع الأول القديم، وكانت مهد حضارة عريقة متألقة، لكنها في نفس الوقت دامية، فلم تكن الحروب تتوقف حتى تبدأ، بين ملوك الإقطاعيات، لأسباب كثيرة ساذجة وبلهاء، أهمها مثلًا، خطف النساء!.

دخلنا من بوابة الأسد الشهيرة، حيث يعلو المدخل مثلث صخري فيه حفر بارز، يمثل لبؤتين ناهضتين مستندتين على عمودٍ واحد بينهما، كانا آخر ما وقعت عليه عينا أورست الابن وهو يتسلل هاربًا من القصر، بعد أن قتل أمه وعشيقها أوجست، ليحتمي من ندمه وهواجسه بمعبد أبولو في "دلفي".

ومن البعد رأيت من فتحة البوابة أطلال القصر الملكي فوق أعلى ربوتين تطلان على المنظر البديع في وادي أرجيف الممتد إلى البحر الشديد البعد.

وحين حملنا الأتوبيس بعد ذلك عبر هذا الوادي نفسه للغداء والراحة في «نافبليون» على الساحل، كنت ما أزال ألوك في نفسي منظر دائرة القبور الملكية الواقعة في خلفية القصر وراء بوابة الأسدين مباشرة، حيث رقد أبطال تلك المأساة جميعهم، المنتصر، والمنتقم، والخائن، جنبًا إلى جنب، رقدتهم الأخيرة في ترابٍ واحد!.

وحيث عثر الأثري شليمان سنة 1876 بعد الميلاد على الأقنعة الذهبية الرائعة، التي كانت تغطي وجوههم جميعًا..!

وأثناء الغداء الجميل في «نافبليون» الجميلة التي كانت أول عاصمة لليونان المتحدة والحرة لمدة خمس سنوات من 1829 إلى 1834، مضيت أغسل روحي بمشهد البحر العظيم الرائع، الذي تدب على شاطئه النافبليوني حياة

مرحة ومضاءة حين يأتي الليل وتمتد على الرمال موائد آلاف السواح حافلة بالأسماك وحيوانات البحر الشهية والمشوية، بعد أن تعبوا من تأمل الموزايكو البديع والدروع والأواني الميكونية في المتاحف، وبعد يومٍ حافل بالصيد السياحي في أطلال «أرجوس» التي كانت أقدم مدينة معمورة في أوروبا بصفة مستديمة قبل أن يستولي عليها الاسبرطيون في القرن السادس قبل الميلاد.

ثم عدنا مثقلين بالطعام والتعب، إلى مقاعد رحلتنا الخاصة، لنواصل الطريق إلى قرية أبيدافروس، خاتمة مطافنا، لؤلؤة برنامجنا السياحي في رحلة اليوم الواحد، لنلقي نظرة على متحف أبيدافروس وعلى خرائب مصحة اسكليبيوس إله الشفاء القديم، وعلى المسرح القديم الأثري، حيث يقام كل صيف، مهرجان الدراما القديمة، ثم نعود بعد ذلك إلى أثينا قبل أن يهبط الليل، دون أن نشاهد الدراما.

وعلى طريق الحج الميكوني القديم المؤدي إلى مصحة اسكليبيوس في «أبيدافروس» وبينما الأتوبيس يعبر بنا بين أشجار البلوط التي تغطي التلال المحيطة، بدأت أفكر في التمرد على رحلة اليوم الواحد، وقلت لمرافقتنا أنني أنوي البقاء في «أبيدافروس» لمشاهدة العرض المسرحي فقالت: إن العرض ينتهي في منتصف الليل، وكل السيارات تكون خاصة بأصحابها الذين جاءوا خصيصًا لمشاهدة الدراما، فقلت لها: سأغامر.. فقالت: إنه لا يوجد في المنطقة فنادق، إنما توجد مخيمات، وكل خيامها خاصة بأصحابها أيضًا.. فقلت لها أنها ستعاونني في إيجاد أية وسيلة للعودة، لكنها في النهاية غير مسئولة.

وحين غادرنا الأتوبيس في موقعه الفسيح المزدحم بمئات الأتوبيسات والسيارات الخاصة وسط غابة أبيدافروس الرائعة الحافلة بأشجار الفواكه والنباتات والزهور الجميلة، قلت لنفسي وأنا أتأمل تلك المساحة الخضراء المزهوة بارتفاعها فوق الوادي، أن النوم هنا تحت القمر بعد العرض المسرحي سيكون رائعًا، لو أنني لم أجد للعودة وسيلة!.

ومضيت أتجول في المكان المليء بعربات الأطعمة الخفيفة ومشروبات وأكشاك بيع التذاكر والآلاف العديدة من البشر من جميع الأجناس ومن جميع البلاد، جاءوا إلى «أبيدافروس» لمشاهدة المكان أو لمشاهدة العرض أو للاستشفاء في تلك المصحة الطبيعية وسط الغابة التي نمت فوق خرائب مدينة الشفاء القديمة، وعلى أنقاض معابدها وملعبها الرياضي وحماماتها الفاخرة، حين كان الشفاء يتم بالإيحاء وتنظيم الطعام والراحة في الهواء النقي وبالرياضة.

وحتى الجراحة، كان إله الشفاء القديم هذا يصفها للمرضى في أحلامهم، فيتم الشفاء فعلًا، وكأنهم قد أجروا الجراحة!.

وكانت نظرية إله الشفاء قائمة على أن الشفاء يتم بالإيمان به، وقد جاء الآلاف من البشر إلى «أبيدافروس» من أنحاء العالم ومن اليونان نفسها، ليجربوا الشفاء بنفس الطريقة، وكانت مئات الميكروفونات المعلقة بين الأشجار والممتدة مئات الأمتار عبر الغابة والقرية نفسها، تعلن طوال الوقت عن البرنامج، وتنصح قاطعي التذاكر وتوجههم حسب أرقام تذاكرهم إلى الدروب والمنافذ التي يمكنهم أن يتوصلوا إلى مقاعدهم منها.

فالمسرح أثري قديم، صممه في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، النحات المهندس بوليكلتيوس من «أرجوس».. درجاته منحوتة في الجبل بارتفاع خمسٍ وخمسين درجة، على شكل دائرة صاعدة ومتسعة من أعلى، تتسع لخمسة عشر ألف من المتفرجين، لا يخلو أبدًا مكان أحدهم طوال ليالي الصيف خلال الاحتفال السنوي للدراما أو مهرجان الدراما الإغريقية القديمة الشهير في قرية أبيدافروس، والذي بدأ منذ عام 1954 كنوعٍ من النشاط السياحي.

وكانت اللافتة الرئيسية للبرنامج تعلن أن عرض الليلة هو كوميديا أريستوفان «النساء في الحكم» ويخرجها سقراط كارانديتوس، وقد وضع موسيقاها الحديثة الساخرة نيكوفوروس روتاس، وتلعب بطولتها الممثلة كاكيا بانايوتو أمام الممثل الكبير بنديلس زيرفون.

تفقدت برنامج العرض الذي أهداه إلي الصديق ليكونيدس، نائب رئيس هيئة الاستعلامات في أثينا، وهو بالمناسبة من مواليد الإسكندرية، ثم حجزت لي مقعدًا في تابلوه بائع التذاكر، ومضيت أقفز بين الأشجار، ثم خلعت حذائي وتمددت على العشب، سعيد بتحرري من رحلة اليوم الواحد، غير عابئ بما سيحدث لي في الليل بعد العرض، فقد كانت الطبيعة حولي جميلة وأليفة وودودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

متعة الجلوس في الماضي

في الزمن الماضي كانوا يجيئون عبر التلال، حاملين عصيهم الطويلة المقطوعة ببراعة من أشجار البلوط والسنديانات السامقة حول الحقول وفي الغابات، يجيئون من الوديان البعيدة، تتردد موسيقى أجراسهم النحاسية الصغيرة المعلقة في أعناقهم، لتنبئ بأصواتها المجوفة عن وجودهم في الظلام، أو ينحدرون من القلاع الجبلية، حاملين رماحهم وسيوفهم، مستعيضين بصليل دروعهم عن هذه الأجراس.

وتكون وجهتهم جميعًا هذا المسرح القديم الذي بناه ذلك المهندس من «أرجوس» منذ ألفين وخمسمائة من السنوات.

في ذلك الزمان الماضي، كانوا يجيئون ونفوسهم عامرة بالصدق والشهامة، تفوح منهم على سفوح الجبال رائحة النبالة والعراقة التي تتولد من ذلك الالتحام الحميم النضالي مع قسوة الطبيعة وخشونتها، فيملأون سلالم هذا المسرح الحجرية بأرواحهم المشتاقة لمعرفة الحقيقة ولمعرفة الحكمة.

يقولون أن المسرح الإغريقي هو الابن الشرعي البكر لتلك الاحتفالات التنكرية القديمة في أعياد باخوس، وأن الأداء التمثيلي الذي يقوم به الأشخاص في جوقة الشاعر الدرامي، هو بديل لتلك الأقنعة التنكرية التي كانت شائعة للرمز والتأثير في الجمهور خلال تلك الاحتفالات الدينية الصاخبة، فلا عجب أن يجلس هؤلاء القادمون من الوديان والجبال مشدودين بقوة الإيمان من عيونهم وآذانهم إلى ما كان يحكيه لهم الشاعر وجوقته في هذا المسرح القديم.

في تلك الأيام القديمة البعيدة، كان حضورهم إلى هذا المسرح – الذي أتمدد حافي القدمين تحت الأشجار في انتظار دخوله – نوعًا من واجبات العبادة، واليوم، ها هم يجيئون بعد أربعة وعشرين قرنًا، إلى نفس المسرح، للسياحة.

كانت الرواية كوميديا إغريقية للشاعر الساخر أرستوفان، تحمل تحذيرًا أو عظة لرجال ذلك القرن الرابع قبل الميلاد، من خلال حكاية الست براكسا زوجة الحاكم التي تآمرت مع نساء الولاية، على إخفاء ملابس أزواجهن، لمنعهم من حضور الانتخابات، وأن يلبسن ملابس الرجال ودروعهم وشواربهم ويذهبون للإدلاء بأصواتهن لصالح براكسا وعصبتها النسائية، وهكذا تستولي على السلطة وتعلن برنامجها السياسي الذي يتضمن تنازل جميع المواطنين من الرجال عن ممتلكاتهم وأموالهم للخزانة العامة للولاية، كما يتضمن أن يصبح الرجال المواطنون جميعًا، ملكية عامة شائعة لجميع نساء الولاية، دون تفرقة بين شابة أو عجوز، أو بين قبيحة وفاتنة!.

وكانت الفرقة الأهلية اليونانية التي تقدم طول الصيف على هذا المسرح، في أمسيتي السبت والأحد من كل أسبوع، أوديب سوفوكليس وضفادع أريستوفان وأوريستية أسخيلوس وميديا يوربيدز، كانت تلك الفرقة حريصة على أن تقدم تلك الروائع القديمة بنفس اللغة اليونانية التي صاغها بها هؤلاء الشعراء القدامى.

فكيف يمكن لهذا الفنلندي أو تلك الأيرلندية أو ذلك الاسكتلندي أو الألماني أو الأمريكي، أن يفهم تلك اللغة اليونانية القديمة؟.

إنما هم يجيئون من أنحاء العالم ليملأوا مقاعد هذا المسرح الخمسة عشر ألفًا بملابسهم الحديثة المزركشة، مستمتعين بجماليات القرن الرابع قبل الميلاد وعظاته في ذلك المسرح المفتوح، الذي يجسد عليه هؤلاء الممثلون الحديثون، شخصيات أجدادهم القديمة الدرامية.

كانوا يملأون الغابة حولي، متناثرين تحت الأشجار، وأمام أكشاك الآيس كريم المنوع والمثلجات المنوعة، كمثل سوق عكاظ القديمة حيث كانت تجتمع مختلف القبائل.

وكانت الميكروفونات المعلقة في الأشجار قد بدأت تعلن أن العرض سيبدأ في الساعة الثامنة بالدقيقة، وبعدها لا يسمح بالدخول لأي كائن، فبدأوا ينسابون حولي في الطريق الصاعد بين الأشجار ليؤدي إلى المسرح، وبينما كنت أرتدي حذائي لأتبعهم، جاءتني مرافقتنا في رحلة اليوم الواحد لتعطيني ورقة تحمل اسم شابٍ يوناني، قالت أنه زميلها في مكتب الرحلات السياحية، وأنه قد جاء في رفقة مجموعة سياحية جاءت خصيصًا لمشاهدة الدراما، هو مشغول الآن بقيادتهم إلى أماكنهم داخل المسرح، وحددت لي مكانًا بين أكشاك قاطعي التذاكر، وقالت أنه سينتظرني فيه بعد العرض المسرحي لمدة ثلاث دقائق، ونصحتني أن أكون موجودًا خلال هذه الدقائق الثلاث، ليحملني في سيارتهم في رحلة العودة.

وكانت تبدو عليها علامات الرضا، لأنها استطاعت أن تجد حلًا لمشكلة عودتي المتأخرة التي كنت أنا سببًا فيها، رغم أنني قد أعلنتها في البدء أنها غير مسئولة.

وشكرتها وأنا أتساءل هل فعلت ذلك بدافعٍ من إحساسها الوظيفي كمرافقة سياحية تنتمي إلى بلدٍ سياحي يرغب في إرضاء جميع زواره أم أنها فعلت ذلك بدافعٍ من إحساسها الطبيعي كإنسان يبذل جهدًا يستطيعه، ليقدم مساعدة لإنسان آخر؟.. فقد كان أداؤها طبيعيًا جدًا، لدرجةٍ اختلط فيها الواجب الوظيفي بشعور التزامل الإنساني.

وعلى بداية مشارف المسرح الصخرية القديمة، تقدمت للدخول مندهشًا من ذلك العدد الكبير من رجال الأمن بملابسهم الرمادية وأحزمتهم البيضاء الأنيقة، يقفون على المداخل وممرات السلالم، لتوجيه الجمهور وضبط نظام دخوله وجلوسه، وحين جلست، كنت أستطيع من مقعدي الحجري في هذا المسرح الدائري الكبير أن أشاهد الجالسين حولي، وأن أشاهد بوابة الدخول، وأن أشاهد الغابة، وكانت عيني على ساعتي حين أعلنت العقارب تمام الثامنة، فرأيت الجنود وعيونهم على ساعاتهم أيضًا، بينما تهرول أمامهم مجموعة سياحية ترغب في اللحاق بالدقيقة الأخيرة.

دخلوا المسرح مقوسين على أنفسهم، منحنين ووجوههم في الأرض، بينما يعبرون إلى مقاعدهم أمام جمهور النظارة عقابًا لهم على تأخيرهم، بينما كان الجنود يشكلون صفًا مترابطًا ويغلقون بأجسامهم البوابة.

وعلمت أن تلك الدقة في التوقيت، وذلك المظهر الأنيق المحكم لرجال الأمن، جزء من تقاليد مهرجانات اليونان للدراما والموسيقى التي تشرف على تنظيمها المنظمة الصيفية اليونانية للسياحة، حيث يتجمع كل صيف منذ تسع عشرة سنة، مئات آلاف من الزوار لمشاهدة عروض الأوبرا والباليه والموسيقى والرقصات الشعبية، التي تشترك في تقديمها أوركسترا كرافيوني وأوبرا صوفيا والباليه الروسي، وغيرها من الفرق الفنية القادمة من أنحاء العالم.

بالإضافة إلى فرق اليونان المسرحية، التي يجري نشاطها في ثلاثة فروع، أحدها يعمل على المسرح الحديث في أثينا، والآخر يقدم الكلاسيكيات الإغريقية تحت أقدام الأكروبات على قمة الصخرة المقدسة التي يربض فوقها البارثينون على مسرح هيرود أتيكوس الذي بناه سنة 161 بعد الميلاد المهندس هيرودوس من أتيكا، على شرف أنيا ريجيلا زوجة الحاكم أبيا.

أما الفرع الثالث فهو عبارة عن فرقة تمثيلية متجولة، تحملها سيارات مسرحية وتجوب بها في ربوع اليونان وجزره وجباله وقراه، فتقدم للمواطنين عروضها الكلاسيكية والحديثة، على المسارح الأثرية القديمة التي خلفها الأجداد القدامى في ربوع اليونان المختلفة، علامة بارزة على حب هذا الشعب للموسيقى والشعر بفنونه الدرامية المتنوعة على اختلاف سلالاته، ودليل على أن هذا الحب قد استقر في نفوسهم منذ القدم استقرار العبادة، فما هذه المسارح العديدة التي تركها الإغريق في وديانهم وجبالهم ومدنهم القديمة، سوى بديل لتلك الكنائس والمساجد التي سنتركها نحن لذريتنا كميراثٍ تاريخي، بعد أن يطول بنا الأجل.

هنا كتب إنجيل يوحنا

على مدى شهور العام تشهد جزيرة باتموس إحدى جزر بحر إيجه اليونانية العديد من الاحتفالات الدينية التي يشترك فيها الأهالي ورجال الدين في الكنائس المنتشرة في أنحاء الجزيرة.

لكن أهم هذه الاحتفالات هو عيد القديس يوحنا، الذي يجري في 15 أغسطس من كل عام، وفيه تقام المراسم الدينية والحفلات الراقصة في ميادين وشوارع جميع قرى الجزيرة وفي العاصمة «هورا» التي تحتل كاتدرائية «القديس يوحنا» كل مساحتها.

باتموس أو قدس بحر إيجه كما يطلقون عليها، تجذب إليها كل عام آلاف السائحين، لزيارة هذه الكاتدرائية التي تعتبر من أهم الآثار المسيحية في العالم، كما تعتبر قبلة للمهتمين بدراسة تاريخ الكنيسة الشرقية، لانها تضم تراثًا نادرًا من المخطوطات والتحف النادرة التي تعود إلى قرون بعيدة.

ما إن تقترب بك السفينة من جزيرة باتموس، حتى تحس أنك مقبل على أرض جرداء تغلف الكآبة كل مكانٍ عليها، لكن ما أن تطأ أقدامك أرض ميناء سكالا حتى يتغير هذا الإحساس تمامًا، فكل شيءٍ في هذا المكان الهادئ يوحي بالسلام والطمأنينة، وتنسى تمامًا الصخور السوداء التي تعلو الجزيرة، فالوجوه الهادئة الباسمة التي تستقبلك في «سكالا» والملابس المزركشة التي ترتديها جميلات هذه الجزيرة، وعشرات الأبراج التي ترتفع فوق الكنائس في كل مكان، ستجعلك تشعر بأنك في أرض السلام.

وأول مكان طلبنا زيارته كان العاصمة هورا، والتي تبعد ميلين فقط عن الميناء قطعتها بنا السيارة عبر طريق صاعد ضيق جعلنا نحبس الأنفاس رعبًا، وتوقفت بنا السيارة أمام المدخل الرئيسي لكاتدرائية سان جون أو القديس يوحنا كما يعرفه قراء العربية، والتي تمتد لتحتل كل مساحة العاصمة، الطرقات داخل الكاتدرائية مرصوصة بالحجارة المربعة الكبيرة، والمدرجات الرخامية المتآكلة ترتفع يمينًا ويسارًا، كل منها تؤدي إلى مبنى أو قسم من أقسام الكاتدرائية.

وأشار الدليل السياحي إلى إحداها وقال: هذا السلم يؤدي إلى كنيسة أبو كاليبس التي أمضى بها القديس يوحنا عامين حين نفاه الرومان، حيث كتب إنجيل يوحنا، وهو أحد الأناجيل الأربعة التي دونها تلاميذ السيد المسيح لوقا ومتى ومرقص ويوحنا، والأخير كتب إنجيله بعد قيامة المسيح بسبعين عامًا، وعبر سلم آخر متعرج، صعدنا إلى المتحف والمكتبة حيث تجمع العشرات يتأملون هدايا الملوك والأباطرة.

ومن بين محتويات هذا المتحف صليب مرصع بالياقوت والزمرد، هدية من الملكة كاترين ملكة روما في القرن الثامن عشر، والآخر من الذهب الخالص،

وميدالية مرصعة بالأحجار الكريمة ترجع إلى القرن السابع عشر أيضًا.

كما يضم المتحف مجموعة من السجاجيد الأثرية وهي مطرزة بالفضة وتمثل صورة العذراء ووليدها المسيح، وكذلك ثوب كنسي يرجع إلى القرن السابع عشر، وعصا من العاج الأبيض المطعم بالأبنوس وبعض الأثاث الأثري والأدوات النحاسية والخزفية والعديد من الأيقونات النادرة.

وفي المكتبة انكب بعض علماء اللاهوت، جاءوا من هولندا للاطلاع ودراسة المخطوطات النادرة التي تضمها المكتبة والتي يرجع بعضها إلى العصر البيزنطي، ومنها الأمر الذي أصدره الإمبراطور البيزنطي إلكسيوس كومنينوس الأول، بمنح الجزيرة إلى أسيوس كريستو دونوس، وهذا القس هو الذي قام في عام 1088 ببناء الكاتدرائية تخليدًا لذكرى القديس يوحنا.

وفي المذبح وقفنا جميعًا مشدوهين لروعة وفخامة ما يضمه من تحف ترجع إلى القرن الثامن عشر، فالسقف القوطي الطراز والجدران والمذبح نفسه صنع من النحاس المشغول بوحدات زخرفية بارزة تمثل في أغلبها الورود، وتتخللها الملائكة تحيط بالسيدة العذراء ووليدها السيد المسيح.

أما التحف فهي من الفضة، وهناك شمعدان من الفضة يرتفع ثلاثة أمتار، وفي غرفة جانبية يرقد جسد كريستو دونوس في صندوق من الفضة، كل شيء يوحي بالمهابة والجلالة والروعة، مما جعلنا نكتفي بزيارة الكاتدرائية، ولا نفكر في زيارة الكنائس الأخرى المنتشرة هنا وهناك فوق كل مكان في الجزيرة، والتي من أجلها لا يمضي يوم إلا وتقام الاحتفالات الدينية، يشارك فيها كل الأهالي بالجزيرة، وفيها يستعرضون ألوان الفن الشعبي الذي تمتزج فيه ثقافات الشرق والغرب.

أنشودة السياحة

حين تلمس قدمك أرض اليونان، سوف تدرك فورًا أنك تخطو في بلدٍ قد كرس نفسه كي يمضي سكان العالم إجازة مدهشة وممتعة فيه.

ما من شيءٍ في اليونان لا ينتمي إلى الجهاز السياحي الشامل، الخفي والمسيطر معًا، والذي يهيمن هيمنة كاملة على ما تحتويه البلاد من طبيعة وبشر.

حتى رجال الشرطة الموجودين فعلًا في كل مكان، وجودًا غير ملموس، ناعم ولبق بمظهرهم النظيف الأنيق ووسامتهم المعتدة، يجعلونك تشعر أن اليونان قد تعمدت اختيارهم بأناقة من بين شبابها، ليكونوا في أبعد جبل أو جزيرة عن العاصمة، كما في المدن والعاصمة ذاتها، عنوانًا لجمالها ورخائها.

إن ارتفاع الدخل على مستوى الفرد في اليونان، يتضاعف باستمرار، على الرغم من أن اليونان لا تملك سوى ثلاثة مصادر أساسية للدخل، هي السياحة، والنقل البحري، وتحويلات المهاجرين من أبنائها في أنحاء العالم، الذين تتزايد عودتهم إلى بلادهم عامًا بعد عام الآن، وذلك لأن السياحة تجيء في المقدمة.

إن محلات البقالة والعطارة ومتطلبات الحياة اليومية للسكان والورش، تختفي وتنزوي في الطرقات والشوارع الجانبية، تاركة مكانها في الميادين والشوارع الرئيسية، لمكاتب تنظيم الرحلات السياحية، ومحلات بيع الأنتيكات والمصنوعات المحلية المنتجة خصيصًا للزوار، تلك المحلات المنتشرة بغزارة كثيفة حتى تكاد تغطي وجه اليونان الحقيقي، خلف هذا القناع الصناعي من الأقمشة المزركشة والتحف الأثرية المقلدة.

لقد تمكن اليونانيون ببراعةٍ يحسدون عليها، من حصر كل ما خلفه الأجداد على الأرض اليونانية، سهولها وجبالها، من آثار مهدمة، أحصوها قطعة قطعة، وأعادوا تركيب ما أمكنهم إعادة تجميعه وتركيبه، وأقاموا لكل منطقة أثرية متحفًا يضم مآثرهم وذكرياتهم، مهما صغرت هذه المنطقة وضؤل ما تحتويه.

فإن تمادت في الصغر والضآلة حتى أصبحت مجرد عمود واحد دون تاج، يوشك أن يتهاوى وحده في الفراغ الجبلي، فإن غرفة واحدة تكفي، فيها موظف أنيق، وتضم الصور الملونة التي تقدم التاريخ القديم لهذا العمود الوحيد، ومآثره مع اخوته من الأعمدة الأخرى التي تهاوت وتحطمت، فبنى القرويون في الجبال بيوتهم بحطامها على مر الأزمنة، صورًا ملونة في كارت بوستال، أو في كتالوجات كاملة، وكتب ودراسات شاملة تحكي تاريخ المنطقة، وقصص أبطالها، وبطولات سكانها القدامى الذين ناضلوا ضد الطبيعة القاسية وضد أنفسهم مع آلهتهم وملوكهم، وضد الملوك والآلهة المجاورة!.

فلن يكون خافيًا على العين الإنسانية، أن ترى كل البقايا الأثرية الهامة من قصور ومعابد، معلاة دائمًا في أعلى مكان في الجبل، حيث كان هؤلاء الأجداد يبنون مدنهم لحمايتها من الغزو، في النهار يهبطون إلى السفوح فيفلحون الأرض ويزرعونها، تاركين الآلهة والملوك والعلماء والفلاسفة في تلك القمم الشامخة، يطلون على البحر الأيوني العظيم حول جبلهم وجزيرتهم، ويرون في عمق مائه الأزرق سفن العدو حين تقترب، فيطلقون نفير الخطر للعاملين في سهول الجبل، ليحملوا عتادهم وممتلكاتهم ويقودوا مواشيهم ويصعدون بها إلى المدينة المحصنة، وقبل أن ترسو سفن العدو على شاطئهم، يكونون قد أغلقوا باب مدينتهم الضخم الثقيل خلفهم.

أحصى الأبناء المعاصرون ببراعة يحسدون عليها، كل ما خلفه هؤلاء الأجداد المناضلون وراءهم، وصنفوه وصوروه وسجلوه في كتب وفي صور، وفي تماثيل صغيرة خشبية أو نحاسية مقلدة، وأنشأوا لكل منطقة متحفًا، فإن ضؤل ما تحتويه وصغر، أنشأوا مكتبًا صغيرًا يضم الكتب والصور يبيعها الموظف الأنيق للزوار، ومن الضروري أن يكون بجوار المكتب دورة مياه كاملة، نظيفة وصالحة، وأن يكون بجواره أيضًا سيارة متحركة تبيع العصير والساندويتش والحلوى والمأكولات السريعة والمجهزة.

بل وأكثر من هذا..

أنشأوا حول هذه المناطق الأثرية ساحات مجهزة بكل المرافق اللازمة لإقامة المخيمات مظللة بالأشجار، مفروشة بالعشب، بمرافقها المائية والكهربائية الكاملة، مهما بعدت المنطقة عن العمران، أو تاهت في وديان الجبل، ينصب فيها السائح الفقير أو الجوال خيمته، ويقيم حياته، أو يتمدد على أعشابها داخل لحافه المغلق عليه، لقاء بضعة قروش قليلة يدفعها رسمًا لاستخدام العشب والمرافق.

فعل الأبناء المعاصرون في اليونان ذلك وهم مؤمنون بأن العصر الحديث قد قلب كل المفاهيم القديمة للسياحة، فلم تعد السياحة أرباحًا فقط، تنهال من جيوب قلة معدودة من البشر وصلت من العمر أرزله، وتريد أن تمضي ما بقي لها في النزهة وإنفاق ما أمضت عمرها تجمعه.

لقد أصبحت السياحة وسيلة للتعارف الإنساني على نطاق الشعوب، وشبابها في المقدمة، لأن الشباب جديرون بالمعرفة، التي تقودهم بضيائها وهم يصنعون مستقبل الأمم.

إن السائح الشاب الذي يجيء إلى اليونان على قدميه، تثقل ظهره حقيبته، راغبًا أن يرى اليونان ويتعرف عليها في جميع جزرها وجبالها، متحديًا جنيهاته الضئيلة القليلة الخجولة في جيبه، مضحيًا براحته ليعوضها، فليأكل من الطعام أرخصه، ويستخدم من أماكن النوم والإقامة أقلها تكلفة، متجنبًا الكباريهات وبيوت اللهو، لا يقل أهمية عندهم، ولا يقل حفاوتهم به عن حفاوتهم التي يستقبلون بها ذلك السائح الآخر الذي يجيء محملًا بصرة دولاراته، أو بدفاتر شيكاته السياحية يبعثر منها أينما حل أو ذهب.

فكل من هذين السائحين أصبح في زماننا ينافس الآخر في أهميته.

إن السائح الثري سوف ينفخ بقدرته المالية في أرقام الدخل الوطني فتتصاعد وترتفع.

أما ذلك الآخر، فسوف يمضي بصندله السميك صاعدًا وهابطًا على حواف الجبال، يشرب من النبع التاريخي الخصب للبلاد، ويتعرف على ميزاتها وعلاماتها وآثارها، حتى يمتلئ بالمعرفة والحب، وحين يعود إلى بلاده، فلابد أن تفيض المعرفة ويفيض الحب من داخل نفسه إلى أقرانه وزملائه وجيرانه ومعارفه، فيحكي ويحكي عن تلك البلاد حتى تمتلئ بالمعرفة والحب نفوس الجميع.

وهكذا تكتسب اليونان كل عام، مزيدًا متزايدًا من الزوار السائحين، حتى أصبح يزورها سنويًا 2 مليون سائح، بينما التعداد الأخير لسكانها جميعهم حين زرتها لم يزد عن تسعة ملايين.

وأصبح هذا المزيد المتزايد من السياح يشكل مادة للمعارضة، تلغط وتثرثر بها ضد الحكومة القائمة، التي تدير كتفها استهانة بلغط المعارضة، وتتوسع في إنشاء المرافق وتدعيم المواصلات، وكأنما تقول في وجه المعارضة: لا شيء يهم غير أن يسيح السائح.

لقد أدركت اليونان أن السائح يسافر ليرى، فبدأت في شجاعة وبراعة تحسب وتحصي ما لديها مما يمكن أن يرغب السائح في رؤيته، فوجدت أنها تملك بحرًا عظيمًا مليئًا بالجزر، وتملك جبالًا وتملك شواطئ وتملك شمسًا، وتملك فوق ذلك كله آثارًا قديمة مبعثرة خلفها الأجداد، فجعلت كل همها أن تجعل هذا الذي تملكه في أحسن صورة، وتقدمه للسياح الذين جاءوا ليروا.

وبينما أتجول بين أنقاض الحضارة الميكينية، فأرى قواعد أعمدة دون أعمدة، وأعمدة دون تيجان، وركامًا من الرخام مبعثرًا هنا وهناك، قال لي سائح أيرلندي كان قادمًا من القاهرة: لديكم في مصر آثار مهولة، تبلغ في القدم آلافًا مؤلفة من السنوات، أعظم وأضخم وأقدم بكثير مما تراه هنا، لكنكم للأسف لا تعرفون كيف تعرضونها، إن الأهرام العظيمة في صحراء الجيزة، أو حتى معابد الكرنك في الأقصر، لا توجد بجوارها دورة مياه صالحة يلجأ إليها السائح عند الضرورة..!

وقبل أن أغادر اليونان، كنت أودع صديقًا قديمًا منذ أيام الدراسة مضت عشرون سنة دون أن أراه، ورأيته في اليونان قائمًا بأعمال سفارتنا هناك، المستشار محمد هندام، مضينا نتحدث ثلاث ساعات في نفس الموضوع، ما تملكه مصر من ميراث تاريخي خلفه الأجداد، ومن بحر وشواطئ وجبال وجمال طبيعي، يجعلها أول بلد سياحي في العالم، ورغم ذلك، فهي ليست أول بلد سياحي في العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

المحتويات

عن الكتاب..

مقدمة..

(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)
(8)
(9)
(10)
(11)
(12)
(13)
(14)
(15)
(16)
(17)
(18)
(19)
(20)
(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)
(8)
(9)
(10)

(11)
(12)
(13)
(14)
(15)
(16)
(17)
(18)
الرحلة الأولى
باريس الخيال.. باريس الحقيقة
خيال فاقع
رغيف باريس
وهو في الحقيقة حبًا.
شرق وغرب
عن اللعب
عن الحرية
وهكذا تكون المداعبة..
الرحلة الثانية
اليونان
متعة الجلوس في الماضي
الغداء مع آلهة الصيد
متعة الجلوس في الماضي